

قامت الطالبة باجراء التصويبات التي طلبتها
لجنة المناقشة .

أعضاء لجنة المناقشة

المجلس الأعلى للدراسات والبحوث
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة والإرشاد
قسم الدراسات العليا
فرع العقيدة

أ. د. / بركات عبد الفتاح
نوييدار
براحة الأدرسي

د. محمد ولد سيدي الحبيب
د. عبد الشكور محمد
أمان العروسي

رسالة مقدمة في أصول العقيدة

موضوعها وأسئلتها

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠١٩٤٧

إعداد

الطالبة / الأستاذة /
الأستاذة / الأستاذة /
الأستاذة / الأستاذة /



إشراف

الأستاذ الدكتور /
الأستاذ الدكتور /
الأستاذ الدكتور /

١٩١٩

المجلد الأول

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

سورة
الاحقاف

شکر و تعویذ
سیر

شكرو وتقدير

أحمدك اللهم وأشكرك ، أنت أهل الحمد ويستحقه ، لا إله غيرك
ولا رب سواك ، أنت مسدى كل نعمة وميسر كل مهمة ، يقول نبيك محمد
عليه السلام " لم يشكر الله من لم يشكر الناس " (١) والعمر لا يستطيع أن يفنى
بحق كل من جعلته سببا في وصول نعمك وإحسانك إلى خلقك ، ولكنني
أتجنيء اليك بأن تجزى كل محسن وتكافئ كل صانع معروف .

غير أنه لا بد من التنويه بما لوالدي - أمد الله في عمرهما - وزوجي
الكريم ، من الدور الكبير في حثهم لي على التحصيل العلمي وصبرهم معي
على ذلك .

ولا أنسى فضل أستاذي الجليل فضيلة الدكتور ، بركات عبد الفتاح
دويدار ، الذي كان لحسن تعليمه وسعة صدره وغزير علمه أكبر الأثر في
تفتيح مدارك طالباته ، فله مني خالص الشكر .

كما أتوجه بالشكر لكل أستاذ فاضل وأستاذة كريمة وأخت عزيزة . . .
وأشكر كل من أسدى لي معونة سواء بقراءة البحث أو بإبداء الرأي والمشورة
أو بتقديم التصويجات أو بإعارة كتاب فله مني جميل الشان .

وأخيرا ، خالص شكري وعظيم تقديري لجامعتي العريقة - جامعة
أم القرى - وكليتي الفتية - كلية الدعوة وأصول الدين - فهما صرح شامخ
ومنار واضح في مهبط الوحي يضيء لطلاب العلم دروب المعرفة على نور من
العقيدة الصحيحة والدعوة القوية .

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه وجعل العمل خالصا لوجهه الكريم .

(١) الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه . انظر مسند الامام أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : الدعوة في سورة غافر موضوعها وأسلوبها .

الدرجة العلمية : ماجستير .

اسم الطالبة : أحلام محمد سعيد باحمدان .

ملخص الرسالة

اقتضت طبيعة البحث أن يكون في قسمين : الأول يتناول الجانب العقدي في السورة والذي يتحدث عن العقيدة والأخلاق فيها . . العقيدة بجميع عناصرها/ إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلا أن كل ذلك كان في ضوء سورة غافر فقط والتي هي موضوع الدراسة ، أما الجانب الأخلاقي فقد اعتمد على اتجاهين ، اتجاه مصوب نحو الأخلاق الحسنة والتي تطرقت إلى الشجاعة والصبر ، والاتجاه الآخر نحو الأخلاق السيئة والتي انحصرت في الكبر والاسراف والفرح والمرح بغير الحق ، وسبب هذا الحصر هو التقيد بموضوع السورة .

أما القسم الثاني من الرسالة فقد تناول الجانب الدعوي الذي اشتمل على أساليب الدعوة في السورة فكان الحديث عن الجدل وأقسامه وموضوعاته ومآله ، ثم الحديث عن القصة وأهميتها وعناصرها وما ورد منها في السورة ، وأخيراً الحديث عن أسلوب الترهيب والترهيب وأهمية كل منهما مع ذكر صورته المتعددة من خلال السورة .

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها :

- ١ - ان سورة غافر هي سورة العقيدة حيث اشتملت على كل أسسها .
- ٢ - ان سورة غافر هي سورة الأخلاق لأن السورة - كما نعلم - مكية تعالج القضايا العقيدية كما أسلفت وهي في نفس الوقت توهّس القضية الأخلاقية .
- ٣ - ان سورة غافر هي سورة الدعوة ويتضح ذلك من أساليبها الثلاثة سواء في جدلها أو قصصها أو ما سلكته في أسلوب الترهيب والترهيب .
- ٤ - ان سورة غافر بأساليبها العملية وهي توهّس أساسها العقدي قد استخدمت الكثير من وسائل التأثير في عرض ما لديها لتلهم به النفوس وتثير كوامنها ومن هذه الوسائل : التوكيد والتكرار ، التعريف ، الاسجال ، الاستدراج ، الالتفات ، التخلص .

عميد كلية الدعوة وأصول الدين

المشرف

الطالبة

علي

د . علي بن نافع العليان

د . بركات عبد الفتاح
د . دويعدار

أحلام محمد سعيد
باحمدان

بركات

سعيد

المقدم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١)

المقدمة

الحمد لله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب
ذی الطول لا إله إلا هو إليه المصير . الحمد لله الذي أرسل المرسلين
مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة . الحمد لله الذي دعانا
ورسوله لما يحيينا ، والصلاة والسلام على من بعثه الله شاهداً ومبشراً ونذيراً
وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً نيرة ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه الكرم
تسليماً كثيراً .

وبعد :

يقول الله عز وجل في محكم آياته :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا لِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١)

فلقد جعل الله جل جلاله الدعوة أحسن الأقوال ، لما فيها من
تعريف به عز وجل وتوحيد له ، وتوضيح لهداه ، فأسس قواعدها في كتابه
الكريم ، تارة بأسلوب التوجيه المباشر ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَابَ الَّذِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢)

وقال سبحانه مخاطباً موسى وأخاه هارون عليهما السلام حينما

أرسلهما إلى فرعون :

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيًّا ﴾ (٣)

-
- (١) سورة فصلت آية ٣٣ .
(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .
(٣) سورة طه آية ٤٤ .

وتارة بالتوجيه غير المباشر كالترغيب والترهيب والقصص . . الخ ،
ولقد جاءت هذه القواعد بأساليب بلغت الذروة في سمو الفكرة وابداع
الصورة ، وكانت محل دراسة الكثيرين إلا أنني لاحظت أن الدراسات فسي
أغلبها قد اقتصرت على النظرة العامة للوسائل دون التركيز على عوامل
التأثير فيها ، ولذا أردت أن أجعل بحثي هذا سبيلاً للتعريف بها
في ظل آفاق جديدة لدعوة مدروسة دقيقة .

وقد تخليت من الله قلبها أن تكون دراستي في مجال الدعوة
وكان لهذه الأهمية أسباب هي :

أولاً - قدم الدعوة وجدتها :

ما لا شك فيه أن أمر الدعوة إلى الله بدأ بآدم عليه السلام واستمر
ولن ينتهي إلا بنهاية آخر إنسان على الأرض ، نعم ، إن قاعدة الدعوة
واحدة ، ولكن أسلوب الدعوة إلى هذه القاعدة يختلف باختلاف الأزمنة ، وهي
بحاجة لمن يضيف إليها المزيد .

ثانياً - أهمية الدعوة :

من المسلم به لدى الجميع أن الإسلام وأهله اليوم يعانون من تكالب
دول الشرق والغرب عليه بكل ما يملكون من وسائل وتقنيات ليجروا العالم
إما إلى الحاد مدمر أو نصرانية باطلة ، فحق على الدعوة إذاً أن تولى العناية
من أبنائها وبناتها ، وأتمنى أن أضع بهذا البحث ولولبنة واحدة في بناء
ذلك الصرح الشامخ .

ثالثاً - أما لماذا سورة غافر ٢٢

فإن لهذا قصة بدأت معي حين أنهيت دراستي المنهجية ، وكان أمامي أن أختار موضوعاً للبحث ، فأدرت في المكتبات عيوناً حائرة ولم يستوقفني إلا كتاب الله وذكرى كلمات قديمة بأن هذا الكتاب هو منطلق الدعوة فتناولته ، وساهرت وساهرتني ، وأدرت في سورة عيوناً آلمة ، واستوقفتني قصة مؤمن آل فرعون وإذا بهي أمر برياض آيات السورة من أولها ، وكأنني أقرأها لأول مرة فإذا بهي أخرج منها بنفس تسيل تأثراً ، وما هو إلا أن وقتت بجوانبها بضع وقات حتى شعرت أنني قد بدلت من نفسي نفساً غيرها ، فأصبحت انظر إلى الآيات فأرى فيها من المعاني الموهنة ما يملأ القلب حسناً ، كنت أرى الآيات فرأيت معانيها ، وأرى الأساليب فرأيت تأثيرها ، وأرى من خلالها الخير وحسنه ، والشر وقبحه ، ولا عجب في ذلك للأسباب التالية :

- ١ - إن سورة غافر هي إحدى السور المكية ، وهذا يجعلنا نعيش في جو الأُسس التي قامت عليها الدعوة إلى الله ، لا سيما أن العالم اليوم يعيش غربته الثانية ولن يصلح إلا بما صلح به بالأسس .
- ٢ - إنها تمثل جانباً من جهاد رسول هو موسى عليه السلام ، ظهر تأثيره منعكساً من خلال أحد أتباعه - مؤمن آل فرعون .
- ٣ - إن هذه السورة تصور لنا ما يحدث في الإيمان من آثار تتجاوز حدود القلب والعقل والنفس لتتطرق به الجوارح فيصبح واقع حياة وأساس دعوة .
- ٤ - إن حظ قصة مؤمن آل فرعون من الدارسين لم يتجاوز السطور دون دراسة أو تحميم .

وقد بدأت حديثي عن الجانب العقدي فيسنت تواعد العقيدة من جميع جوانبها كلاً على حدة بتعريفها ثم السير بها على النحو الذي سلكته سورة غافر خاصة ، إذ قمت باستقصاء تلك الوقفات من السورة ، وتقسيمها إلى مباحث لا أعطي كل مبحث حقه من الدراسة ، إلا أنه ينبغي أن أشير إلى أنني قد اغلقت - حين الحديث عن مباحث العقيدة - الكثير ما يتعلق بجوانب الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، إذ وجدت أنها تخرج بي عن موضوع البحث ، وقد سوت فيها من الصفحات الكثير ، واكتفيت في هذه الدراسة بما يوضح ما نحن بصدده في ضوء السورة التي بين أيدينا .

ثم تناولت السورة من جانب الدعوة مستقصية وسائل الدعوة فيها ، فكنت أذكر الوسيلة وأتبع آياتها في السورة لا تناولها بالشرح والتحليل واستخراج ما فيها من فوائد للدعوة مع الوقوف أمام مواطن العبرة بعد تثبيت تلك الوسائل بالدفاع عنها أمام من حاول التقليل من شأنها ، وقد حاولت أن أقف أمام عوامل التأثير التي حفلت بها سورة غافر .

وقد رجعت في موضوعي إلى أمهات الكتب فيما يتعلق بمسائل العقيدة والدعوة واللغة كل في مكانه ، لكنني لم أستغن عن الجديد منها وخاصة فيما يتعلق بالدعوة وبعض مواضع العقيدة التي تبحث في قدرة الله سبحانه وتعالى والتي قدم فيها العلم الحديث الشيء الكثير ، كما عنيبت بتخريج الأحاديث ما وسعني ذلك فله الحمد والمنة .

أما بالنسبة للصعوبات فلا يخلو بحث من صعوبه وليس البحث

مجال الإفاضة فيها .

وقد انعقد البحث على باين يسبقهما تمهيد وتلوها خاتمة .

أما التمهيد : فكان في ثلاثة مباحث :

البحث الأول - في الدعوة الى الله - سبحانه وتعالى - وموقعها

من الدين .

البحث الثاني - في حكم الدعوة الى الله تعالى .

البحث الثالث - تصور عام للسورة (اسمائها ، وقت نزولها ومكانه ،

عدد آياتها ، فضلها ، مناسبتها لما قبلها ،

موضوعاتها الرئيسية) .

وأما الباب الأول : فعنوانه : (قضايا العقيدة والاخلاق في ضوء سورة غافر)

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : القضايا العقيدية في سورة غافر ، وفيه ستة مباحث :

البحث الأول : تمهيد في معنى الايمان وأركانها مع بيان

للفرق بينه وبين الاسلام وذلك بشكل عام ، ثم الحديث

عن الايمان من خلال السورة فقط .

البحث الثاني : في الايمان بالله - وهو التوحيد - أول ركن من

أركان العقيدة ، تحدثت فيه عن معنى التوحيد وأقسامه

مقسما ثلاثة أقسام ، خصصت كل قسم لنوع من أنواع التوحيد

بحسب دلائل السورة على ذلك التوحيد فكانت المطالب

التالية :

المطلب الأول : توحيد الربوبية ، حيث تمت بتوضيح المقصود به ثم تحدثت

عن دلائل السورة على هذا الجانب من التوحيد خلال عرض بعض

آيات الله الكونية تارة ، وتذكير الناس بأنفسهم تارة أخرى .

المطلب الثاني : توحيد الألوهية حيث تمت بتوضيح المقصود به ثم الوقوف أمام ما تحدثت عنه السورة والذي يتلخص أمره في سوق آيات الربوبية في الخلق والتدبير والملك والحفظ والرعاية والاحسان والرحمة وجعل ذلك دليلا على الوحدة في الألوهية ، وبيان انفراد سبحانه بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا والتي لا يكون لها الا من اتصف بها ، ثم التنديد بما يتخذة الناس الهبة من دون الله واطهار حالها من العجز ، والتشنيع بحال العابدين لهذه الآلهة الباطلة ورميهم بالضللال والسفه حيث رضوا لانفسهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، وأخيرا تصوير ما سيكون يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة .

المطلب الثالث : توحيد الأسماء والصفات ، حيث تمت بتوضيح المقصود به عند السلف ثم تحدثت عن دلائل السورة على هذا الجانب من التوحيد من خلال ما تحمله ^{من} أسماء وصفات .

المبحث الثالث : في الايمان بالملائكة حيث اشتمل على مقدمة حول معنى الايمان بالملائكة ثم الحديث عن هذا الجانب العقدي من خلال السورة فنشأ عن ذلك ثلاثة مطالب ، وهي :

المطلب الأول : جانب من وظائفهم في السماء والذي اقتصر على حملة العرش .

المطلب الثاني : جانب من عباداتهم بعد اثبات حقيقة ايمانهم وهي التسبيح بحمد الله .

المطلب الثالث : جانب من وظائفهم في الأرض والذي اقتصر على الدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم .

المبحث الرابع : في الايمان بالكتب والذي اشتمل على تمهيد

وثلاثة مطالب :

التمهيد : في معنى الايمان بالكتب.

المطلب الأول : وجوب الايمان بالكتب السماوية اجمالا وتفصيلا .

المطلب الثاني : وجوب الايمان بها شرعا وعقلا .

المطلب الثالث : اتفاق هذه الكتب في الاصول .

المبحث الخامس : في الايمان بالرسل ، وفيه تمهيد ومطلبان :

التمهيد : حول معنى الايمان بالرسل .

المطلب الأول : عدد الانبياء والرسل عليهم السلام ، ومن خلال ذلك كان

لا بد من الوقوف أمام من ذكرتهم السورة وهم نوح عليه السلام ،

وهود عليه السلام ، وصالح عليه السلام ، ويوسف عليه السلام ، وموسى

عليه السلام .

المطلب الثاني : بعض من وظائف الرسل عليهم السلام ، والتي تتلخص في

الآتي :

أولا : دعوتهم الى الله .

ثانيا : كونهم مبشرين ومنذرين .

ثالثا : اقامة الحججة على الخلق .

المبحث السادس : في الايمان باليوم الآخر ، وفيه تمهيد ، وأربعة

مطالب :

التمهيد : في معنى الايمان باليوم الآخر .

المطلب الأول : بعض من أسماء ذلك اليوم من خلال ما ورد في السورة .

المطلب الثاني : بعض من شاهد ذلك اليوم .

المطلب الثالث : التأكيد على عقيدة حياة البرزخ (عذاب القبر) .

المطلب الرابع : جانب من الرد على بعض منكري البعث .

الفصل الثاني : في قضايا الاخلاق في سورة غافر .

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : في تعريف الخلق لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني : في صلة الاخلاق بالعقيدة .

المبحث الثالث : في الاخلاق الحسنة في السورة ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الصبر ، وفيه تعريف الصبر ، ثم الحديث عن هذا الخلق

من خلال السورة والذي يتناول كيفية الصبر على المعارضين للرسالة

والمنكرين لها ، وماهية الزاد لهذا الخلق العظيم وخاتمه .

المطلب الثاني : الشجاعة ، وفيه تعريف لها ، وعلى أي شيء تقوم ، وما

هي مظاهرها من خلال السورة .

المبحث الرابع : في الاخلاق السيئة في السورة ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الكبر ، وفيه تعريف الكبر ، وما كان لسورة غافر من حطة

على هذا الجانب الاخلاقي السيء مع محاولة للتعليل لكون السورة

أكثر من ذكر هذا الخلق وأسهب في زمه ، ثم الحديث عن

أسباب ودوافعه ثم نهايته السيئة سواء في الدنيا أو في الآخرة

وأخيرا ما ينبغي للداعية أن يدركه من حقائق وهو يواجه كبر

المتكبرين .

المطلب الثاني : في خلق الفرح والمرح بغير الحق وفيه سائل :

المسألة الأولى : في خلق الفرح بغير الحق ، حيث قمت بتعريفه

ثم فرقت بين الفرح المحمود والفرح المذموم ، مع الوقوف

أمام الفرح المشار إليه في آيات السورة وتناولت آياته

بالتوضيح والشرح .

المسألة الثانية : في المرح بغير الحق ، حيث قمت بتعريفه ، ثم

التفريق بينه وبين الفرح مع توضيح ما اذا كان هناك مرح

محمود أم أن المرح كله مذموم من خلال السورة .

المطلب الثالث : في الاسراف ، وفيه تعريف له ، مع بيان المقصود به في

القرآن عامة ، ثم الوقوف أمام المعنى الواضح من السورة ، مع

تناول آياته بالشرح .

وأما الباب الثاني : ففي أساليب الدعوة في سورة غافر ، وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في أسلوب الجدل وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : في تعريف الجدل لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : في أقسام الجدل ، وكونه محموداً تارة ومذموماً

تارة أخرى ، ومتى يكون مذموماً ومتى يكون محموداً

وما هو نوع الجدل المذكور في السورة .

المبحث الثالث : في الموضوعات التي جادل فيها القرآن الكريم من

خلال السورة ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الجدل لاثبات الوحدانية ، ومن خلاله كانت الاستدلالات

المتى تقوى الأمر باستحقاقه العبادة وحده فلا يجنح لمعتذر

عذر ولا لمحتج حجة ، وفي ضوء ذلك حاولت أن أدرس الأسلوب المتبع

بكل ما يحمله من عوامل التأثير .

المطلب الثاني : الجدل في أمر البعث والجزاء ، وهي القضية الثانية التي جادل فيها المجادلون ، ومن خلال ذلك ظهرت استدلالات السورة على إمكان البعث وتحقق وقوعه ، وقد حاولت الالتزام بنفس المنهج في توضيح أسلوب تلك المجادلة ، ومعد ذلك كانت لنا وقفة يستفيد فيها الداعية من الأسلوب الذي انتهجه الرسول عليه السلام والحجة القوية في مجادلتة للمشركين .

البحث الرابع : في المجادلات التي وردت في السورة ، وفيها :

مجادلة فرعون لموسى عليه السلام وما يخرج به الداعية منها .
ثم مجادلة موء من آل فرعون لفرعون ومَلِّه موضحه فيها أسباب المجادلة وما سلكه ذلك الموء من في خطابه لفرعون وملكه من مسالك شتى وما انتهجه من أسلوب في معالجتة قومه ، ثم ما كان من نهاية لذلك الجدل وما يستخلصه الداعية منه .

البحث الخامس : أهمية أسلوب الجدل للداعية .

والفصل الثاني : في أسلوب القصة ، وفيه ثلاثة مباحث :

البحث الأول : في تعريف القصة لغة واصطلاحاً .

البحث الثاني : في أهمية القصة في القرآن ، مع التفريق بين القصص المدوح والقصص المنعوم عامة .

البحث الثالث : في عناصر القصة وتشمل :

١ - الشخصية .

٢ - الأحداث .

٣ - الحوار .

٤ - الزمان والمكان .

مع الإشارة الى مواضع ذلك في السورة الكريمة .

(ك)

المبحث الرابع : في القصص الذي اشتملت عليه السورة ، وفيه

مطلبان :

المطلب الأول : قصة موسى عليه السلام مع فرعون (دراسة تحليلية) .

المطلب الثاني : قصة مؤمن آل فرعون (دراسة تحليلية) .

مع الإشارة الى ما أشارت اليه السورة من قصص تتعلق بنوح وهود

وصالح ويوسف عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ومحاولة

التعليل لتلك الاشارات .

الفصل الثالث : في أسلوب الترغيب والترهيب وفيه بحثان :

المبحث الأول : أسلوب الترغيب ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الترغيب لغة واصطلاحاً .

المطلب الثاني : أهمية أسلوب الترغيب والترهيب ، ومن خلال ذلك كان

الرد على من حاول التقليل من قيمة هذا الأسلوب في كونه

وسيلة للتربية .

المطلب الثالث : في صور الترغيب في السورة ، والذي انحصر في ثلاث

صور ، تناولتها بالدراسة والبحث والتفسير ما استطعت .

المطلب الرابع : في أهمية أسلوب الترغيب للداعية .

المبحث الثاني : في أسلوب الترهيب ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : في تعريف الترهيب لغة واصطلاحاً .

المطلب الثاني : في أهمية أسلوب الترهيب .

المطلب الثالث : في صور الترهيب في السورة ، والتي انحصرت في تسع صور ،

مع تناولها بالشرح والدراسة .

المطلب الرابع : في أهمية أسلوب الترهيب للداعية .

وأما الخاتمة : ففيها اجمال لنتائج البحث .-

فهرس

سنة

- وفيه ثلاث مسائل :
- ١ - الدعوة إلى الله وموقعها من الدين .
 - ٢ - حكم الدعوة إلى الله تعالى .
 - ٣ - التعريف بسورة غافر .

بسم الله الرحمن الرحيم

- ٢ -

التمهيد

المسألة الأولى - الدعوة إلى الله وموقعها من الدين :

(الدعوة هي : الرغبة إلى الله عز وجل ، ودعا الرجل دعوا ودعاء :
ناداه ، والاسم : الدعوة . والداعية : صريخ الخيل في الحرب لدعائه
من يستصرخه .

(١)

وقوله تعالى : ” وَدَاعِيَ إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ”

معناه : داعيا إلى توحيد الله وما يقرب منه ، وفي كتابه صلى الله عليه
وسلم إلى هرقل : ” أدعوك بدعاية الإسلام ” (٢) أي بدعوتك ، وهي
كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة ، وفي رواية ” بداعية
الإسلام ” (٣) ، وهو مصدر بمعنى الدعوة .

والدعاة : قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة ، وأحدهم داع ،
ورجل داعية إذا كان يدعو إلى بدعة أو دين ، أدخلت الهاء فيه
وكذلك المؤن ^{الناس} _{ذن} ، والنبي صلى الله عليه وسلم داعي الله تعالى ، وفي التهذيب :
النبي صلى الله عليه وسلم داعي الأمة إلى توحيد الله وطاعته (٤) .

إلا أن هذا المعنى اللغوي قد تخصص بالدعوة إلى الحق ، وهي
ما نحن بصدد ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله (الدعوة إلى الله :

(١) سورة الأحزاب آية ٤٦ .

(٢) صحيح البخارى حديث طويل لأبن عباس ج ٥ وكتاب التفسير ،
سورة آل عمران باب ” قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة
سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ” ص ١٦٩ .

(٣) صحيح البخارى من حديث طويل ج ٤ كتاب المغازى باب ١٠٢ ،
” دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة ” ص ٤ .

(٤) لسان العرب لابن منظور ج ١٤ ص ٢٥٧ - ٢٥٩ مادة : دعى .

هي الدعوة إلى الإيمان به ، وما جاءت به رسله وبتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا (١) .

والدعوة قديمة قدم الانسان نفسه ، فهذا آدم ، ونوح ، وابراهيم ، وهود ، وعالج ، وموسى ، وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم اجمعين قاموا بالدعوة إلى الله ، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وهم بالدعوة ولها . ومن أجلها كانوا رسلا .

وإذا كتب الله أن يكون لكل رسول نهاية فلا يعنى ذلك

انقضاء الدعوة بموته ، بل يكون من بعده ورثة يحملون ذلك الميراث ، يوصلونه إلى من لم يصله ، ويذكرون من نسيه ، ويعلمون من جهله ، وهذا ما كان على مدار التاريخ ، تشهد له آيات القرآن . قال تعالى :

” إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) “ (٢)

وقال تعالى : ” لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) “ (٣)

فدُم من قتل الأمرين بالقسط ، ولعن من ترك التناهي عن المنكر ،

دليل على أن هناك من كان يقوم به ، وهو كد ذلك حديث مسلم من رواية

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١٥٧ ص ١٥٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢١ .

(٣) سورة المائدة آية ٧٨-٧٩ .

عبد الله بن مسعود (١) حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
" ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب
يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعد خلوهم
يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدكم ببيده فهو
مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ،
وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل . " (٢)

وقام بالدعوة خاتما للرسالات والدعوات محمد صلى الله عليه وسلم ،
وتركها أمرا خالدا وسبيلا مفتوحا ومنهاجا واضحا لمن بعده ، بعد أن
أدى ما عليه على أكمل وجه بأمر من الله ، قال تعالى :

” قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾ “ (٣)

(أى أن الله يأمر نبيه أن يخبر الناس أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا
الله وحده لا شريك له هي طريقته وسلوكه وسنته هو وكل من اتبعه ،
يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة ويقين) (٤)

(١) هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب ،
أحد السابقين إلى الإسلام ، والمهاجرين إلى الحبشة والمدينة ،
شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بدرًا وأحدا والخندق وبيعة
الرضوان وسائر المشاهد .

توفي سنة ٣٢ هـ (أنظر ترجمته في الإصابة ٣٦٨/٢ وما
بعدها ، الاستيعاب ٣١٦/٢ وما بعدها ، تهذيب الأسماء
واللغات ٢٨٨/١ وما بعدها) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب كون المنهبي
عن المنكر من الإيمان ٢م ج ٢ ص ٢٧ .

(٣) سورة يوسف آية ١٠٨ .

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٢ ص ٩٥-٩٦ .

وقال تعالى : **وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١) «

(أى ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعنى الآية : أنه يجب على
هذه الأمة أن تكون طائفة منها متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك
واجبا على كل مسلم بانفراده على الخصوص) . (٢)

وقوله تعالى : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣) «

(فامة محمد هي خير الناس ، وأنفع الناس للناس ، لأنها تقود الناس
إلى الخير والفوز الأبدى بدعوتها إلى الحق وأمرها بالمعروف ونهيها
عن المنكر) . (٤)

ومن ذلك يتضح الأمر الصريح للنبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّته
بالدعوة إلى الله إلى يوم القيامة .

٢ - حكم الدعوة إلى الله :

اتفق علماء الأمة على أن الدعوة إلى الله تعالى أمر واجب وفريضة
لازمة ، إلا أنهم اختلفوا في نوع فرضيتها ، حيث ذهب فريق إلى أنها

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) سورة آل عمران آية ١١٠ .

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ١ ص ٣٩٢ .

فرض عين ، وذهب آخرون الى أنها فرض كفاية واستدل كل فريق على ما ذهب إليه بأدلة توردها فيما يأتي :

الفريق الاول :

ذهب الفريق الاول الى أن (الدعوة الى الله فرض عين على

كل مسلم) وأقاموا رأيهم على قوله تعالى :

”وَلَا تَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يُدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١١٠﴾“ (١)

فقالوا إن ”من“ هنا بيانيه (٢) والمعنى : لتكونوا كلكم كذلك يومئذها

قوله تعالى : ”قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي“ (٣)

وقوله : ”كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ“ (٤)

ففي مجموع الآيات نلاحظ توجه الأمر والخطاب إلى جميع الأمة ما يدل على أن الدعوة فرض عين .

الفريق الثاني :

ذهب هذا الفريق إلى أن الدعوة إلى الله فرض على الكفاية (٥)

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

(٢) انظر تفسير النار / محمد رشيد رضا ج ٤ ص ١٠٤ .

(٣) سورة يوسف آية ١٠٨ .

(٤) سورة آل عمران آية ١١٠ ، وقد أوردها الألويسي في روح المعاني

ج ٣ ص ٢١-٢٢ .

(٥) انظر الفتاوى لابن تيمية / ج ١ ص ١٦٥-١٦٦ / الحسبة لابن تيمية

ص ٤٠-٤٦ / شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٣ .

ستدلا بنفس الدليل والمتمثل في قوله تعالى :

”وَلَا تَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾“ (١)

فقالوا إنَّ " من " هنا للتبويض ، معلمين ذلك بأن العلماء هم القادرون
على تحقيق تلك الشروط وليس كل الناس علماء (٢) .

وخلاصة الأمر : إن لكل من الفريقين أدلته وردوده ،

وأحسب أن هذا ليس مكانها ، فأكتفي بما أشرت إليه ثم أدلي بدلوى

المتواضع مرجحة بين الأقوال فأقول وبالله التوفيق :

إن أمر الدعوة إلى الله أمر واجب على كل مسلم ، وفرض عين على

الجميع كل حسب طاقته وذلك لا يكون إلا من منطلق الاحساس بالمسئولية

العامة ، خاصة وأننا نعيش وضعا عم فيه الهلاك كل جانب من جوانب الحياة

وليس له إلا تجديد النفوس القادرة ، فياخذ كل فرد منهم على يد الآخر

ليشعر كل واحد أنه محاسب من حوله كل من جانبه ، وأنه لن يكون

بأمن من التوجيه والملاحظة فإن ترك المعصية أو المخالفة خشية لله فقد أفلح

ولله الحمد ، من منطلق قوله تعالى :

”وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾“ (٣)

وإلا كان الترك على أضعف الايمان ، خوفا من الحساب والملاحظة من

الناس ، فلا تعم البلوى ولا يستشري الفساد ، ولا عذر لمعتذر مهما كان ،

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

(٢) تفسير المنار / محمد رشيد رضا / ج ٤ ص ١٤٠ .

(٣) سورة الذاريات آية ٥٥ .

لأنه وهو المسلم لا بد أن يكون على أقل القليل مدركاً بفطرته ودينه الخير خيراً فيحبه ، ويعلم الشر شراً فيكرهه ، فإذا أنكر من هذا الباب الذي يعلمه فقد أدى جزءاً من واجب يعم به النفع مع أجزاء أخر توهم من كل فرد بحسب علمه ، خاصة وأن الشرع لم يترك لمحتج حجة ، فالانكار باليد أولاً فإن لم يستطع فباللسان ، فإن لم يستطع فبالقلب وذلك أضعف الايمان .

ويظن بعض الناس أن التغيير بالقلب إنما هو عمل سلبي فحسب ، والواقع أنه عمل ايجابي ، لأنه حينما ينكر بقلبه فهو مثلاً لا يؤاكل العاصي ، ولا يجالسه ، ولا يواده . ويظهر الانكار على وجهه وبذلك يجد فاعل المنكر نفسه محاصراً من المجتمع الذي يعيش فيه ، ولا أدل على ذلك من موقف الرسول مع الثلاثة الذين خلفوا ^(١) وما نتج عن ذلك الموقف وتلك المقاطعة من نتائج ايجابية ، وهكذا فإن فاعل المنكر حينما يجد نفسه محاصراً من حوله لا بد أن ينتهي . وذلك يكون/المنكر قد بلغ غايته . وفي هذا الاتجاه يقول صاحب تفسير المنار (فالذين منعوا عموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جوزوا أن يكون المسلم جاهلاً لا يعرف الخير

(١) هم الذين ورد ذكرهم في سورة التوبة وهم كعب بن مالك ومرارة بن

الربيع العامري ، وهلال بن أمية الواقفي ، والذين نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الكلام معهم حين تخلفوا عن غزوة تبوك .

(انظر القصة في صحيح البخاري ج ٥ كتاب تفسير القرآن

باب " وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . . "

٢٠٨-٢٠٩ ، وصحيح مسلم ج ٤ كتاب التوبة باب " حديث توبة

كعب بن مالك وصاحبه " حديث رقم ٢٧٦٩ ص ٢١٢٠-٢١٢٨ (٢١) .

من الشر ولا يميز المعروف من المنكر ، وهذا لا يجوز دينا ولا تكليفاً^(١) ثم علق صاحب كتاب "أصول الدعوة" قائلا : (والعلم بطبيعته يتجزأ ويتعض فمن علم مسألة وجهل أخرى ، فهو عالم بالأولى جاهل بالثانية ، ومعنى ذلك أن يعد من جلة العلماء بالسبالة الأولى وبالتالي يتوفر فيه شرط وجوب الدعوة إلى ما علم دون ما جهل ، ولا خلاف بين الفقهاء في أن من جهل شيئاً أوجهل حكمه أنه لا يدعو إليه ، لأن العلم بصحة ما يدعو إليه الداعي شرط لصحة الدعوة ، وعلى هذا فكل مسلم يدعو إلى الله بالقدر الذي يعلمه)^(٢)

٣ - التعريف بسورة غافر :

أسماؤها :

لسورة غافر أسماء ثلاثة هي :

(١) (المؤمن) وبذلك ترجمها البخاري^(٣) في صحيحه ،

(١) محمد رشيد رضا ج ٤ ص ١٤٠ .

(٢) عبد الكريم زيدان ص ٣٠٢ .

(٣) هو محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخاري ، أبو عبد الله

الإمام الحافظ الشهير صاحب الجامع الصحيح وغيره من المصنفات

النافعة ، توفي سنة ٢٥٦ هـ (انظر ترجمته في تهذيب الأسماء

واللغات ٦٧/١ وما بعدها ، طبقات المفسرين للداودي ١٠٠/٢

وما بعدها ، طبقات الحنابلة ٢٧١/١ وما بعدها ، وفيات الأعيان

٣٢٩/٣ وما بعدها ، طبقات الشافعية للسبكي ٢١٢/٢ وما

بعدها) .

والترمذى (١) في الجامع ، وقد جاءت هذه التسمية من قوله
تعالى : ” وَقَالَ رَبُّ لِي لَتُؤْمِنُنَّ “
كما وردت هذه التسمية في السنة ، فقد روى الترمذى عن أبي هريرة قال ،
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم * من قرأ حم المؤمن من إلى (اليه
المصير) وآية الكرسي حين يصبح حفظ بينهما حتى يمسي ومن قرأهما حين
يمسي حفظ بهما حتى يصبح (٢) الحديث (٣)
(٢) سورة الطول ، ووجه التسمية بها من قوله تعالى في أولها :
” ذِي الطَّوْلِ “ (٥)

- (١) هو محمد بن عيسى بن سورة السلمي ، أبو عيسى ، الحافظ الضريع
العلامة المشهور ، أحد الأئمة في الحديث ، ذكره ابن حبان في
الثقات وقال * كان من جمع وصنف وحفظ وذاكر * وكان
يضرب به المثل في الحفظ ، توفي سنة ٢٧٩ هـ (انظر ترجمته
في : وفيات الأعيان ٤٠٧/٣ ، شذرات الذهب ١٧٤/٢ /
طبقات الحفاظ ص ٢٧٨ ، تذكرة الحفاظ ٦٣٣/٢) .
- (٢) رواه الترمذى عن أبي هريرة ج ٤ ص ٢٣٢ في كتاب فضائل
القرآن ، باب ما جاء في سورة البقرة وآية الكرسي ، حديث
رقم ٣٠٣٩ وقال الترمذى : هذا حديث غريب .
- (٣) انظر البرهان في علوم القرآن / الزركشي ج ١ ص ٢٦٩ ، الاتقان في
علوم القرآن / السيوطي ج ١ ص ٥٤ ، معترك الأقران / السيوطي
ج ٣ ص ٤٤٤ / روح المعاني / الألويسي ج ٢٤ ص ٣٩ ، التحرير
والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٧٥ .
- (٤) سورة غافر آية ٣ .
- (٥) انظر البرهان في علوم القرآن / الزركشي ج ١ ص ٢١٩ ، الاتقان
في علوم القرآن / السيوطي ج ١ ص ٢١٩ ، روح المعاني / الألويسي
ج ٢٤ ص ٣٩ ، فتح البيان / صديق حسن خان ج ٨ ص ٢٥٩ ،
التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٧٥ .

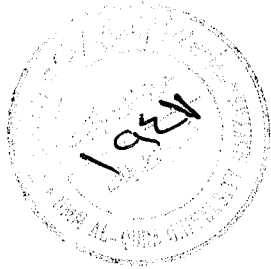
(٣) سورة غافر : ووجه التسمية بها من قوله تعالى في أولها :
”غَافِرِ الذَّنْبِ“ (١) (٢)

وقت نزولها :

هذه السورة جعلت الستين في عداد ترتيب نزول السور ، وهي أول
سور آل حم نزولا ، نزلت بعد سورة الزمر ، وقبل سورة فصلت (٣) وقد
توقف صاحب التحرير والتنوير أمام تاريخ نزول السورة ليحدده بالسنة
الثالثة قبل الهجرة ، معللا لذلك أنه (قد كانت هذه السورة مقروءة
عقب وفاة أبي طالب ، أي سنة ثلاث قبل الهجرة ، لأن أبا بكر قرأ آية
”أَتَقْتُمُونَ رَبًّا لَّئِن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ“ (٤)

حين آذى نفر من قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم - حول الكعبة ،
وانما اشتد آذى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة
أبي طالب . (٥)

ولكننا لا نسلم لصاحب التحرير والتنوير بهذا التعليل ، لأنه
لا يتم له ما ذهب اليه الا بعد توضيح لبعض النقاط والتي تشكل
علامات استفهام ، وهي :



- (١) سورة غافر آية ٣ .
(٢) انظر البرهان في علوم القرآن / الزركشي ج١ ص ٢٦٩ / روح
المعاني / الألويسي : ٢٤ ص ٣٩ ، الاتقان في علوم القرآن /
السيوطي ج١ ص ٥٤ ، التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن
عاشور ج ٢٤ ص ٧٥ .
(٣) انظر البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ج١ ص ١٩١ ، التحرير
والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٧٦ .
(٤) سورة غافر آية ٢٨ .
(٥) التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، ج ٢٤ ص ٧٦ .

أولاً : ألا يحتمل أن تكون هذه الآية التي قرأها أبو بكر هي التي كانت قد نزلت فقط في ذلك الوقت وأما السورة فلم تنزل الا بعد ذلك ؟

ثانياً : بل الأكثر من ذلك ، ما المانع في أن تكون السورة نزلت قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وقرأها أبو بكر في هذه المناسبة ، كما نقرأها نحن الآن كشواهد نزلت منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان ؟

هذه تساؤلات قد تثار في الأذهان إذا ما قرأ أحدهم تعليلاً صاحب التحرير والتنوير ، ومن هنا نكتفي بأنها نزلت بعد سورة الزمر ، ونزلت سورة الزمر قبل الهجرة ، فيكون نزول سورة غافر في ذلك التاريخ أيضاً .

مكان نزولها :

(هي مكية بالاتفاق ، قال ابن عباس ^(١) : " أنزلت حم المؤمن

بمكة " ، وعن سمرة بن جندب ^(٢) قال : نزلت الحواميم جميعاً بمكة . ^(٣)

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم النبي صلى الله عليه

وسلم ، حبر الأمة ، وترجمان القرآن وأحد الستة المكبرين من رواية

الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، دعا له النبي عليه السلام

بقوله " اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل " توفي بالطائف

سنة ٦٨ هـ (انظر ترجمته في الاصابة ٢/٣٣٠ ، الاستيعاب

٢/٣٥٠ ، شذرات الذهب ١/٧٥ ، طبقات المفسرين للداودي

١/٢٣٢) .

(٢) هو سمرة بن جندب بن جندب بن حجير السوائي من بني سواقة بن عامر

والد جابر لهما صحبة ، أسلم في الفتح ، كان مع سعد بن أبي وقاص

في المدائن ثم نزل الكوفة ومات بها في ولاية عبد الملك (انظر ترجمته

في: الاصابة في تمييز الصحابة ٢/٧٨ ، الاستيعاب ٢/٧٩) .

(٣) انظر روح المعاني / اللؤسي ٢٤/٣٩ .

إلا أن بعض المؤرخين والمفسرين أورد لها استثناءً في آيتين منها ، وهي :

(١) (قوله تعالى ” وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ”) ،

معللين لذلك أنها نزلت في فرض الصلوات الخمس وأوقاتها ، وفرض الصلوات الخمس وأوقاتها ما وقع الا في المدينة ، وإنما كان المفروض بمكة ركعتين كل يوم من غير توقيت (٢) .

والآية الثانية : (قوله تعالى :

” إِنَّ الَّذِينَ يَجِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَآئِينَ اللَّهُ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ فَتَاهُمْ بِكَلِمَاتٍ فَأَسْمَعُ بِاللَّهِ إِنَّمَا هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ” (٣) .

نزلت في يهود من المدينة جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم - في أمر الدجال ، وزعموا أنه منهم (٤) .

إلا أن الواضح من استقراء الآيات أن هذا الاستثناء من بناء ضعيف على ضعيف :

(١) أما الآية الأولى : (فإن الجمهور على أن الصلوات الخمس نزلت وفرضت بمكة في أوقاتها ، على أنه لا يتعين إرادة الصلاة

-
- (١) سورة غافر آية ٥٥ .
(٢) انظر روح المعاني ، الألويسي ج ٢٤ ص ٣٩ ، التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٧٥ .
(٣) سورة غافر آية ٥٦ .
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ج ١٥ ص ٢٨٨ ، الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي ج ١ ص ١٠-١١ ، روح المعاني ، الألويسي ج ٢٤ ص ٣٩ ، التحرير والتنوير ، بن عاشور ج ٢٤ ص ٧٥ .

بالتسبيح في الآية ، بل يحمل على ظاهر لفظه من كل قول ينزه به
الله تعالى . (١)

وأما الآية الثانية (فيقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " قولهم
نزلت الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك
داخل في الآية ، وان لم يكن السبب ، كما تقول : عني بهذه الآية
كذا ، وقال الزركشي في البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين
أن أحدهم إذا قال نزلت الآية في كذا فإنه يراد بذلك أنها تتضمن
هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب في نزولها ، فهو من جنس الاستدلال
على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع . (٢)

عدد آياتها :

اختلف في عدد آياتها (٣) فقد عدت آياتها اثنين وثمانين
في عد أهل البصرة (٤) ، (وأربعا وثمانين في عد أهل المدينة ومكة)
(وخمسا وثمانين في عد أهل الشام والكوفة) (٦) وقيل هي ست

-
- (١) انظر روح المعاني ، الألويسي ج ٢٤ ص ٣٩ ، التحرير والتنوير ،
بن عاشور ج ٢٤ ص ٧٥ .
- (٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٨ .
- (٣) قد يكون الاختلاف في عدد الآيات ، لأن اعتبار الآية وعدمه
يختلف من مذهب لآخر ، فالكوفيين مثلا يعدون حم آية ، ومن
عدهم لا يعدها آية (انظر البرهان ، الزركشي ج ١ ص ٢٦٧) .
- (٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ج ٢٤ ص ٢٨٨ ، الاتقان في
علوم القرآن ، السيوطي ص ٦٨ ، التحرير والتنوير ، بن عاشور ج ٢٤ ص ٧٧ .
- (٥) انظر الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي ج ١ ص ٦٨ ، روح المعاني ،
الألويسي ج ٢٤ ص ٣٩ ، التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم الخطيب
ج ٢٤ ص ١٢٠٢ ، التحرير والتنوير ، بن عاشور ج ٢٤ ص ٧٧ .
- (٦) روح المعاني ، الألويسي ج ٢٤ ص ٣٩ ، فتح البيان ، صديق حسن خان
ص ٢٥٩ ، التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم الخطيب ج ٢٤ ص ١٢٠٢ .

وقد ورد في فضل سورة غافر أحاديث وآثار عديدة ، أكتفني
 بما أورده الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 " من قرأ " حم المؤمن من " إلى " إليه المصير " وآية الكرسي حسين
 يصبح حفظ بها حتى يمسي ، ومن قرأها حين يمسي حفظ بها حتى
 يصبح . (٣)

مناسبتها لما قبلها :

قبل الحديث عن مناسبة السورة لما قبلها ، لا بد من الإشارة إلى
 أمر مهم هو ترتيب السور، فهل ترتيب السور في القرآن الكريم توقيفي
 أم اختياري ؟

التناسب واضحا سواء من ناحية :

(أ) مطلع السورة .

(ب) أو من ناحية نهاية السورة السابقة - سورة الزمر - وبداية اللاحقة - سورة غافر - .

أما من ناحية المطلع (فإن مطلع سورة غافر مناسب لمطلع سورة الزمر لما بينهما من التشاكل التي خصت به ، وهو أن كل سورة منهما استفتحت بالكتاب ووصفه ، مع تفاوت المقادير في الطول والقصر وتشاكل الكلام في النظام) (١)

ثم كان مناسبة فاتحة السورة - أي سورة غافر - بخاتمة التي قبلها - أي سورة الزمر - (حتى أن منها ما يظهر تعلقها به لفظا) . (٢)

فقد كان ما اشتطت عليه سورة الزمر قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَعْجَبُونِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣)

ثم كان ختامها : القضاء والفصل بين الناس ، وانزال الكافرين منازلهم من النار ، وانزال المؤمنين منازلهم من الجنة .

وبدء هذه السورة - غافر - يلقي الناس جميعا - بعد أن شهدوا - في السورة السابقة - الحساب والجزاء ، ورأوا جزاء المحسنين والمسيئين ، - يلقاهم - بكتاب الله ، الذي هو هداية كل ضال ، وضارة كل سالك إلى طريق النجاة ، ثم يلقاهم مع كتاب الله بغفران الله ورحمته ، وقبول توبة التائبين المنبجمن إليه ، وشدة عقاب الجادلين له ، المكذبين برسله (٤)

(١) أسرار ترتيب القرآن ، السيوطي ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ١/ ٨٦ .

(٣) سورة الزمراية ٥٣ .

(٤) التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم الخطيب ، ج ٢٤ ، ص ١٢٠٢ .

(ليكون ذلك استدعاءً للكافر إلى الإيمان والاقلاع عما هو فيه ،
وبين السورتين أنفسهما أوجه من المناسبة ، ويكفي فيهما أنه
ذكر في كل منهما أحوال يوم القيامة ، وأحوال الكفرة فيه وهم
في المحشر وفي النار ، وقد فصل في هذه من ذلك ما لم يفصل
منه في تلك) . (١)

وفي ضوء ذلك نتحدث عن :

موضوعات السور الرئيسية :

تطرقت سورة غافر إلى أصلين مهمين من أصول الإيمان يتشلمان فيما يلي :

(١) الإيمان بالله وتوحيده ، وذلك بالتهيبه على دلائل تفرده سبحانه
بالألوهية وإبطال عبادة ما يعبد من دونه ، وذلك بالاعتماد
على أسلوب الترغيب من خلال التذكير بنعمه العديدة على خلقه ،
ليشكروا ويؤمنوا بدل أن يعرضوا ويكفروا .

(٢) إثبات قضية البعث ، والاستدلال على إمكانية ^{الكافرين} ، بالاعتماد على
أسلوب التهيب حين يذكر / بما يلقون من هول يوم القيامة ،

(١) روح المعاني ، الألويسي ج ٢٤ ص ٣٩ .

وما يترقبهم من عذاب ، وتهديدهم بأن لا نصير لهم يومئذ ، وأن كبراهم
سيستبرون منهم ، وعندها سوف يعضون أعباع الندم حين لا ينفع
الندم .

ومن خلال الجوالعام الذي اعتمده الكافرون وهو الجدل ركز
القرآن على هذه القضية والتي كررها خمس مرات في هذه السورة مثلاً
حالهم بحال الأمم المكذبة السابقة ، منبها على أسباب استئصالهم ،
ضاربا المثل بقصة فرعون وقومه مع موسى ، وهطياتها قصة ذلك
المؤمن من مع فرعون ، ونهاياتهم ، وفي المقابل ذكر الله المؤمنين وتشبته
لهم ، والشنا عليهم ، وشنا الملائكة عليهم .

ومن خلال تلك الموضوعات الرئيسية كانت أبواب البحث وفصله
بمنهجها العلمي ، جاعلة موضوعات العقيدة متصدرة البحث ، ثم الوسائل
التي استخدمها القرآن في السورة للوصول إلى تلك الموضوعات ، فكان
الباب الأول للحديث عن قضايا العقيدة في ضوء السورة .

الباب الأول

قضايا العقيدة والأخلاق في ضوء سورة غافر

ويشتمل على الفصلين التاليين :-

الفصل الأول : قضايا العقيدة في ضوء السورة .

الفصل الثاني : قضايا الأخلاق في السورة

الفصل الأول

قضايا العقيدة في ضوء السورة .

ويشتمل على ستة مباحث :-

- المبحث الأول : في معنى الإيمان وأركانه .
- المبحث الثاني : الإيمان بالله (التوحيد) وأقسامه .
- المبحث الثالث : الإيمان بالملائكة .
- المبحث الرابع : الإيمان بالكتب .
- المبحث الخامس : الإيمان بالرسول .
- المبحث السادس : الإيمان باليوم الآخر .

الفصل الأول

قضايا العقيدة في ضوء سورة غافر

سورة غافر هي إحدى السور التي تعد من ديباج القرآن وعرائسه

ولبابه .

(يقول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - " ال حم ديباج

القرآن " ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " ان لكل شيء لبابا ،

ولباب القرآن آل حم) (٢) . وقال " مسعر بن كدام " : " كان

يقال لهن العرائس " . (٤)

وما أجدرها بذلك .. فقد جمعت بين أصول الايمان وأركانه .

تحدثت عن قضايا الايمان ، وخاصة قضية التوحيد والتي هي

روح الاسلام كله ، وأصل عقائده جميعا ، ومن هنا كانت هذه القضية هي

قطب الرحي الذي دارت حوله السورة .

لقد تحدثت عن قضايا الايمان ، ولكن ليست بالطريقة التي رتبنا

لها بل بطريقة القرآن المتكاملة المترابطة ، والتي يخدم بعضها

بعضا ..

(١) الديباج : ضرب من الثياب ، والديج : النقش والتزيين . (انظر لسان

العرب ، ابن منظور ، ٢/٢٦٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/٤٣٧ ، وسكت عنه الحاكم والذهبي .

(٣) أورده السيوطي في تفسيره وعزاه الى أبي عبيد في فضائله (انظر الدر

المنثور ٥/٣٤٤) .

(٤) أخرجه الدارمي في سننه ج٢ كتاب فضائل القرآن باب " في فضل حم

الدخان والحواميم والمسبحات ص ٤٥٨ .

تحدثت عن قضية اليوم الآخر ، ورست صورا لا هوالها فجاءت
مناسبة كنهاية للباطل وأهله .

ومن هنا كثرت الآيات حول قضيتي الايمان بالله واليوم
الآخر . . .

جاء الحديث عن الايمان بالله كبداية تقود الانسان العاقل ،
وتقول له الى أين ؟؟ ياكل هذه الاشياء المرئية والمحسوسة في ذاتك
وحولك تحت وهج النهار وعتمة الليل . . . وهل بعد هذا تتساءل
أين الله ؟ وهل له شريك في ملكه أم لا ؟؟ إن آيات الايمان بالله
رست الدرب لمن كان بلا رب ، وحملت من كان بلا أقدام ليكتشف

أبعاد الايمان . . قال تعالى :

” اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا لَّا هُوَ فَأَنَّى
تُؤْفَكُونَ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا آيَاتٍ لِلَّهِ يُجْحَدُونَ ﴿١٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ
رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ ” (١)

وجاء الحديث عن اليوم الآخر لتصوير نهاية المرء الذي امتدت
خطواته بلا هدف ، وجال في دروب الحياة بلا غاية ، وفتح ذراعيه
لكل ناعق بلا حذر ، وعاش في ظل كل طاغوت صاغرا ليجد نفسه أمام
أهوال القيامة لا يملك الا أن يكبح أنفاسه وهو يحاول أن يخرج من
بين كل تلك الأهوال ، ولكنها آمال لا تعرف لها اتجاها وليس لها صدى

(١) سورة غافر آية ٦١ - ٦٤ .

إلا في نفوسهم ، يقول تعالى :

” إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَافِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَجِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ “ (١)

أما ذكر الملائكة فقد كان في غيرها من السور مفصلا . . أما هنا - في سورة غافر - فقد جاء ليشعر أهل الحق أنهم ليسوا وحدهم ، بل معهم الله قبل كل شيء ، ثم معهم ملائكة يستغفرون ويدعون لهم : ” الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبُّنَا وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمَهُ وَعِلْمُ الْغُفْرِ لِلَّذِينَ تَابُوا وَأَتْبَعَهُ إِسْبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ ﴿٧﴾ رَبُّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ “ (٢)

أما بالنسبة للكتب فقد اقتصر الأمر على القرآن والتوراة ، أما القرآن فلأن سورة غافر من أولها إلى آخرها مبنية على لزوم حجة القرآن والتنبيه على معجزته .

وأما التوراة فلأن سورة غافر تضم جانبا كبيرا من قصة موسى عليه السلام ، فكان ذكر التوراة في معرض النعم التي أنعمها الله على بني اسرائيل والتي منها وراثتهم التوراة ليكون لهم كتاب هداية وذكرى .

(١) سورة غافر آية ٧١ - ٧٢ .

(٢) سورة غافر آية ٧ - ٩ .

وأما بالنسبة للرسول فقد ورد ذكر بعضهم كنجح ، وهود ، وصالح ،
ويوسف عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، ورد ذكرهم في معرض
التوجيه من قبل الله لرسوله بالصبر على قومه ، والانتظار عليهم ،
فقد أرسل رسلا كثيرين من قبله وكان لهم أقوام كقومه تطلبوا ...
وتحركوا ... وملكوا ... واستمتعوا ... وطفوا ... والنهاية معروفة .
أما ما يتعلق بسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، فقد كان له
النصيب الأوفر من آيات السورة ، لأن موضوع السورة يستدعي ذلك ،
ويكفي في ذلك أن موء من آل فرعون والذي هو عنوان السورة ظهر
في عصر موسى عليه السلام فاستلزمت الآيات أن تسلط الأضواء على
جوانب من قصته وجزء من حياته مع قومه .

وهكذا ظهرت لنا سورة غافر في موضوعها العقدي أبدع ظهور
لخدمة الجوالعام للسورة .

وعليه كان مدار هذا الباب في أصل الاعتقاد بوجود الله ، وما
يستتبعه هذا الاعتقاد من الايمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث
بعد الموت ، وإثبات كل ذلك بأدلته النقلية ، والأخرى العقلية ،
فكانت من أجل ذلك المباحث التالية :

- المبحث الأول : تمهيد في معنى الايمان وأركانه .
- المبحث الثاني : الايمان بالله (التوحيد وأقسامه) .
- المبحث الثالث : الايمان بالملائكة .
- المبحث الرابع : الايمان بالكتب .
- المبحث الخامس : الايمان بالرسول .
- المبحث السادس : الايمان بالبعث بعد الموت .

المبحث الأول :

تمهيد في معنى الإيمان وأركانه .

المبحث الأول

تمهيد في معنى الايمان وأركانه

إذا نظرنا إلى العقيدة التي ينادي بها الاسلام من خلال نصوصه وجدناها تتركز على أصول ستة هي : الاعتقاد بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره على أنه من الله تعالى . وهذه هي الأصول المعلن عنها في كثير من الآيات والأحاديث . وهذا الجانب الاعتقادي هو ما يسمى في الاصطلاح الاسلامي بـ " الايمان " وعلى ذلك جاءت الآيات الكثيرة تستعمل لفظة " الايمان " ومشتقاتها .

معنى الايمان :

(آمن من باب سَلِمَ ، ويقال آمنه فهو آمن ، وآمنه غيره ممن

الآمن والأمان ، وقوله تعالى : (١) :

” وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ”

قال الأخفش (٢) يريد البلد الآمن وهو من الآمن .

(١) سورة التين آية ٣ .

(٢) هو هارون بن موسى بن شريك التغلبي ، أبو عبد الله : شيخ

القراء بدمشق كان أخفش " صغير العينين ضعيف البصر " يعرف بالأخفش الدمشقي ، وكان قيما بالقراءات السبع ، عارفا بالتفسير والنحو والمعاني والغريب والشعر ، وصنف كتباً فسي القراءات العربية ، توفي سنة ٢٩٢ هـ (انظر ترجمته فسي طبقات المفسرين للداودي خ ، الأعلام ٦٣/٨) .

والايان ، هو التصديق ، والله تعالى المؤمن ، لأنه آمن عباده أن يظلمهم ، والأمن : ضد الخوف . (١)

وفي لسان العرب : (أمن أي الأمان ، والأمانة وهي بمعنى ، وقد آمنت ، فأنا آمن ، وآمنت غيري من الأمان والأمان ، والأمن ، ضد الخوف والايان : ضد الكفر .

والايان بمعنى التصديق ، ضده التكذيب ، يقال : آمن به قوم ، وكذب به قوم ، فأما آنته المتعدى فهو ضد أخفته ، وفي

التنزيل العزيز :
(٢)
”وَأَمَّنَّهُم مِّنْ خَوْفٍ“ (٣)

وفي التهذيب : الايمان هو مصدر آمن يؤمن من ايمانا فهو مؤمن من ، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم على أن معنى الايمان التصديق ،

قال تعالى حكاية عن اخوة يوسف لأبيهم :
(٣)
”وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ“ (٤)

فلم يختلف أهل التفسير في أن معناه : ما أنت بصدق لنا . والأصل في الايمان : الدخول في صدق الأمانة التي ائتمن عليها ، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة وهو مؤمن . (٤)

(١) مختار الصحاح ، الرازي ص ٢٦٠ .

(٢) سورة قريش آية ٤ .

(٣) سورة يوسف آية ١٧ .

(٤) انظر لسان العرب ، ابن منظور ج ١٣ ص ٢١٠ .

وعلى هذا فخلاصة معنى الايمان في كتب اللغة هو التصديق بما يطلب من الانسان اعتقاده ، تصديقا جازما لا شك فيه ولا تردد . ولقد كثر الكلام في حقيقة الايمان ، وصنف في ذلك الكثير من الكتب ، وما سنذكره هنا هو ما يستفاد من كلام الله مع ما يستفاد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، لنصل الى ما نريد من نفس كلام الله ورسوله فان هذا هو المقصود فنقول :

لقد تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن معنى الإيمان كما يرويه أبو هريرة * أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى فقال : يا رسول الله ما الايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر ، قال يا رسول الله ما الاسلام ؟ قال : الاسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان . قال : يا رسول الله ما الاحسان ؟ قال : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. الى أن قال : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم * . (١)

(١) صحيح البخارى ج١ كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان والاسلام والاحسان .. من رواية أبي هريرة ص ١٨ ، صحيح مسلم ج١ كتاب الايمان باب بيان الايمان والاسلام والاحسان .. حديث رقم ٥ ص ٣٩ ، كما روى في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن عمر ج ١ كتاب الايمان باب الايمان والاسلام والاحسان .. حديث رقم ١ ص ٢٦ .

إلا أنه يشكك عليه حديث وفد عبد القيس الذي أورده مسلم في صحيحه عن أبي حمزة قال : " كنت أترجم بين يدي ابن عباس وبين الناس فأتته امرأة تسأله عن نبيذ الجمر فقال : إن وفد عبد القيس أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوفد من القوم ؟ قالوا : ربيعة ، قال مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامي قال ، فقالوا : يا رسول الله ، نأتيك من شقة بعيدة وان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، وإننا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام ، فمرنا بأمر فصل نخبره من وراءنا وندخل به الجنة ، قال : فأمرهم بأربع ، ونهاهم عن أربع ، قال : أمرهم بالإيمان بالله وحده ، وقال : هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا الخمس من المغنم ... إلى آخر الحديث . (١)

ف نجد أن حديث جبريل قد فسر الإسلام بما جعله حديث وفد عبد القيس تفسيرا للإيمان . وبين الأثر كما أراه هو ما ذهب إليه صاحب كتاب حد الإسلام وحقيقة الإيمان حينما قال : (إن الرسول الكريم في حديث وفد عبد القيس قد أمرهم بأربع : إقام الصلاة ، إيتاء الزكاة ، صوم رمضان ، وأداء الخمس من المغنم ، وبالرغم من أنه ذكر الشهادتين إلا أنه لم يعد الشهادتين من الأربع لأنها تفسر لما

(١) صحيح مسلم ج١ كتاب الإيمان باب ٦ الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرايع الدين . . . حديث

قلها ، والأربع تخرج عنها وتقوم عليها وتقبل وتصح بها .

فإذا كان حديث جبريل قد فسر الاسلام بما جعله حديث عبد القيس ففسيرا للايمان ، إلا أن لفظي الايمان والاسلام يلتقيان في دلالتهما على قاعدة الأعمال وأصل الدين وهي أن يعبد الله ولا يشرك به شيء وهذا هو معنى التوحيد ، وهذا هو تحقيق الشهادتين وان كان اللفظان مختلفان في غير ذلك من الدلالات .

وعلى هذا فالإيمان المطلق يدخل فيه الاسلام كما في حديث وفد عبد القيس ، ولهذا قال من قال من السلف : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً (١) .

وأما إذا قرنَ لفظ الايمان بالعمل أو بالاسلام ، فإنه يفرق

بينهما كما في قوله تعالى :

”إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ“

وهو في القرآن كثير (٢) ، وكما في قول النبي صلى الله عليه وسلم :

(اللهم لك أسلمت وبك آمنت .. الحديث) (٣) وكما في حديث

جبريل لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والايمان والاحسان ،

ففرق في ذلك بين الاسلام والايمان ، حيث خص الايمان بالأعمال القلبية

الاعتقادية ، والاسلام بالأعمال الظاهرة .

(١) انظر حد الاسلام وحقيقة الايمان ، الشيخ عبد المجيد الشاذلي

ص ١٨٦-١٩٠ .

(٢) كما في سورة الكهف آية ١٠٧ ، وسورة النحل آية ٩٧ ، وسورة العصر

آية ١-٢ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والاستغفار ، باب التعوذ من شر

ما عمل ومن شر ما لم يعمل ج ٤ ص ٨٦ / ٢٠ ح ٦٧ .

وهذا ما ذهب اليه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله حين قال :
(فالتحقيق ابتداءً هو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن
الاسلام والايمان ، ففسر الاسلام بالأعمال الظاهرة ، والايمان بالأصول
الخفية ، فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان أن نجيب بغير
ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما اذا أفرد اسم الايمان
فانه يتضمن الاسلام ، واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمناً
بلا نزاع وهذا هو الواجب) . (١)

والحقيقة أن موضوع الايمان والاسلام وهل هما مترادفان أو
متغايران - كما يقول محقق كتاب الايمان - من أكثر الموضوعات
بحثاً ، وقد اختلف العلماء في ذلك ، وصنفوا فيه الكتب والمقالات .

(فمن القائلين بالفرق بينهما ، وأن الاسلام غير الايمان :
الامام أحمد بن حنبل (٢) ، وحماد بن زياد (٣) ،

(١) الايمان / ص ٢٤٦ .

(٢) هو الامام الجليل أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي ،
أحد الأئمة الأربعة الأعلام ، ولد ببغداد ونشأ بها ، وطلب
العلم وسمع الحديث فيها ، وسافر في سبيل العلم أسفارا كثيرة .
فضائله وخصاله ومناقبه لا تكاد تعد ، توفي سنة ٢٤١ هـ .
(أنظر ترجمته في تاريخ بغداد ٤ / ٤١٢ ، وفيات الأعيان
٤٧ / ١ ، حلية الأولياء ٩ / ١٦١) .

(٣) هو حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضي ، أبو اسماعيل ،
البصري ، الأثرق ، قال ابن حبان " كان ضريرا ، وكان يحفظ
حديثه كله " وقال ابن مهدي " أئمة الناس في زمانهم أربعة :
سفيان ومالك والأوزاعي وحماد بن زيد " وهما حمادان ، حماد
ابن زيد ، وحماد بن سلمة ، والأول أحفظ وأثبت في أيوب ،

والزهري (١) وغيرهم . وقد ذكر "ابن منده" (٢) أدلتهم بالتفصيل في كتابه "الايمان" .

أما القائلون بالترادف ، فمنهم الامام "البخارى" و" محمد بن نصر المروزي" (٣) مؤيدا من "ابن تيمية" و"ابن منده" وغيرهم

=== وكان من أهل الورع والدين توفي سنة ١٢٩ هـ (انظر ترجمته في : طبقات الحفاظ ص ٩٦ ، تذكرة الحفاظ ٢٢٨/١ ، شذرات الذهب ٢٩٢/١ ، حلية الاولياء ٢٥٧/٦) .

(١) هو محمد بن مسلم بن عبدالله بن عبدالله بن شهاب ، الزهري ، أبو بكر ، المدني التابعي ، أحد الأعلام نزل الشام ، روى عن الصحابة والتابعين ، رأى عشرة من الصحابة ، وكان من أحفظ أهل زمانه ، وأحسنهم سياقا لتون الأخبار ، فقيها فاضلا ، وكان يأتي دور الأئصار فلا يبقى فيها شابا الا سأله ، ولا كهلا ، ولا أنثى ، ولا عجوزا الا سأله ، قال الشيرازي : كان أعلمهم بالحلال والحرام . توفي سنة ١٢٤ هـ (انظر ترجمته في : طبقات الحفاظ ص ٤٢ ، تذكرة الحفاظ ١٠٨/١ ، حلية الاولياء ٣٦٠/٣ ، وفيات الأعيان ٣١١/٣ ، شذرات الذهب ١٦٠٢/١) .

(٢) هو محمد بن اسحاق بن محمد بن زكريا بن يحيى بن منده ، أبو عبدالله ، الامام الحافظ ، محدث العصر ، الأصبهاني العبدى ، مكشرفي الحديث مع الحفظ والمعرفة والصدق ، وله مصنفات كثيرة ، ورحل كثيرا ، وكان ختام الرحالين ، وفرد المكثرين ، توفي سنة ٣٩٥ هـ (انظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ ١٠٣١/٣ ، طبقات الحفاظ ص ٤٠٨ ، شذرات الذهب ١٤٦/٣) .

(٣) هو محمد بن الحجاج بن عبد العزيز ، أبو بكر المروزي وهو المقدم من أصحاب الامام أحمد لورعه وفضله ، قال ابن العماد كان أجل

===

ولهم أدلتهم من الكتاب والسنة (١).

وخلاصة الأمر الذي أختاره هو خلاصة ما وصل إليه محقق كتاب الايمان والذي قال فيه مايلي :

(أولا : بالنظر الى المعنى اللغوي ، فلا شك أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر ، فالاسلام هو الاستسلام والانقياد ، لقوله تعالى :

” وَلَهُ رَأْسُكَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ “ (٢)

أى انقاد ، والايمان هو التصديق ، لقوله تعالى :

” وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا “ (٣)

أى بصدق .

ثانيا : أما بالنظر الى الايمان الشرعي فأقرب الأقوال هو القول بالتلازم بينهما ، لأنه يفيد أن معنى أحدهما غير معنى الآخر ، ويضاف الى هذا بأنه اذا اجتمعا افترقا ، كما في حديث جبريل عليه السلام فقد خص فيه الايمان بالأعمال القلبية ، والاسلام بالأعمال الظاهرة ، واذا انفرد أحدهما شمل الآخر بالتلازم كما في حديث وفد عبد القيس (أتدرون ما الايمان) ثم فسره بما فسره به الاسلام في حديث

====
أصحاب الامام أحمد ، اماما في الفقه والحديث ، كثير

التصانيف ، توفي سنة ٢٧٥ هـ (انظر ترجمته في طبقات

الحنابلة ١/٥٦ وما بعدها ، شذرات الذهب ٢/١٦٦) .

(١) انظر كتاب الايمان لابن منداه ج ١ ص ٣٢٤ والذي ذكر ابن

منداه أدلتهم هناك بالتخصيل ج ١ ص ٣١١ وما بعدها .

(٢) سورة آل عمران آية ٨٣ .

(٣) سورة يوسف آية ١٧ .

جبريل عليه السلام ، وكما في قوله تعالى :

(١)

” وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ “

فلا يمكن أن يكون هذا الاسلام المقبول الا ملازما للايمان . (٢) وعلى

هذا (فالايمان تصديق وقول وعمل ، أما التصديق : فهو تصديق القلب ،

وأما القول : فهو قول باللسان ، وأما العمل : فهو عمل الجوارح) . (٣)

ومنه قوله تعالى :

” إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ “ (٤)

وقوله :

” إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا نُلِيتْ عَلَيْهِمْ سَائِرُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا “ (٥)

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الايمان بضع

وستون شعبة ، أعلاها قول لا اله الا الله ، وأدناها امانة الأذى عن

الطريق ، والحيا ، شعبة من الايمان) . (٦)

(١) سورة آل عمران آية ٨٥ .

(٢) الايمان / محمد بن اسحق بن منده ص ٣٢٥-٣٢٦ ، ج ١ ،

تحقيق د . علي بن محمد بن ناصر الفقيهي .

(٣) انظر العقيدة الواسطية / تقي الدين أحمد بن تيمية ص ٢٥ .

(٤) سورة الحجرات آية ١٥ .

(٥) سورة الأنفال آية ٢-٤ .

(٦) صحيح البخارى ج ١ كتاب الايمان باب أمور الايمان ٠٠ ص ٨٢ ، ٨١

وصحيح مسلم ج ١ كتاب الايمان باب ١٢ بيان عدد شعب الايمان

وأفضلها وأدناها حديث رقم ٥٧ وحديث رقم ٥٨ قريبا منه ص ٦٣ .

وإذا نظرنا الى العقيدة التي تعرضها سورة غافر من خلال نصوصها وجدناها ترتكز على أصول خمسة هي : الاعتقاد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهو المعنى الذي ذهب اليه شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه " الايمان " (١) ، وهذه الاصول هي المعلن عنها في آيات السورة بمصطلحها الاسلامي " الايمان " ، وعلى ذلك جاءت الآيات تستعمل لفظة الايمان وشققاتها : آمن ، آمنوا ، آمناء ، يؤمن ، مؤمن من ، يؤمنون .

(٢)

قال تعالى : وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَوْمَئِذٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ ﴿٣٠﴾

(٣)

وقال : " وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا السُّيُءُ فَلْيَلْمِزْنَا ذَكَرُونَ ﴿٥٨﴾ " .

(٤)

وقال : " فَلَا رَأَوْا بِأَسْنَأَقَالُوآءِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكُفَرْنَا بِمَا كُتِبَ بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ " .

(٥)

وقال : " وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ " .

وقال : " وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِرِزْقٍ فَجِيءَ بِهَا

(٦)

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ " .

(٧)

وقال : " الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ " .

(١) ص ٢٤٦ .

(٢) سورة غافر آية ٣٠ .

(٣) سورة غافر آية ٥٨ .

(٤) سورة غافر آية ٨٤ .

(٥) سورة غافر آية ٢٧ .

(٦) سورة غافر آية ٤٠ . (٧) سورة غافر آية ٧ .

وهي بكل صورها هنا أتت بمعنى التصديق والذي ضده
التكذيب ، وهو كما يرى صاحب اللسان (الدخول في صدق الأمانة التي
اثمنه الله عليها فاذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد
أدى الأمانة وهو موء من) . (١)

وهذا هو المعنى المذكور في آيات سورة غافر التي تلتقي في
دالتها على قاعدة الأعمال وأصل الدين ، وهي عبادة الله وحده ، دون
شريك والذي هو معنى التوحيد .

وهو المعنى الذي فصله شيخ الاسلام عندما شرح الايمان بأنه
تصديق وقول وعمل . (٢)

وفي ضوء ذلك ورد لفظ الايمان في السورة بمحاورة الثلاثة :

التصديق بالقلب :

(٣)
” وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ “

والتصديق بالقول :

(٤)
” فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكُنَّا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ “

والتصديق بالعمل بالجواح :

(٥)
” وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ،

وقال :

(٦)
” وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءُ فَلْيَلْمِزْنَا ذُرِّيَّتَهُ ﴿٥٨﴾ “

(١) لسان العرب لابن منظور ج ١ ص ٢١ .

(٢) انظر العقيدة الواسطية ص ٢٥ .

(٣) سورة غافر آية ٢٧ .

(٤) سورة غافر آية ٨٤ .

(٥) سورة غافر آية ٤٠ .

(٦) سورة غافر آية ٥٨ .

كل ذلك كما أشرنا آنفاً معتمداً على قاعدة الأعمال وأصل الدين
وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخاصة أن سورة غافر قائمة على اثبات
لا إله إلا الله، وهي تعالج قضية الإيمان والكفر، منبهة إلى الدلائل
الكثيرة على غرده سبحانه بالأنلوهية إجمالاً، والتي ستتعمق الدراسة
فيها من خلال البحث القادم إن شاء الله .

المبحث الثاني :

الإيمان بالله (التوحيد) وأقسامه .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : توحيد الربوبية .

المطلب الثاني : توحيد الألوهية .

المطلب الثالث : توحيد الاسماء والصفات .

المبحث الثاني

الايان بالله (التوحيد وأقسامه)

(الواحد هو الذي لا يتجزأ ، ولا يثنى ، ولا يقبل الانقسام ، ولا نظير له ولا مثل . (١) والوحدة هي : الانفراد ، واذا وصف الله تعالى " بالواحد " فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزي ، ولا التكرار ، فلا ثاني له ،

ولصعوبة هذه الوحدة قال تعالى : (١٢) (٣)

” وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ،

وعلى هذا فالتوحيد هو الايمان بالله وحده لا شريك له .

— والتوحيد في الاصطلاح يطلق ويراد به المعنى المصدرى ، وقد يطلق ويراد به الفن المدون المسمى بهذا الاسم ، وأما الثاني فقد اختلفت عبارات القوم في تعريفه (٤) ، وليس هنا مكان بحثها وما يهنا هنا هو المعنى المصدرى : (وهو اعتقاد أن الله واحد لا شريك له ،

(١) لسان العرب لابن منظور ٤٥٠ / ٣ .

(٢) سورة الزمر آية ٤٥ .

(٣) انظر المفردات للراغب الاصفهاني ص ٥١٤ .

(٤) لم أقف أمام المعنى الاصطلاحي الثاني لكثرة اختلاف عبارات القوم حوله ، حيث أن منهم من توسع في مدلول الكلمة حتى جعلها تشمل جميع مباحث العقيدة ، سواء ما تعلق منها بالله عز وجل وصفاته ، أم بالرسول والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، من حيث ما يجب لهم وما يجوز ، ويمتنع عليهم ، أم باليوم الآخر وتفصيل ما يقع فيه وجميع أخبار الغيب التي وردت في الكتاب والسنة ومنهم من يجعله قاصراً على البحث في ذات الله وصفاته ومنهم من قصره على الصفات وسماه علم الصفات (دعوة التوحيد / هراس

وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهي اثبات الوحدة لله
في الذات ، والفعل في خلقه الاكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ، ومنتهى
كلِّ قصد ، وهذا المطلب كان هو الغاية العظمى من بعثة النبي صلى الله
عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز ^(١) الا أن هذه الوحدة
كان لها متعلقات ، جعلها أقساما وتحدث عنها شراح الطحاوية فقال :
(ان التوحيد الذى دعت اليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : توحيد
في الاثبات والمعرفة ، وتوحيد في المطلب والقصد .

فالأول : هو اثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله
وأسمائه ليس كمثل شئ في ذلك كله كما أخبر به عن نفسه ، وكما
أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل
الافصح ، كما في أول (الحديد) ، و (طه) ، وآخر (الحشر) ،
وأول (الم تنزيل السجدة) ، وأول (آل عمران) ، وسورة
(الاخلاص) بكاملها ، وغير ذلك .

والثاني : وهو توحيد المطلب والقصد ، مثل ما تضمنته سورة

(قل يا أيها الكافرون) ، و : **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا** ^(٢) ،

وجملة سورة الأنعام . ^(٣)

(١) رسالة التوحيد / الشيخ محمد عبده ص ٨٠

(٢) سورة آل عمران آية ٦٤

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية / ابن ابي العز الحنفي / تحقيق :

جماعة من العلماء ص ٨٨ - ٨٩

يقول صاحب كتاب " دعوة التوحيد " معلقا : (وواضح أن هذا التقسيم الذي ذكره شاح الطحاوية انما هو باعتبار ما يجب على الموحد ، فأحيانا يطلب منه مجرد العلم والمعرفة بعقيدة التوحيد ، وأحيانا يطلب منه توجيه القصد والارادة واخلاص العبادة لله) . (١)

أما تقسيم التوحيد باعتبار متعلقه فيذكره شاح الطحاوية في مكان آخر حيث يقول (فان التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع :

- أ - أحدها الكلام في الصفات .
- ب - والثاني ، توحيد الربوبية ، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء .
- ج - والثالث : توحيد الالهية ، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له) . (٢)

(وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد ، بل كل سورة في القرآن ، فالقرآن اما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبيري ، وإما دعوة الى عبادته وحده لا شريك له وخلق ما يعبد من دونه فهو التوحيد الارادي الطلبي) (٣) وإما أمر ونهي والزام بطاعته

-
- (١) دعوة التوحيد / محمد خليل هراس ص ١٢ .
 - (٢) شرح العقيدة الطحاوية / ابن أبي العز الحنفي / تحقيق جماعة من العلماء ص ٨٨ ، ٨٩ .
 - (٣) وقد تحدث عنه الامام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين ج ١ ص ٢٥ .

فذلك من حقوق التوحيد ومكلماته ، واما خبر عن اكرامه لاهل توحيد
وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيدهم ، واما
خبر عن اهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم
في العقب من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد ، فالقرآن
كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم .
وكذلك الله شهد لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت له به ملائكته ،
وأنبياؤه . ، ورسله ، قال تعالى :

” شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمَ ” (١)

فتضمنت هذه الآية الكريمة اثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف
الضلال ، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل
شاهد بأجل شهوده . (٢)

دلائل السورة على التوحيد :

ان سورة غافر التي نحن بصددها في هذا البحث جاءت متضمنة
لكل أنواع التوحيد ، ففيها الخبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد
المأخوذ من قوله تعالى :

” حَرَّمَ أَنْ تَزُولَ إِلَيْهِ الْكُفُورُ وَالشُّرُكُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالرُّسُلُ عَنِ الْمَقَامِ الْحَرَامِ وَقَالَ لِيُؤْتُوا عَذَابَ اللَّهِ بَلْ كَانَ اللَّهُ مُتَعَلِّمًا مِنَ الْعِبَادِ عَنِ الَّذِي يُبْحِثُونَ عَنِ الْعَلَمِ ﴿١٠٠﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿١٠١﴾ ” (٣)

(١) سورة آل عمران آية ١٨-١٩ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية / ابن أبي العز الحنفي / تحقيق جماعة

من العلماء ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) سورة غافر آية ١-٣ .

وفيهما الدعوة الى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه ، وهو توحيد ماخوذ من قوله تعالى :

”فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ“ (١)

وقوله : ”هُوَ الْحَىُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ“ (٢)

وفيهما أمر ونهي والزام بطاعته وهي من حقوق التوحيد ومكملاته ،

قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم :

”قُلْ إِنِّي نَبِيٌّ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ“ (٣)

وقوله : ”فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ“ (٤)

وقوله : ”فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ“ (٥)

وفيهما خبر عن أهل الشرك والكفر وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب والذي هو جزاء من خرج

عن حكم التوحيد ، قال تعالى : ”إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتُونَ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ تَقَاتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ“ (٦)
”قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ التَّوْبَةَ فَاعْتَرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَبَلِّغْنَا إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ سَبِيلِ“ (٦)

وقوله : ”أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ“ (٧)

-
- (١) سورة غافر آية ١٤
 - (٢) سورة غافر آية ٦٥
 - (٣) سورة غافر آية ٦٦
 - (٤) سورة غافر آية ٧٧
 - (٥) سورة غافر آية ٥٦
 - (٦) سورة غافر آية ١٠-١١
 - (٧) سورة غافر آية ٢١

وقوله : " وَإِذِجَحَّجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا قُمْنَا بِكُمْ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ٥٧ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا فِيهَا إِنَّا لَنَعْلَمُ بِمَا لَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ ٥٨ قَالُوا أَوْ لِمَ نَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا أَوْلِيَاءَكُمْ يَدْعُونَ مَا دَعَوْا أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَذِلَّةٌ فَذُلُّوا ٥٩ " (١)

وقوله : الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ رَسُولَاتِهِمْ فَهُمْ عُصَابٌ أَوْ لِمَ نَأْتِيكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ إِنْ كُنَّا إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠ إِذِ الْأَغْلَابُ فِي أَعْيُنِهِمْ وَالسَّلْسَلُ يُسْحَبُونَ ٦١ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ٦٢ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ٦٣ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَم نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ٦٤ ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَتَرَحَّضُونَ ٦٥ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ٦٦ " (٢)

وعلى هذا فالسورة كلها في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وسيظهر

تفصيل ذلك في السابحة القادمة ان شاء الله .

وقد استخدمت السورة من أجل أساس هذه القضية - قضية التوحيد -

عدة طرق للاستدلال منها المنطقي ومنها الواقعي ، على أن أغلبها يتزج فيها المنطق بالواقع المحس ، فيكونان معا منطقا مستمدا من

الواقع ، قال تعالى : " اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٦١ ذَٰلِكُمْ وَاللَّهُ رَبُّكُمْ فَخَلِقْ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَٰهٌ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تَوْفِيقًا ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بُرْيَاتٍ لِلَّهِ يُجْحَدُونَ ٦٣ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ وَاللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٦٤ " (٣)

ثم تذكر السورة دليلا آخر أكثر واقعية :

" هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلَأُكُمْ أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيََكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَلِنَبْلَأُكُمْ أَجْلًا مُسَمًّى وَعَلَّامَةٌ تَعْقِلُونَ ٦٧ " (٤)

(١) سورة غافر آية ٤٧ - ٥٠ .

(٢) سورة غافر آية ٧٠ - ٧٦ .

(٣) سورة غافر آية ٦١ - ٦٤ .

(٤) سورة غافر آية ٦٧ .

ومع ذلك كله هناك من يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، ولكن القرآن لا يترك قضية التوحيد ترهكدا بل يستمر في تقديم الأدلة ولكن لمن يسمع ويعقل :

(١) ” وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءُ ۗ فَلْيَلْمِ اللَّهُ مَاذَا تَكْفُرُونَ ﴿٥٨﴾ “

وتفصيل الأمر كما أشرنا آنفا سيظهر واضحا من خلال المطالب القادمة :

- المطالب الأول : توحيد الربوبية .
- المطالب الثاني : توحيد الألوهية .
- المطالب الثالث : توحيد الأسماء والصفات .

المطلب الأول : توحيد الربوبية

لوجلس كل منصف الى نفسه وأخذ يفكر في أمر الكون- وهذا ما يجعل بكل عاقل أن يفعله ، معظما لنفسه حقها من الصدق والأمانة ، من غير أن يعبت التعصب بفكره فلن يفرغ من التفكير حتى يشعر برهبة الله تلاماً كل جوانبه ، وحده الله دون شريك ، أما لماذا وحده ؟؟ فلأن وحدة نظام الكون بكل ما فيه ساكنه ومتحركه ، بكل جزء فيه على حده ، ثم بكل تلك الأجزاء مجتمعة دون تفاوت هي التي تحكم بذلك والا لظهر التباين والعارض في قوانين الكون . وحيث أنه لا تباين ولا تعارض فلا بد عقلا من أن يكون المهيمن واحداً لا يشركه في أمره شريك ، هذه النتيجة حين تتحول الى عقيدة يطلق عليها توحيد الربوبية ولكي نزيد الأوضحا لا بد من معرفة مدلول كلمة " الرب " التي اشتق منها لفظ الربوبية .

ان لفظ الرب يطلق على عدة معان ، منها (المالك ، والسيد ، والمدبر ، والمربي ، والقيم ، والمنعم ، والمعبود بحق سبحانه وتعالى) (١) ومن هذه المعاني الكثيرة للفظ الرب اشتق اسم الربوبية ، والتي تعنى : الخلق ، والرزق ، والطق ، والسيادة ، والتربية ، والاصلاح ، والتدبير . يقول شيخ الاسلام رحمه الله (والرب : هو الذي يربى عبده ، فيعطيه خلقه ، ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها) . (٢)

(١) لسان العرب لابن منظور ج١ ص ٣٩٩ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيميه رحمه الله ج١ ص ٢٢ .

ولكون الله هو الرب الحق للعالمين اختص بالربوبية دون سواه،
ووجب توحيده فيها وامتنع عنه الشريك بحيث لا تصلح الربوبية لغيره ،
يقول شيخ الاسلام رحمه الله (والرب سبحانه وحده هو الذى لا شريك
له ولا ند ، بل ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا لا يستحق غيره
أن يسمى خالقا ولا ربا مطلقا ونحو ذلك ، لأن ذلك يقتضى الاستقلال
والانفراد بالمفعول المصنوع ، وليس ذلك الا لله وحده) . (١)

ومن هنا أصبح معنى الربوبية نفي الشريك عنه تعالى فسي
صفات الربوبية الحقّة والتي هي الخلق والرزق والملك والتدبير الذى
من لوازمه المنع والعطاء والاعزاز والانزال والاماتة والاحياء .

وعقلاء الناس في كل زمان ومكان يتحاشون دائما نسب أى شيء
من صفات الربوبية لغير الله تعالى الرب الحق الذى لا رب سواه ولا
اله غيره ، وذلك لما يعلمه الانسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم
صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية وعجزهم عنها ، لأن المخلوق
لا يخلق ، والملوك لا يملك .

(ولكن لما وجد في الناس من ينازع في توحيد الربوبية ويجعل
لغير الله عز وجل شيئا من الشركة معه في الخلق أو التدبير ، لم يهمل
القرآن الكريم الاحتجاج له ، بل قرره أبدع تقرير) (٢) يقول شيخ
الاسلام رحمه الله وتوحيد الربوبية (هذا ما لم ينازع في أصله
أحد من بني آدم ، وانما نازعوا في بعض تفاصيله ، كنزاع المجوس ، والشنوية ،
والطبيعية ، والقدرية ، وأمثالهم من خلال المتفلسفة والمعتزلة ، ومن
يدخل فيهم) . (٣)

(١) المرجع السابق نفسه ج ٢ ص ٣٥ .

(٢) انظر دعوة التوحيد / د . محمد خليل هراس ص ٣٣ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ج ٢ ص ٣٨ .

وسورة المؤمن من -سورة مكية- كان لها وقفة رائعة لتقرر أمر الوجدانية في هذا الجانب . (تقرر أن هذه الحقائق مسلمة من كل من في الوجود وكل ما في الوجود ، ففطرة الوجود كله مرتبطة بهذه الحقائق ، متصلة بها الاتصال المباشر الذي لا تجادل فيه ولا تماحل ، والوجود كله مقتنع بآيات الله المشاهدة بحقيقته ووجدانيته ، وما من أحد يجادل فيها الا الذين كفروا وحدهم ، شدوذا عن كل ما في الوجود وكل من فسي الوجود ، فهم وحدهم من بين هذا الوجود الهائل يشذون وهم وحدهم من بين هذا الخلق ينحرفون وهم أصغر وأضال من هذا الكبر ، ومن ثم نجد الآيات توجه القلوب الى هذا الوجود الكبير ، لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله ، وتفتتح بصائرهم فلا يكونوا عميا :

(١) ” وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا السُّيُفِيَاءُ ۗ فَلْيَاذُنَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ “

فتراه تارة يعرض بعض آيات الله الكونية التي يمرن عليها غافلين ، وتارة يذكرهم بأنفسهم وقد صورهم فأحسن صورهم ، ليصل بهم الى دعوة الله وحده مخلصين له الدين ، وبعد ذلك يأتي العجب من أمر الذين يجادلون في الله . (٢)

(١) سورة غافر آية ٥٨ .

(٢) انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٦٧-٣٠٦٩ .

آيات الله في الكون والآفاق والانس

جمع الله تعالى ذكر دلالتي النفوس والآفاق في قوله تعالى :

”سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ بَيِّنَ لَهُمْ آيَاتِنَا الْحَقِّ“^(١)

(فإن الأرض والسموات بسائر تعقيداتهما ، والحياة في شتى صورها ، وأخيرا الانسان بكل قدراته العليا ، كل هذا أشد تعقيدا من أن يتصور الانسان أنه حدث هكذا وحده أو ببعض المصدقات ، من الله خالق وراء كل ذلك)^(٢) وخالق واحد فقط - فالكون والآفاق بكل ما فيها من سماء وأرض وليل ونهار ، هذان الخلقان الكونيان وتلك الظاهرتان الكونيتان نراهما في معرض الحديث عن (تصوير الله للبشر واحسان صورهم ومع رزق الله لهم من الطيبات ، تعرض كلها في معرض نعم الله وفضله على الناس ، وفي معرض الوحدانية واخلاص الدين لله . . فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعاني ، وعلى وجود الصلة بينهما ، ووجوب تدبيرها في محيطها الواسع ، وملاحظة الارتباط بينهما والاتفاق)^(٣) .

(هذا التدبر والفكر هو النظر المأمور به ، وعلى ذلك درج

السلف من غير ترتيب المقدمات على قانون أهل المنطق ، بل قد شهد

كتاب الله على أن ذلك يفيد البيان ، حيث قال :

”سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ بَيِّنَ لَهُمْ آيَاتِنَا الْحَقِّ“^(٤) (٥)

(١) سورة فصلت آية ٥٣ .

(٢) انظر "الله يتجلى في عصر العلم" / نخبة من العلماء الأمريكيين ص ١١١ .

(٣) في ظلال القرآن / سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٩٢ .

(٤) سورة فصلت آية ٥٣ .

(٥) انظر ايثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق /

ابن الوزير ص ٤٦ .

فإنا ما تأملنا الآيات وجدنا طرقات متعددة تدل على وجود الخالق ووحدانيته ، والتي منها :

طريق العناية ، فالعالم كله (إذا نظر الإنسان إلى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التي هي سبب الليل والنهار ، وسبب

عمارة أجزاء الأرض ، ووجود الناس ، وسائر الكائنات - وكون الأرض موافقة لسكنى الناس فيها وسائر الحيوانات ، علم على القطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات بالاتفاق ، بل ذلك من قاصد قصده ، ومريد أراحه ، وهو الله عز وجل) . (١)

وما استجيد في هذا المعنى ، وتناقله السلف الصالح

قول زيد بن عمرو بن نفيل (٢) رحمه الله تعالى :

(١) انظر فلسفة ابن رشد / ابن رشد الأندلسي / تصحيح ومراجعة عبد الجواد عمران ص ١٠٩ .

(٢) هو زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي ، والد سعيد بن زيد أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، كان زيد يتعبد في الفترة قبل النبوة على دين إبراهيم ، ويوحد الله ، ويعيب على قريش الذبح على الأنصاب ويقول : يا معشر قريش ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري ، وينهى قريشا عن الزنا ، لأنه يورث الفقر ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ؟ فقال : " يبعث يوم القيامة أمة وحده " توفي قبل النبوة ورثاه ورقية ابن نوفل ، قال ابن حجر : ذكره البيهقي وابن منده في الصحابة وفيه نظر ، لأنه مات قبل البعثة بخمسين سنة (انظر : الإصابة ٥٦٩/١ ، تهذيب الأسماء ٢٠٥/١) .

رضيتُ بك اللهم رباً فلن أرى
(١) أدبينُ الها غيرك اللهُ ثانيها (٢)
وأنت الذي من فضلٍ من ورحمة

بعثت الى موسى رسولاً ناديا
(٣) فقلت له : يا اذهب وهارون فادعوا

والى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له أنت سويت هذه

بلا وتد حتى الطمانت كما هيها؟
وقولا له : أنت رفعت هذه

(٤) بلا عمد ؟ أرفق إذا بك بانها!
وقولا له : أنت سويت وسطها

منيراً اذا ما جنه الليل هاديا؟
وقولا له : من يرسل الشمس غدوةً

فيصبح ما ست من الأرض ضاحيا
وقولا له : من ينبت الحب في الثرى

فيصبح منه البقل يهتزازيا
ويخرج منه حبه في رؤوسه

(٥) وفي ذاك آيات لمن كان واعيا

-
- (١) أدبين الها : أى أدبين لاله ، وحذف اللام وعدى الفعل لأنه
في معنى أعبد الالهة .
(٢) غيرك الله ، يريد : يا الله .
(٣) يا اذهب : على حذف المنادى كأنه قال : ألا يا هذا اذهب .
(٤) ارفق : فعل التعجب (انظر السيرة النبوية ج١ ص ٢٤٢-٢٤٣) .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام / تحقيق مصطفى السقا وآخر ج١ ص

أولا : من آيات الله في الكون والآفاق :

آيات الله في الكون والآفاق كثيرة جدا ، ونحن لا نستطيع
أن نوفيها حقها في هذه المقالة ، وإنما نقف في المكان الذي وقفت عنده
سورة غافر فنقتصر الأمر على آيتي السماء والأرض ، وظاهرتي الليل والنهار .

أ - بالنسبة لآيتي السماء والأرض :

يقول الله تعالى في سورة غافر :

” اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ وَأَحْسَنَ صُورَكُمْ
وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) “^(١)

السماء :

هي إحدى الآيات التي تدل على خلق الله ، وأنه وحده الخالق ،
وأول ما يرد ذكرها نجد سورة الأعراف يفرض نفسه - كيف تقف السماء
بأحجامها وأوزانها الهائلة في الفضاء بهذا التوازن العجيب ؟

فنجيبنا القرآن :

” اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا “^(٢)

(١) سورة غافر آية ٦٤ .

(٢) سورة الرعد آية ١٠٢ .

كما يقول سبحانه :

” إِنْ لِّلَّهِ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا “ (١)

ويجيب العلم بقوله : لم يعرف الانسان مقدار ارتفاع السماء الا بعد كشفه عن مواقع بعض النجوم ، فيعرف أن السماء مرتفعة وليست قريبة كما يظن النظر المجرد (٢) ، وهذا الاساك يحصل بقوة الجاذبية التي شاهد العلماء آثارها ، وأحصوا أطوارها ، ومسوا سطوحها ، ولم يسبروا أغوارها ، وعرفوا قوانينها ونوايسها ، ولم يعرفوا مدى أسرارها . يقول الشيخ ” نديم الجسر “ : (الحق ما قالوا ، فالجاذبية حق ، وقوانينها المحسوسة المتزنة المتناسبة المحكمة الدقيقة حق ، ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم أثرا من آثار المصادفة العسية) (٣) ٢٢

” وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ “ (٤)

وهذه حجة أجمع عليها الكفرة مع المسلمين ، (فقد ثبتت بضرورة العقل أن الثقل لا يستسك في الهواء الا بمسك ، وأن هذا الاساك الدائم لا يكون بما لا يعقل من الرياح كما زعمت الفلاسفة ،

(١) سورة فاطر آية ٤١ .

(٢) كتاب توحيد الخالق / عبد المجيد الزنداني ج ٣ ص ٥٧ .

(٣) قصة الايمان / نديم الجسر ص ٣١١ .

(٤) سورة الزمر آية ٦٧ .

على أن الرياح تحتاج الى خالق يخلقها ، ثم مدير يقدرها مستويصة
الأنفاس ، موزونة القوة ، لا يزيد منها شي * على شي * حتى تعتدل اعتدالا
أتم من اعتدال الفاعل المختار ، فلو قصد الاعتدال التام حتى يستوى على
رأسه جفنة مطوأة ماء لم يستطع الاعتدال الا برياضة شديدة ، فكيف
تعتدل عواصف الرياح وتقع موزونة حتى يستوى عليها ثقل الأرض والجبال
من غير رب واحد عظيم قد يرعاه مدير حكيم (١) خاصة (وقد أثبت
التقدم العلمي أن أجرام السماء كأجرام في بناء واحد يشد بعضه
بعضا ، ويقوم كل على الآخر ، فاذا اختلف النظام في جرم أو أجرام اختلف
البناء كله) (٢) حقا (فالسماوات تشهد بجلال الله ، وإحكامها يدل
على بديع صنعته) . (٣)

أما الأرض :

اذا نظرت الى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها
وسيدعها (فأرضنا التي من الله علينا في آيات كثيرة بخلقها ، وذكرنا
بها في هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة والنظام هي السيار
الوحيد الذي جعله الله صالحا للحياة (٤) فقربها من الشمس معتدلا ،

-
- (١) انظر ايثار الحق على الخلق / ابن الوزير ص ٥٣ - ٥٤ .
 - (٢) كتاب توحيد الخالق / عبد المجيد الزنداني ص ٥٧ .
 - (٣) الله يتجلى في عصر العلم / نخبة من العلماء الأمريكيين ص ٤٦ .
 - (٤) والحقيقة أن هناك سبع سيارات كبارا أخرى هي :
(عطارد ، الزهرة ، المريخ ، المشتري ، زحل ، أورانوس ، نبتون ،
بلوتو) ، منها ما هو أقرب للشمس من أرضنا ، ومنها ما هو أبعد

والحرارة التي تصل اليها معتدلة ، وكافتها تفوق كافة كل السيارات ،
حتى الشمس وجاذبيتها معتدلة ودورتها اليومية معتدلة وكافية لاحداث
نهار وليل معتدلين صالحين للسعي والراحة ، ودورتها السنوية
معقولة وكافية لاحداث فصول معتدلة مألحة للحياة (١) (خلقها
الله سبحانه فراشا ومهادا ، وذلكها لعباده ، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم
ومعاشهم ، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم ،
وأرساها بالجبال فجعل لها أوتارا تحفظها لئلا تميد بهم ، ووسع
أكنافها ، ودحاها (٢) فدها وسطها ، وطحاها (٣) فوسعها من
جوانبها وجعلها كفاتا للأحيا تضمهم على ظهرها ما داموا أحيا ، وكفاتا
للأموات تضمهم في بطنها اذا ماتوا ، فظهرها وطن للأحيا ، وبطنها
وطن للأموات ، وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه ، ودعا عباده

====
ومنها ما هو أكبر من أرضنا ، ومنها ما هو أصغر ، ومنها ما هو
أسرع من أرضنا دورانا حول الشمس وحول محوره ، ومنها ما هو
أبطأ ، ولكنها لا تصلح للحياة لأسباب فصل فيها علم الفلك ولا مجال
لذكرها هنا ، ولمزيد من المعلومات حول هذا الجانب راجع
قصة الايمان / نديم الجسر ص ٣١٦ وما بعدها الطبعة الثالثة
لعام ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م وكتاب طريق الايمان / سميح عاطف
الزبين ص ٥٠ - ٥٣ / الطبعة التاسعة لعام ١٩٨٣م .

- (١) قصة الايمان / نديم الجسر ص ٣١٧ - ٣١٨ .
(٢) دحا الشيء بسطه ووسعه ، يقال دحا الله الأرض أي بسطها ووسعها
(انظر المعجم الوسيط (٢٧٣/١) .

(٣) طحاها : الطحو كالدحو وهو بسط الشيء والذهاب به (انظر
الفردات ص ٤٣٣) .

(٤) الكفت : القبض والجمع ، والأرض كفاتا ، أي تجمع الناس أحياهم
وأمواتهم (انظر الفردات ص ٤٣٣) .

(*)

الى النظر والتفكر في خلقها ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١)
وقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾

وقال :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فُرُشًا ﴾^(٢)

وقال :

﴿ وَالْأَرْضُ فَرْشًا فَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾^(٣)

وهذا كثير في القرآن . (٤)

ب - وأما بالنسبة لليل والنهار :

فيقول تعالى في سورة غافر : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾^(٥) ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾^(٦) (٥)

يقول الامام ابن القيم من قبل مئات السنين حول هذا الجانب
(ان من آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع
مصنوعاته ، ولهذا يعبد الله ذكرهما في القرآن ويبديه ،

(*) سورة يونس آية ١٠١ .

(١) سورة غافر آية ٦٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٢ .

(٣) سورة الذاريات آية ٤٨ .

(٤) انظر مفتاح دار السعادة / ابن القيم / ج ١ ص ١٩٩-٢٠٠ ، وقد كانت

للشيخ الزنداني حفظه الله وقفة دقيقة متسائلة أمام هذه الآية

مطخما فيها الأدوات والوسائل التي أعدت بها الأرض لتصلح

للحياة (انظر كتاب التوحيد ج ٣ ص ٢٧-٣١ وكتاب توحيد

الخالق ج ٣ ص ٤٨-٤٩ ، ٥٧ ، وانظر كتاب العلم يدعو للإيمان

كريم موريسون ترجمة محمود صالح الفلكي ص ٥١ وما بعدها ،

وكتاب الله يتجلى في عصر العلم لنخبة من العلماء الأمريكيين ، ترجمة

الدمرداش عبد المجيد سرحان ص ٦-١٠ .

(٥) سورة غافر آية ٦١ ، ٦٢ .

كقوله تعالى :
(١) ” وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ،

وقوله :
(٢) ” وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٥٧﴾

وهذا كثير في القرآن ، فانظر الى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات الى بيوتها والطيور الى أوكارها ، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب ، حتى اذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت الى معاشها وتصرفها جاء فالق الاصبح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشيرا لصباح . فهزم تلك الظلمة ومزقتها كل مزق ، وكشفها عن العالم فاذا هم مبصرون) . (٣)

وبعد كل تلك السنين يتقدم العلم الحديث ليقول : (ان النوم سنة حيوية وضرورة يعتمد عليها الانسان كأي كائن حي لراحة جسده وفكره وقلبه ، حتى يستطيع متابعة حياته بعزيمة ونشاط متجددين . أما كيفية حدوثه فقد دامت أبحاث العلم والطب وقتا طويلا لتجدت تعليلا لظاهرة النوم ، وإيجاد تفسير لما يحدث في النوم ، الا أن أسرار ذلك

(١) سورة فصلت آية ٣٧ .

(٢) سورة الفرقان آية ٤٧ .

(٣) انظر مفتاح / السعادة / ابن القيم ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

النهائية لم تكشف حتى الآن وإن كان العلماء قد عدوا أن ما وصلوا اليه من العلم من اعتبار أن النوم طرح روحي مؤقت نصر ما بعده نصر (١) .
(وفي الحقيقة يعتبر النوم مهما جدا للكائن الحي ، لأنه قد تبين أن الجسيمات العصبية الموجودة داخل الخلية العصبية لها علاقة بالتعب والراحة ، حيث وجد أنها تنقص وتميل الى الاختفاء في التعب والمجهود الفكري ، ولكنها في الراحة والنوم ترجع كما كانت .

ولذا فلاعجب اذا كان الانسان يقضي ما يقرب من عشرين سنة من حياته في النوم ، لأن ثلث العمر يمضي في النوم ، وكما أن العضلات ترجع الى طبيعتها بالراحة كذلك فإن راحة الجهاز العصبي هي النوم (٢) ومن هنا كان الفرق كبيرا بين نوم الليل ونوم النهار حيث (اكتشف أخيرا أن الغدة الصنوبرية في الدماغ تقوم بإفراز مادة "الميلاتونين" ويزداد افراز هذه المادة في الظلام ، بينما يثبط الضوء افرازها ، وقد وجد أن للميلاتونين تأثيراً مباشراً على النوم ، والظلمة بما يرافقها من سكون الليل تهيبه للناس أحسن الظروف للسكن والراحة . وهكذا تظهر نواويس الحياة التي تهيم على حركة الكون والخلق وهي منطلقة من مصدر واحد ، وموجه واحد ، ومسير واحد ، وتبدو حركة الشمس والقمر ، ويبدو تعاقب الليل والنهار مسخرات لخدمة هذا الانسان ،

(١) انظر كتاب القرآن والعلم الحديث / عبدالرزاق نوفل ص ٩٦ -

١٠١ ، مع الطب في القرآن الكريم عبد الحميد دياب وآخر ،

ص ١٠٤-١٠٧ ، الطب محراب الايمان ، خالص جلبي ج١ ص

١٤٥-١٥٠ .

(٢) انظر الطب محراب الايمان ، خالص جلبي ج١ ص ١٤٦-١٤٧ .

قال تعالى : " وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٦﴾
وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَاءٍ السُّمُودَ وَإِنْ نَعُدُّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَهَا إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٧﴾ (١) "

كانه القرآن على أهمية تعاقب الليل والنهار أو الظلام والضياء
حين دعا الى التأمل في حقيقة ما لو كان الليل سرمداً أو كان
النهار سرمداً :

" قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ
بِضِيَاءٍ أَوْ لَآئِمًا تَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَكُونُ فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَنْ
تَحْمِيهِ جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ (٢) (٣) "

فهذه الآيات كلها تظهر مرتبطة متناسقة كما رأينا ، (ومن ثم
بذكرها القرآن في مكان واحد من سورة غافر ، بهذا الترابط ، ويتخذ
منها برهانه على وحدانية الخالق ، وبوجه في ظلها القلب البشري الى
دعاء الله وحده مخلصه الدين ، وبقران الذي يمنع هذا ويبدعه
بهذا التناقض هو الذي يليق أن يكون الها وحده وهو الله رب العالمين ،
فكيف يعرض الناس عن هذا الحق الواضح السبين) . (٤)

-
- (١) سورة ابراهيم آية ٣٣-٣٤ .
(٢) سورة القصص آية ٧١-٧٣ .
(٣) أنظر مع الطب في القرآن الكريم / عبد الحميد دياب ، أحمد
قرقوز / ص ١٠٠-١٠٧ .
(٤) في ظلال القرآن / سيد قطب ج ٤ ص ٣٠٩٢ .

ثانيا : من آيات الله في الانفس

يقول تعالى في سورة غافر : ” وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ وَاللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ لَّهِ الدِّينُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ” (١)

ثم نجده سبحانه في آية أخرى من سورة غافر نفسها ، يزيد الأمر وضوحا وتفصيلا فيما يتعلق بموضوع الانفس فيقول سبحانه :
” هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شِيُوْحًا وَمِنْ يُونُقٍ مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلًا مُّسَمًّى وَعَلَّامٌ لِمُتَعَمِّلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ” (٢)

أما الآية الأولى ، فشواهدها كثيرة على أن الانسان في أفضل وأحسن وأكمل صورة كما قال سبحانه :

” لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ” (٣)

(فالانسان اذا ما نظرنا الى أبعاده أو شكله أو تركيبه الداخلي أو تراكيب أعضائه الخارجية نجده حقا في أحسن تقويم) . (٤)

أما كيف أصبح في مرحلة أحسن تقويم - مرحلة حسن الصورة فالقرآن يقص علينا قصتها في آيات (تحوى على ايجازها أهم أطوار تخلق الجنين في بطن أمه ، وهي (النطفة ، والعلقة ، والمضغة ومرحلة تخلق الأجهزة ، ثم الخلق الآخر) ، هذه الأطوار التي استخدم لها

-
- (١) سورة غافر آية ٦٤-٦٥ .
 - (٢) سورة غافر آية ٦٧-٦٨ .
 - (٣) سورة التين آية ٤ .
 - (٤) انظر القرآن والعلم الحديث / عبد الرزاق نوفل ص ١١٩-١٢٢ .

القرآن ألفاظا لم يستطع العلم الحديث الا أن يستخدمها ، وذلك نجد أن الآيات القرآنية قد جاءت اضافة لاعجازها العلمي باعجاز بلاغسي فريد ومدعش (١) وهي - أي الآيات القرآنية - تقص علينا رحلة

الانسان التي تبدأ من التراب وتنتهي الى التراب :

” هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ “ (٢)

كما يقول سبحانه أيضا في آية أخرى :

” وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ “ (٣)

وفي آية ثالثة يقول :

” وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ التَّوْبَةِ بَشَرًا فَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا “ (٤)

وفي آية رابعة يقول :

” وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ “ (٥)

وفي الآيات السابقة اشارة الى أن أصل الانسان ومعدنه الأساسي

هو من طينة هذه الأرض ومن معدنها ، وهذا ما يتضح من التحليل المخبري ان يقرانه لو أرجعنا الانسان الى عناصره الأولية لوجدناه أشبه بنجم صغير ، يشترك في تركيبه حوالي (٢٢) عنصرا ، كلها موجودة في تراب الأرض ، لا تبلغ في القيمة سوى ما يعادل أربعين قرشا (٦) ولكن السر لا يكمن في نوعية المواد ، وانما يكمن في كيفية

(١) انظر مع الطب في القرآن الكريم / د. عبد الحميد رباب / أحمد

قرقوز ص ٨٠ .

(٢) سورة غافر آية ٦٧ .

(٣) سورة الروم آية ٢٠ .

(٤) سورة الفرقان آية ٥٤ .

(٥) سورة المؤمنون آية ١٢ .

(٦) أربعين قرشا بالعملة السورية تعادل حاليا : ٨ قروش سعودي تقريبا .

تركيب هذه المواد بعضها الى بعض) (١) في جسم الانسان فسي
أطواره المختطفة والتي أشار اليها القرآن في سورة غافر (ليتخذ
- أي القرآن - من هذه الحياة مقدمة لتقرير الحياة كلها بين يدي الله ،
فهذه النشأة فيها ما لم يدركه علم الانسان ، لأنها كانت قبل وجود
الانسان ، وفيها ما يشاهده ويراقبه ولكن هذا انما تم حديثاً بعد نزول
القرآن بقرون) (٢) فالناظر اليوم في هذه الايات البينات وهو يضع
نصب عينيه حقائق القرن العشرين عن علم الاجنة يشعر بأن الله تبارك
وتعالى انما خصه هو بهذه الآيات لأنها تخاطبه باللغة التي يتباهى
بها اليوم) (٣) . ولم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا
لنسمع فقط لفظ النطفة والعلقة والمضغة ، ولا لتكلم بها فقط ، ولا لمجرد
تعريفنا بذلك ، بل لا مروراً ذلك كنه هو المقصود بالخطاب واليه جرى
ذلك الحديث .

يقول الامام ابن القيم رحمه الله (فانظر الى النطفة بعين البصيرة
وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقدر ، لو مرت بها ساعة من الزمان
فسدت وأنتنت ، كيف استخرجها رب الارباب من بين الصلب والترائب
الى أن ساقها الى مستقرها وجمعها ، وكيف جمع سبحانه بين الذكر

-
- (١) انظر مع الطب في القرآن الكريم ، عبد الحميد دياب ، أحمد قرقوز
ص ٧٢-٣ ، الطب محراب الايمان ، خالص حليبي ج١ ص ٥٩ .
(٢) في ظلال القرآن / سيد قطب ج٥ ص ٦٠٩٥ .
(٣) مع الطب في القرآن الكريم ص ٨٠ .

والأنثى وألقى المحبة بينهما ، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة الى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه ، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين في موضع واحد جعله لهما قرارا مكيئا لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا آفة تتسلط عليه . (١)

ويقول العلم الحديث عن هذه النطفة (ان الله حين قال في كتابه : " فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ لِمَ خُلِقَ ") (٢)

قدم فيها دعوة بل أمرا الى دراسة ما خلق منه الانسان ، وهي النطفة التي هي خلية حية ، وبالرغم من صغرها فهي كيان عضوي معقد أشد التعقيد ، وتعقيدها الظاهري شديد جدا ، أما تعقيدها الحقيقي فأشد ، كما يقول أحد كبار الأطباء العالميين وهو الدكتور " الكسيس كاريل " الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة ، وفي اللحظة التي يتم فيها الاخصاب تقرر هذه الخلية الصغيرة - بتسخير من الله - بدقة تامة نوع المخلوق البشري الذي يجري انتاجه ، حتى لون عينيه وتموجات شعره ، وان العلم ما زال قاصرا عن ادراك الأسباب والدوافع التي تدفع بالبويضة الى أن تتخلص من نصف مادتها بعد أن تبلغ درجة النضج وتصل الى الرحم ، وأن يتخلص الحيوان السنوي كذلك من نصف ما به ، حتى اذا اتحد النصفان كونا خلية واحدة صغيرة بالغة من الصغر حدا كبيرا ، اذ يبلغ وزنها خمسة عشر جزءا من عشرة ملايين جزء من الجرام) . (٣)

-
- (١) مفتاح دار السعادة / ابن القيم ج ١ ص ٢٠٣ .
(٢) سورة الطارق آية ٥ .
(٣) انظر القرآن والعلم الحديث / عبد الرزاق نوفل ص ١١٤-١١٥ .

ويذكر الامام ابن القيم المرحلة الثانية من مراحل تكوين الجنين فيقول (ثم انظر كيف قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقه حمرا) تضرب الى سواد . (١)

ويقول العلم الحديث : (ما ان يتم التحام النطفة بالبيضة حتى تباشر البيضة الطحمة بالانقسام وهي في طريقها الى الرحم لتعلق هناك ، وتستمر عملية العلق مدة أربع وعشرين ساعة ، وذلك تنتهي مرحلة تشكل العلقه ، ولا يدرك روعة التصوير القرآني لهذه المرحلة " بالعلقه " الا من شاهد تلك الكتلة الخلوية وهي عالقة علوقا - وليس التصاقا - وسبحان من : " خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ " (٢) (٣)

(ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقه في لونها وحقيقتها وشكلها) (٤) وهي المرحلة الثالثة (وتحمل بداخلها مرحلتين ، مرحلة المضغة غير المخلقة حيث لم يتشكل فيها أى عضو أو جهاز ، ومرحلة المضغة المخلقة حيث يتم فيها تمييز الأجزاء المختلفة عن طريق الوريقات الثلاث ، والتي تحمل كل منها زمرة خلايا تأخذ كل واحدة على عاتقها تشكيل واحد من أجهزة الجسم أو أعضائه ، وذلك في إطار من التكامل والتنسيق بين هذه الأجزاء) وهي تنمو وتتطور ليكون الانسان في أحسن تقويم ، وتنتهي عملية التخلق في نهاية الشهر الثالث تقريبا ، فسبحان الله ، من الذى

(١) مفتاح دار السعادة / ابن القيم ج ١ ص ٢٠٣ .

(٢) سورة العلق آية ٢ .

(٣) انظر مع الطب في القرآن الكريم / عبد الحميد دياب / أحمد

قرقوز ص ٨٠ - ٨١ .

(٤) مفتاح دار السعادة / ابن القيم ج ١ ص ٢٠٤ .

دفع هذه الخلايا المتماثلة الضعيفة لتعطي كل هذا من مراكز التفكير والشعور والابداع ؟ انه الأمر الذي حير وما زال يحير كل علماء الدنيا حتى يعلموا أن المبدع والموجه في هذه الحياة هو الله (١) ، (ثم جعلها - أي المضة - عظاما مجردة لا كسوة عليها مابينة للمضة ، ثم انظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية الى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك في القرآن الكريم ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشدّه وأبعده عن الانحلال ، وكيف كساها لحما ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له ، فاللحم قائم بها وهي محفوظة به ، وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والغم والأنف وسائر المنافذ ، ومد اليدين والرجلين وبسطها وقسم رؤوسها بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأناامل ، وركب الأعضاء الباطنية من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والأعضاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه) (٢) (وبهذا الاستعراض السريع نجد أن تلك المضة قد أخذت بعداً آخر ، اكتسبت فيه قدرة على الحركة ، وابتدأ بها القلب بالنهضان بلا توقف ، ولهذا البعد أشار القرآن بعد عرضه لسلسلة أطوار تخلق الجنين حيث قال :

” ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (٣)

وقد وقف السياق - في سورة غافر - عند بعض مراحل خلق الانسان

(١) انظر مع الطب في القرآن الكريم / عبد الحميد دياب / احمد

قرقوز ص ٨٢ .

(٢) مفتاح دارالسعادة / ابن القيم ج ١ ص ٢٠٤ .

(٣) مع الطب في القرآن الكريم ص ٨٤ .

البارزة (مرحلة الطفولة ، ثم بلوغ الاشد حوالي الثلاثين ، ثم الشيخوخة ، وهي المراحل التي تمثل أقصى القوة بين طرفين من الضعف ، ومنكم من يتوفى من قبل أن يبلغ هذه المراحل جميعا أو بعضها :

” وَلِتَبْلُغُوا أَجَلَ نُسُكِي ”

مقدرا معلوما لا تتأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون * ولعلكم تعقلون *
فمتابعة رحلة الجنين ، ورحلة الوليد وتدبر ما تشير اليه من حسن الخلق والتقدير ما للعقل فيه دور كبير .

ورحلة الجنين ورحلة الطفل بعدها ككتاهما توقع على الحسن البشري وتلمس القلب الانساني في أي بيئة وفي أي مرحلة من مراحل الرشد العقلي ، وكل جيل يحس لهذه اللسنة وقعها على طريقته وحسب معلوماته ، فيخاطب القرآن بها جميع أجيال البشر ، فيحسون ، ثم يستجيبون أولا يستجيبون ، وهو يعقب عليها بعرض حقيقة الاحياء والاماتة ، وحقيقة الخلق والانشاء جميعا :

(١) (٢)

” هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ” (١)

وختاما هذا ما كان من أمر الربوبية في ضوء سورة غافر ،
الى ما بعدها
الا أننا وقبل الانتقال / نوه كد حقيقة هامة وهي أن توحيد الربوبية

(١) سورة غافر آية ٦٨ .

(٢) في ظلال القرآن / سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٩٦ .

وحده لا يكفي لتحقيق معنى التوحيد المطلوب شرعا ، لأن مجرد اعتقاد أن الله هورب كل شيء وخالقه ومليكه وأنه المدير للأشور جميعا لا يكفي وحده ، فهذا ما كان يقربه المشركون الذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، فلا بد إذاً أن يكون مع ذلك توحيد الألوهية الذي هو الغاية العظمى من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام .

يقول ابن تيمية (ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقدهم الى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقدهم الى الاله المعبود وقصدهم اياه لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الاجلة ، كان اقرارهم بالله من جهة ربوبية أسبق من اقرارهم به من جهة ألوهيته ، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والانابة اليه ، ولهذا انما بعث الرسل بدعوتهم الى عبادة الله وحده لا شريك له الذي هو المقصود المستلزم للاقرار بالربوبية ، وقد أخبر عنهم أنهم :

” وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . (١)

وانهم اذا سبهم الضر ضل من يدعون الا اياه وقال : (٢)

” وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . (٣)

فأخبر أنهم مقررون بربوبية . (٣)

(١) سورة الزخرف آية ٨٧ .

(٢) سورة لقمان آية ٣٢ .

(٣) التوحيد / لابن تيمية / ص ١٠٦ .

ويقول في موضع آخر (فأما توحيد الربوبية الذي أقربه الخلق
وقرره أهل الكلام ، فلا يكفي وحده بل هو من الحجة عليهم وهذا معنى
ما يروى " يا ابن آدم خلقت كل شيء لك وخلقك^{لي} / فيحقي عليك
لا تشتغل بما خلقتك لك عما خلقتك له " . (١)

(١) المرجع السابق نفسه / لابن تيمية / ص ٧٥ .

المطلب الثاني: توحيد الألوهية

(الإله مأخوذ من إِلِه يَأَلَهُ إذا تحير العبد في عظمة الله ، وأصل إِلِه : وِلَاهٌ فقلبت الواو همزة فصارت إله ومعنى وِلَاهٍ : أن الخلق يَوَلُّونَ إليه في حوائجهم كما يوله الطفل إلى ثدي أمه عند احساسه بالجوع) (١) (أن الإله هو الذي يوله له فيعبده محبةً وانباطةً واجلالاً وكراماً وتعظيماً وذللاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً) . (٢)

وتوحيد الألوهية : هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وافراده وحده بالعبادة كلها ، وإخلاص الدين لله وحده ، وهذا الأخير يستلزم القسمين الأولين ويتضمنهما (٣) لأن الألوهية التي هي عفة تعم أوصاف الكمال ، وجميع أوصاف الربوبية والعظمة . فإنه المألوه المعبود لعالمه من أوصاف العظمة والجلال ، ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والافضال ، فتوحده تعالى بصفات (٤) الكمال وتفرد به بالربوبية يلزم منه أن لا يستحق العبادة أحد سواه .

(١) لسان العرب / ابن منظور / ج ١٣ ص ٤٦٨ .

(٢) انظر كتاب التوحيد / ابن تيمية ص ٧٣ ، اغاثة اللهفان /

ابن القيم ج ١ ص ٢٧ .

(٣) هذه العبارة جاءت بناءً على ما ورد في كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب من ترتيب لأنواع التوحيد ، فجعل أولهم توحيد الأسماء والصفات ، ثم توحيد الربوبية ، ثم توحيد الألوهية .

(٤) كتاب التوحيد / محمد بن عبد الوهاب ص ١٤ .

وقال صاحب كتاب عقيدة المسلمين (توحيد الألوهية هو توحيد الله تعالى بأفعال العباد التي تعبدهم الله بها كالنحر، والنذر، والدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة والرغبة، والانبابة، والخشوع والخشية، والاستعاذة، والاستعانة، والاستغاثة، وغير ذلك من أنواع العبادة التي شرعها الله، وأمر بها عباده، فيجب صرفها لمن يستحقها وهو الله جل وعلا) (١).

ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم الدعوة إلى هذا التوحيد وأن الله ما خلق الخلق إلا لعبادته والاختصاص له، وأن ذلك حقه الواجب المفروض عليهم، فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد ونهوا عن ضده من الشرك، وخصوصاً محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا القرآن الكريم، فإنه أمر به، وفرضه، وقرره أعظم تقرير وبينه أعظم بيان وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والنفسية أدلة صريحة على الأمر بهذا التوحيد ووجوبه) (٢).

-
- (١) عقيدة المسلمين / صالح / إبراهيم البليهي ج١ ص ٣٢٩-٣٣٠.
- (٢) كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد / الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٤ و ١٥. وقد وجدت لهذا الكتاب شروحات كثيرة مفيدة قام بها نخبة من العلماء الأفاضل منهم حفيد المصنف " سليمان بن عبد الله بن محمد " وسماه " تيسير العزيز في شرح كتاب التوحيد " والشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب والذي اختصر الشرح وهذبه وجعله " غاية المطالب ونهاية المآرب " وله مسمى آخر

وقال شارح الطحاوية مؤدعا على هذا النوع من التوحيد أنه
أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك
الى الله . (١)

قال تعالى :

” وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّغُوتَ (٢)

وقال تعالى :

” وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٣)

ومن الأحاديث التي تعبر عن خصائص الألوهية أصدق تعبير ،
وتبين لنا أن الملك والخلق والتقدير لله وحده لا شريك له ما رواه أبو
ذر جندب بن جنادة (٤) رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

====
آخر وهو ” فتح المجيد ” شرح كتاب التوحيد ، ثم جاء
تلميذه ” حمد بن علي بن محمد بن عتيق ” فجمع كتاب أبطال
التنديد باختصار شرح التوحيد فكان كالعجالة لطالب العلم ،
وهناك أيضا ” افادة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ” للشيخ
عبد الرحمن بن حمد بن محمد الجطيلي .

(١) شرح العقيدة الطحاوية / ابن أبي العز الحنفي ص ٧٤ .

(٢) سورة النحل آية ٣٦ .

(٣) سورة الانبياء آية ٢٥ .

(٤) هو الصحابي جندب بن جنادة بن سفيان ، الغفاري الحجازي ،

أبو ذر ، اختلف في اسمه ، كان من السابقين الى الاسلام ، ورجع
الى قومه باذن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم هاجر الى المدينة وصحب
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي ، وكان زاهدا متقللا من

====

فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : " يا عبادى اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا " . . . يا عبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهدكم ، يا عبادى كلكم جائع الا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم ، يا عبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني اكسكم ، يا عبادى انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المحيط اذا أدخل البحر ، يا عبادى انما هي أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه " . (١)

(وقد أثبت الله لذاته المقدسة الوحدانية في عشرات المواضع من آياته) (٢) ولهذه الأهمية ومن منطلقها نجد القرآن قد سلك الى هذا المطلب الأعظم أساليب متعددة يجدها القارى .

=== الدنيا ، قولا للحق ، صادق اللهجة . وكان يوازى ابن سعود في العلم ، توفي بالريذة سنة ٣٢ هـ (انظر ترجمته في الاصابة ٦٣/٤) الاستيعاب ٦١/٤ ، تهذيب الاسماء ٢٢٩/٢ ، شذرات الذهب ٣٩/١ ، حلية الاولياء ١٥٦/١ ، ٣٥٢) .
(١) أخرجه مسلم ج ١٦ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم حديث رقم ٥٥ ص ١٣١ - ١٣٤ . كما أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٥ ص ١٦٠ (قريبا منه) .

(٢) انظر عقيدة المسلمين / صالح بن ابراهيم البليهي ص (٣٣) ، ٢٤١ .

غني كل القرآن ، فكان لسورة غافر حظ عظيم والتي منها :

١ - سوق آيات الربوبية في الخلق والتدبير ، والملك ، والحفظ ، والرعاية (١) والاحسان والرحمة ، وجعل ذلك دليلا على الوحدة في الألوهية (٢) (القرآن كله تذكير بالآلاء الله) ، وفي الصفحات السابقة خير شاهد لذلك .

٢ - التنديد بما يتخذه الناس آلهة من دون الله ، واطهار حالها من العجز والتشنيع والفقر البالغ والغفلة عن يدعوها ويفزع اليها كقوله تعالى في سورة غافر على لسان موء من آل فرعون :

” وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ آدُعُوهُمْ إِلَىٰ النَّجْوَىٰ وَيَدْعُونَنِي إِلَىٰ النَّارِ ۗ لَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْعَزِيمِ الْفَقِيرِ ۗ لَآجِرًا أَنِّي نَدْعُونَ فِيهِ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ نَدْعُوهُ فِي الدُّنْيَا وَأَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَن نُّعْرَدَ تَائِبًا إِلَىٰ اللَّهِ وَأَن لَّمْ يَسْرِ فِيهِمْ جَزَاءُ النَّارِ ۗ“ (٣)

وما يزيد هذه الآيات وضوحا قوله تعالى :

” أَيَشْرِكُونَ مَا لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا وَهُمْ يُخْفُونَ ۗ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمُ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ لَمْ تَدْعُوهُمْ ۗ إِنَّ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَشْكِرُ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٣) أَلَمْ لَهُمْ آرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۗ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۗ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا ۗ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظَرُونَ (١٩٤)“ (٤)

(١) دعوة التوحيد . د . محمد خليل هراس ص ٣٩ ، وانظر اغاثة

اللفهان / ابن قيم الجوزية ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) الحسنة والسيئة / تقي الدين ابن تيمية ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) سورة غافر آية ٤١ - ٤٣ .

(٤) سورة الاعراف آية ١٩١ - ١٩٥ .

(فهذا انكار من الله على المشركين الذين عبدوا معاله غيره من
الانذار والاثان ، وهي مخلوقة لله مربية مصنوعة لا تلك شيئا
من الامر ، ولا تضر ، ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها ، بل هي
جماد لا تتحرك ولا تسمع وعابدها أكمل منها بسمعهم وببصرهم ،
وبطشهم ، بل الامر أشد من ذلك ولا يقتصر على واحد من
معبوداتهم بل ان جميع تلك الالهة لو اجتمعت عن آخرها لخلق أحقر
شيء وهي الذبابة لما استطاعوا خلقها ، بل لو سلبتهم الذبابة
شيئا من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا انقاذه منها ، قال تعالى :

” يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ
وَإِنْ سَلَبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَأَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ (١)

وبعد ذلك ، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد له — رزق
ويستنصر؟ (٢) (فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزا ، والعاجز

لا يصلح أن يكون الها ، قال تعالى :

(٣) (٤)
” أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٥﴾ (٥)

(بل ان هذه الالهة لا تفرق بين من دعاها ومن دعاها كما قال
” ابراهيم ” عليه السلام :

” يَا بَنِيَّ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٥٠﴾ (٥)

-
- (١) سورة الحج آية ٧٣ .
(٢) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٦ .
(٣) سورة النحل آية ١٧ .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية / ابن أبي العز الحنفي ص ٨٧ .
(٥) سورة مريم آية ٤٢ .

وكذا كان " معاذ بن عمرو بن الجموح " و " معاذ بن جبل " (١) رضي الله عنهما يفعلان وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل ليعتبر قومها بذلك ويرتوا لأنفسهم ، وكان " لعمر بن الجموح " (٢) وكان سيدا في قومه صنم يعبدونه ويطلبونه ، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخان بالعدرة ، فيجي عمرو بن الجموح فمرى ما صنع به فيفسله ويطلبه ويضع عنده سيفا ويقول له انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود الى صنمه أيضا حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في جبل في بئر هناك ، فلما جاء " عمرو بن الجموح " ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال :

تالله لو كنت الهام مستدن

لم تك والكلب جميعا في قرن

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، أبو عبد الرحمن الصحابي الأنصاري الخزرجي ، الامام المقدم في علم الحلال والحرام قال أبو نعيم عنه " امام الفقهاء ، وكنز العلماء " ، شهد العقبة ودرأ والمشاهد وكان أفضل شباب الأنصار حلما وحياء وسخاء ، أمره النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن ولايته القضاء ، قدم من اليمن في خلافة أبي بكر ، ولحق بالجهاد والجهاد الاسلامي في بلاد الشام ، وكانت وفاته بالطاعون سنة ١٧ أو ١٨ هـ (انظر ترجمته في الاصابة ٤٢٦/٣ ، صفة الصفوة ٤٨٩/١ ، تهذيب الاسماء ٩٨/٢) .

(٢) هو عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام السلمي ، كان سيد قومه ، شهد أحدا واستشهد بها (انظر ترجمته في الاصابة ٢٢/٢ ، صفة الصفوة لابن الجوزي ٦٤٣/١ وما بعدها) .

ثم أسلم فحسن اسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدا ، رضي الله عنه
وأرضاه ، وجعل جنة الفردوس مأواه (١) .

ففي هذه الآيات السابقة بيان شاف لحال هذه الآلهة
الباطلة من العجز والمهانة ، حتى أنها أقل شأنا من عابديها ، لا تملك
ما يملكون من أسطع وأبصار وقوى العقل والارادة والبيان ، فكيف إذا
تصلح للالهية ، ومن هنا كان لا بد من توحيد الله ، (فيجب افراده ،
واخلاص العمل له في كل أنواع العبادة ، قال تعالى :

(٢) (٣)
”فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣١﴾“ (

٣ - ومنها التشنيع بحال العابدين لهذه الالهة الباطلة ، ورميهم
بالضلال والسفه حيث رضوا لأنفسهم أن يعبدوا ما لا يسمع
ولا يبصر ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولا تغني شفاعتهم عنهم
شيئا ، وهو لا شأنهم كما قال تعالى :

”لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ لَهَا إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا كِبْرًا مَكْرَهًا
إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾“ (٤)

وللتأكيد على أن مدار الأمر كله هو التوحيد (قال علي بن
أبي طالب رضي الله عنه (له دعوة الحق) أي التوحيد وقال ابن عباس
و " قتادة " و " مالك " عن " محمد بن المنكدر " (له دعوة الحق)
لا اله الا الله .

(١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) سورة غافر آية ١٤ .

(٣) عقيدة المسلمين / صالح بن ابراهيم البليهي ج ١ ص ٢٤١ .

(٤) سورة الرعد آية ١٤ .

فوجد القرآن يعجب من حال هو^٥ لا^٥ العابدين لتلك الآلهة
الباطلة ويرسمهم بالسفه ، يقول علي بن أبي طالب " مثلهم كمثل الذي
يتناول الماء من طرف البئر بيده ، وهو لا يناله أبدا فكيف يبلغ فاه ؟ "
وقال " مجاهد " (١) " كباسط كفيه يدعو الماء بلسانه ويشير اليه
فلا يأتيه أبدا " .

ومعنى الكلام كما يقول " ابن كثير " رحمه الله " ان الذي
يبسط يده الى الماء اما قابضا واما متناولا له من بعد ، انه لا ينتفع
بالماء الذي لم يصل الى فيه الذي جعله محلا للشرب ، فكذلك هو^٥ لا^٥
المشركين الذين يعبدون مع الله الها غيره لا ينتفعون بهم أبدا في الدنيا
ولا في الآخرة ، ولهذا قال تعالى :

(٢) (٣)
” وَمَا دَعَا الْكٰفِرِيْنَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ (٥) “

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد في الدنيا بل انهم (ينادون
يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتظنون وذلك عندما باشروا من
عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به فمقتوا عند ذلك أنفسهم
وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت

(١) هو مجاهد بن جبر المكي المخزومي مولا هم ، أبو الحجاج ، الامام
التابعي الشهير ، قال النووي : اتفق العلماء على امامته وجلالته

وتوثيقه ، وهو امام في الفقه والتفسير والحديث توفي سنة ١٠٣ هـ
وقيل غير ذلك (انظر ترجمته في : تهذيب الاسماء واللفات

٨٣ / ٢ ، شذرات الذهب ١ / ١٢٥ .

(٢) سورة غافر آية ٥٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٢ ص ٥٠٧ ، وانظر التذكرة /

القرطبي ص ٤٨٨ - ٤٩٢ .

سبب دخولهم الى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك " اخبارا عاليا
بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الايمان فيكفرون أشد
من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة ، قال " فتارة " :
نعم ان مقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الايمان في الدنيا
فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكثر مما مقتوا أنفسهم حين عابوا عذاب الله
يوم القيامة (١) ، قال تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ
أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ بِنُفُوسِنَا
أَشْتَيْنَ فَاغْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ
وَكُنْتُمْ فِي شُرَكَائِهِ إِذْ دُعِيَ إِلَهُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كُنْتُمْ
مُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ " (٢)

٤ - ومنها : (تصوير ما سيكون يوم القيامة بين العابدين
والمعبودين ، وبين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة
وتنصل المعبودين من جنابة هؤلاء العابدين ، وانكارهم أن
يكون لهم يد في اضلالهم وشركهم) (٣) قال تعالى :

" وَإِذْ يَتَحَايَرُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الضُّعُفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ
مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالُوا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدِ احْكَمَ
بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ الْجَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ
الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْ لَمْ نَكُ تَابِعِيكُمْ وَرُسُلَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُا
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا أَنْصَرُّ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُدَاءُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَهُمْ فِي الْعَذَابِ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ " (٤)

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٧٢ .

(٢) سورة غافر آية ١٠ - ١٢ .

(٣) دعوة التوحيد / محمد خليل هراس ص ٤٣ .

(٤) سورة غافر آية ٧ - ٥٢ .

هذه صورة لتلك المحاجاة في النار ، والخصام (حيث يقول الضعفاء وهم الاتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء) انا اطعناكم فيما دعوتونا اليه في الدنيا من الكفر والضلال فهل أنتم تحملون قسطا من العذاب ؟ فيرد عليهم المستكبرون في محاولة للتوصل : انا لا نتحمل عنكم شيئا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ، فالله قد قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ، ولم يجدوا امامهم الا سجانهم في النار فتوجهوا اليهم يدعون لهم الله تعالى أن يخفف عنهم ولو يوما واحدا من العذاب ، فيقول لهم الخزنة أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل ؟؟ إننا فنحن لا ندعولكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ونحن منكم براء (١) .

ويقول الله تعالى في موضع آخر من سورة غافر :

”الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُضْرَفُونَ ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ
وَمَا آرْسَلْنَا بِهِ رَسُولًا فَتُؤَفِّيهِمْ ﴿٧٧﴾ إِذَا الْغُلُوبُ فِي أَعْقَابِهِمْ وَالسَّلِيلُ يُسْحَبُونَ
﴿٧٨﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٨٠﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا
ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٨٢﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَإِنَّ مَشْوَى التَّكْوِينِ ﴿٨٣﴾“ (٢)

- (١) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٣ ، ثم انظر وثقة سيد قطب أمام هذه الايات في كتابه "مشاهد القيامة في القرآن" ص ١٦١ - ١٦٦ ، بقظة أولى الاعتبار / صديق حسن خان / تحقيق أحمد حجازي السقا ص ١٠٧ - ١٥٢ .
- (٢) سورة غافر آية ٦٩ - ٧٦ .

يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير
والتهكم والاستهزاء بهم " أين ما كنتم تشركون من دون الله " أين
الاصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ، هل ينصرونكم اليوم ؟
قالوا : ذهبوا فلم ينفعونا " بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا " أى جحدوا
عبادتهم كقوله جلت عظمته :

(١) " ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِئْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ "

وفي هذا الشأن يقول تعالى :
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ
وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿٢٣﴾ إِذْ
تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا كَذَلِكَ يَرِيهِمْ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ
حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٢٤﴾ (٢)

هـ - ومنها (بيان انفراده سبحانه بعالمه من الأسماء الحسنى

والصفات العليا التي لا يكون لها الا من اتصف بها ، وذلك
لان الإله يجب أن يكون كاملا حائزا لجميع صفات الكمال ،
فإن النقص مناف للالهية ، فاذا ثبت اختصاصه سبحانه بهذه
الأسماء والصفات دل ذلك على تفرد بالالهية) . (٣)

وذلك مثل قوله تعالى :

(٤) " وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٥﴾ "

وقوله في آية الكرسي : " اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ " (٥)

(١) سورة الانعام آية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة آية ١٦٥ - ١٦٧ .

(٣) دعوة التوحيد / محمد خليل هراس ص ٤٥ .

(٤) سورة البقرة آية ١٦٣ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

وقوله تعالى : " هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣٣﴾
هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْتَمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ
الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ "

وسياتي المزيد من الحديث والتوضيح حول هذه النقطة في السبحث
القادم ان شاء الله .

كيف تحقق توحيد الألوهية من خلال سورة غافر :

(٢) اذا كان توحيد الألوهية يقوم على صرف جميع العبادات لله

والاخلاص فيها بغير شائبة توجه بشي منها الى غيره أصلا فقد وجدنا
الكثير من هذه النماذج في سورة غافر على لسان موسى عليه السلام وعلى
لسان موء من آل فرعون الذي توجه لربه وحده بالحب . . والخوف . .
والاخلاص . . والتوكل . . والصبر . . والدعاء . . والاستعانة . . والاستغاثة .
فهذا موسى عليه السلام يتوجه بالاستعانة لله تعالى وحده فيقول سبحانه
على لسانه :

(٣) " وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ "

(أى لما بلغه قول فرعون :
" ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ") (٤)

- (١) سورة الحشر آية ٢٢-٢٣ .
(٢) سواء منها العبادات القلبية كالحب والخوف والاخلاص والتوكل والصبر،
أو العبادات القولية كالدعاء والذكر والتسمية والاستعانة والاستغاثة
والحلف، أو العبادات البدنية كالجهاد بالنفس والصلاة والصيام والحج
والعمرة، أو العبادات المالية كالزكاة وصدقة التطوع والنذر والذبح .
وهذه العبادات بتفاصيلها يجدها القارىء في كتاب "مدارج
السالكين / ابن القيم ج ١ ص ١٠٩ وما بعدها .

(٣) سورة غافر آية ٢٧ .

(٤) سورة غافر آية ٢٦ .

قال موسى عليه السلام : استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله
ومن كل متكبر عن الحق ، مجرم لا يؤمن بيوم الحساب) (١) (قالها
موسى واطمأن وسلم أمره الى المستعلي على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر
القادر على حماية العائذين به من المستكبرين ، مشيراً الى وحدانية
الله ربه وربهم ، لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد) . (٢)

وهذا كما يقول ابن القيم رحمه الله (علامة توحيد الالهية
في القلب) . (٣)

ثم نرى مؤمن من آل فرعون يضرب لنا نموذجاً للخوف حين يتحول
الى عباده : فهو لم يخف من بأس فرعون - رغم بطشه وجبروته ، بل
وقف أمامه حين قال :

(ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى)

وقف أمامه بعد أن أخذته غضبة لله وقال :

(٤)

” أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ”

يقول ابن كثير رحمه الله : (ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون) (٥)
الا أننا نجد في موضع آخر يخاف كأشد ما يكون الخوف حين
يقول :

-
- (١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٧٧ .
(٢) في ظلال القرآن / سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٧٨ .
(٣) مدارج السالكين ج ١ ص ٤١١ .
(٤) سورة غافر آية ٢٨ .
(٥) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٧٧ .

”يَقُومُ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا“ (١)

وقوله :

”يَقُومُ لِي إِذَا خُفِّ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَخْرَابِ“ (٢)

وقوله :

”وَيَقُومُ لِي إِذَا خُفِّ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ“ (٣)

فهو لم يعرف للخوف معنى حين كان الأمر متعلقا بغير الله - فرعون وجنوده - بل أقدم عليه في الكلام كأشد ما يكون الإقدام ، أما حين كان الأمر متعلقا بالله فقد كان ذلك المؤمن خائفا كأشد ما يكون الخوف وفي حسه قوله تعالى :

”وَأَتَتْكُمْ قِنَاطِرٌ مِّنَ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسِنِينَ وَالشَّاهِدِينَ بِالنَّفْسِ الْمَيِّتَةِ الَّتِي لَمْ تَمُوتْ وَأَلْمَنُوا بِهَا وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ وَالشَّاهِدِينَ لِيَكْفُرُوا عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ يَخْتَارُ“ (٤)

يقول ابن القيم رحمه الله ما معناه : (حين يتقدم خوف الله فسي القلب جميع المخوفات ، فتساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه ، فهذا علامة توحيد الالهية في هذا القلب) . (٥)

ثم نرى في موضع آخر من السورة صورة لذلك القلب بعمد أن تغفل فيه حب الله والاخلاص له - وهي صورة لا نراها الا في قلوب الرسل . عليهم السلام ومن سار على دربهم :

”وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوُدِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ“ (٦) ”وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوُدِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ“ (٦)

”وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوُدِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ“ (٦)

-
- (١) سورة غافر آية ٢٩ .
 - (٢) سورة غافر آية ٣٠ .
 - (٣) سورة غافر آية ٣٢ .
 - (٤) سورة الأنفال آية ٢٥ .
 - (٥) مدارج السالكين ج ١ ص ٤١١ بتصرف .
 - (٦) سورة غافر آية ٤١ - ٤٢ .

صورة القلب بعد أن يبلأه الرجاء في الله والثقة به :

”لَا جُرْمَ أُمَّتًا نَدْعُوَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ
الْمَسِيرَ فِيهِ هُمُ الرَّحْبُ الْبَارِ ۝ فَتَدْرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْغِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ ۝ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَكَافًا بِقَالَ فِرْعَوْنُ سُوءَ الْعَذَابِ ۝“ (١)

يقول شيخ الاسلام مشيرا الى المعنى السابق: فهذا التوحيد

- توحيد الالهية - يتضمن فعل المأمور وترك المحظور . . فيقتضى أن لا
يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل الا عليه ، ولا يستعين الا به . (٢)

وهذا هو مقام العبادة والاستعانة علما وحالا . . والتي ثبتت فيها
موء من آل فرعون قدمه ، مرتقيا من توحيد الربوبية ، صاعداً الى توحيد
الالوهية (فان اذ به يتيقن أن الخير والنفع ، والعطاء والنع ، والهدى
والضلال ، والسعادة والشقاء كل ذلك بيد الله لا بيد غيره ، وأنه الذى يقلب
القلوب ويصرفها كيف يشاء ، وأنه لا موفق الا من وفقه وأعان ، ولا مخذول
الا من خذله وأهان وتخلو عنه ، وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها
وأصفاها وأشدها وألينها من اتخذه وحده الها ومعبودا ، فكان الله
أحب اليه من كل ما سواه ، وأخوف عنده من كل ما سواه ، وأرجى له من
كل ما سواه . . وهذا علامة توحيد الالوهية في ذات القلب ، والباب
الذى دخل اليه منه توحيد الربوبية ، أى باب ^{توحيد} الالهية ، هو توحيد
الربوبية . (٣)

(١) سورة غافر آية ٤٣-٤٥ .

(٢) الحسنة والسيئة / تقي الدين ابن تيمية ص ١٢٦ .

(٣) انظر مدارج السالكين ، ابن القيم / تحقيق محمد حامد الفقي ج ١

ص ٤١١ " بتصرف " .

المطلب الثالث : توحيد الأسماء والصفات

(ومن الايمان بالله ، الايمان بما وصف به نفسه

في كتابه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكيف ولا تشيل ، بل نوه من بأن الله سبحانه :

”لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ“ وهو السميع البصير (١) .

فلا يُنفى عنه ما وصف به نفسه ، ولا يُحرّف اللفظ عن مواضعه ، ولا يُلحَد

في أسماء الله وآياته ، ولا يكفّف ، ولا يُمَثَّل صفاته بصفات خلقه لأنّه

سبحانه لا سمي ولا كفّف ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى

فإنّه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلاً ، وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم

رسله صادقون صدقون (٢) كما يؤكّد ذلك ابن تيمية رحمه الله في فتاواه حيث

قال (ومذهب السلف : أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله

من غير تحريف ولا تعطيل ، من غير تكيف ولا تشيل ، ونعلم أن ما وصف الله به

من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي ، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود

المتكلم بكلامه ، لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بمسما

يقول ، وأفصح الخلق في بيان العلم ، وأفصح الخلق في البيان والتعريف

والدلالة والارشاد (٣) بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ،

ولهذا قال : ”سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ“ (١٨٠) ”وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ“ (١٨١) ”وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ“ (١٨٢) (٤) .

ولهذا يقول ابن قدامة (٥) (وكل ما جاء في القرآن ، أوصح عمن

- (١) سورة الشورى آية ١١ .
- (٢) شرح العقيدة الواسطية / ابن تيمية ص ١٧-٢٤ .
- (٣) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٢٦ .
- (٤) سورة الصافات آية ١٨٠-١٨٢ .
- (٥) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الدمشقي الحنبلي موفق الدين أبو محمد أحد الأئمة الأعلام . قال ابن النجار : ”كان ثقة حجة نبيلاً ، غزير الفضل ، كامل العقل ، شديد الثبوت ، دائم

المصطفى عليه السلام من صفات الرحمن وجب الايمان به ، وطقه بالتسليم والقبول ، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتشيل وما أشكل من ذلك وجب اثباته لفظا ، وترك التعرض لمعناه ، و نرد علمه الى قائله ، ونجعل عهدته على ناقله ، اتباعا لطريق الراسخين في العلم الذين أتى الله عليهم في كتابه :

” وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ” (١)

وقال في ذم مبتغي التأويل لمتشابه تنزيله :

” فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ

تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ” (٢)

ولذلك قال الامام أبو عبد الله أحمد بن حنبل (٣) رضي الله عنه في قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله ينزل إلى سماه الدنيا (٤) أو إن الله

====
السكوت ، حسن السمات وورا عابدا على قانون السلف ، على وجهه النور ، وعليه الوقار والهيبة . الخ * وقد ألف التصانيف النافعة ، توفي سنة ٦٢٠ هـ (انظر ترجمته في ذيل طبقات الحنابلة ١٣٣/٢ وما بعدها ، شذرات الذهب ٨٨/٥) .

(١) سورة آل عمران آية ٧٠ .

(٢) سورة آل عمران آية ٧٠ .

(٣) هو الامام الجليل أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي

أحد الأئمة الأربعة الأعلام ولد ببغداد ونشأ بها ، وطلب العلم وسمع الحديث فيها ، وسافر في سبيل العلم أسفارا كثيرة فضائله و مناقبه وخصاله لا تكاد تعد ، توفي سنة ٢٤١ هـ .

(انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٤١٢/٤ ، وفيات الأعيان

٤٧/١ حلية الأولياء ١٦١/٩) .

(٤) فتح الباري ج ١١ كتاب الدعوات باب ١٤ * الدعاء نصف الليل

يرى في القيامة (١) وما أشبه هذه الأحاديث ، نوّه من بينها ونصدق بها ، ولا نرد شيئا منها ، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق ، ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نصف الله بأكثر ما وصف به نفسه ، بلا حد ولا غاية :

(٢) "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" (١١)

وقال الامام الشافعي (٣) رضي الله عنه : آمنت بالله ، وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله .

==== حديث رقم ٦٣٢١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ج ١٣ كتاب التوحيد

باب ٣٥ قول الله تعالى " يريدون أن يبدلوا كلام الله "

حديث رقم ٧٤٩٤ ص ٤٦٤ / صحيح مسلم بشرح النووي ج ٦

كتاب صلاة المسافرين وقصرها " صلاة الليل مثنى مثنى . . "

ص ٣٦-٣٩ قريبا منه .

(١) فتح الباري ج ١٣ باب قول الله تعالى " وجوه يومئذ ناضرة الى

ربها ناظرة " حديث رقم ٧٤٣٤ ، ٧٤٣٩ ص ٤١٩-٤٢١ ،

صحيح مسلم ج ١ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب ٣٧ " فضل

صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما " حديث رقم ٢١١-

٢١٢ ص ٤٣٩-٤٤٠ .

(٢) سورة الشورى آية ١١ .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن شافع القرشي

المطليبي ، الامام الجليل ، صاحب المذهب المعروف والمناب

الكثيرة ، توفي سنة ٢٠٤ هـ (انظر ترجمته في تهذيب الاسماء

واللغات ١/٤٤ ، طبقات الشافعية للسيبكي ١/١٩٢ ، شذرات

الذهب ١/٩ ، وفيات الاعيان ٣/٣٠٥ ، طبقات المفسرين

لداودي ١/٩٨) .

وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف رضي الله عنهم كلهم متفقون على الاقرار والإصرار والاثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله (١) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله (وتأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله تعالى بعلمها ، وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف - كمالك وغيره - الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، فالاستواء معلوم - يُعلم معناه ويُفسر ويُترجم بلغة أخرى - وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم ، وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يعلمه الا الله تعالى) . (٢)

وما دام هذا هونهج السلف فقد أمرنا بالفتاء آثارهم والسير على منوالهم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم " عليكم بستي سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة " . (٣)

-
- (١) لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي ص ٤ - ٨ وقد صدر عن مؤسسه الرسالة شرح لتلك اللعة للشيخ محمد صالح العثيمين ساء شرح لمعة الاعتقاد الهادي الى سبيل الرشاد .
- (٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج ٥ ص ٣٦ - ٣٧ .
- (٣) أخرجه الامام أحمد ج ٤ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، سنن أبي داود ، كتاب السنة / باب في لزوم السنة ج ٤ ص ٢٠١ قريبا منه / سنن الترمذى / كتاب العلم باب ١٦ " ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ج ٥ ص ٤٤ حديث رقم ٢٦٧٦ " قريبا منه " وقال عنه الترمذى : حديث حسن صحيح / سنن ابن ماجه / مقدمه / باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين حديث رقم ٤٣٠٤٢ ج ١ ص ١٥ ، ١٦ " قريبا منه " ، سنن الدارمي ، مقدمة باب ١٦ " باب اتباع السنة " ج ١ ص ٤٤ " قريبا منه " .

مظاهر هذا النوع من التوحيد من خلال السورة :

حين نُظِّقُ آيات سورة غافر نجدها تقف بنا للتعريف ببعض صفات الله (وهي مجموعة من الصفات ذات علاقة موضوعية بمحتويات السورة كلها وقضاياها ، فالعزة ، والعلم ، وغفران الذنب ، وقبول التوب ، وشدة العقاب ، والفضل ، والإنعام ، والعلو ، والكبر ، والقهر ، والسمع ، والبصر ، ووحدانية الألوهية ، ووحدانية المصير والمرجع ، كلها تتعلق بتلك المعاني^(١) . التي تتحدث عنها سورة غافر ، والتي يدور رحاها حول معنى العبودية لله رب العالمين .

يقول ابن القيم رحمه الله (والأسماء الحسنى ، والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية ، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع ، والعطاء والنع ، والخلق والرزق ، والإحيا والاماتة يشر له عبودية التوكل عليه باطنا ، ولوازم التوكل وشماته ظاهرا . وعلمه بسمعه تعالى وبصره ، وأنه لا يخفى عليه شقال ذرة في السموات ولا في الأرض وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يشر له حفظ لسانه وجوارحه ، وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله ، بل يُصبح تعلق هذه الأعضا بما يحبه الله ويرضاه ، فيشر له ذلك الحيا باطنا ، ويشر له الحيا اجتناب المحرمات والقبائح .

وعلمه بغناه ، وجوده ، وكرمه ، صبره ، واحسانه ورحمته ، يشر له سعة الرجا .

وعلمه بجلال الله وعظمته ، وعزه ، يشر له الخضوع والاستكانة والمحبة .

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ج٤ ص ٣٠٦٨ .

وعلمه بكماله ، وجماله ، وصفاته العلى يوجب له المحبة .
ومذ لك فقد رجعت العبودية كلها الى مقتضى الاسماء والصفات وارتبطت
بها . (١)

وفي هذا الاطار ، ومن هذا المنطلق جاءت اسماؤه الله وصفاته
موزعة بين آيات سورة غافر ، بعد أن تصدرتها بقوله تعالى :

” حَرَّمَ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٢﴾ (٢)

(أما العزيز : فهو الذى يقهر ولا يقهر ، وأما كونه عليما ، فهذا وصف
في حق الله : الذى لا يخفى عليه شيء) . (٣)

يقول ” ابن كثير ” في ذلك : العزيز العليم (ذو العزة والعلم ،
فلا يرام جنباه ، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجاباه) . (٤)

وغافر الذنب : (فالغفران ، والمغفرة من الله هو أن يصون
العبد من أن يسهه العذاب والغافر والغفور في وصف الله الذى يعفو
عن الذنوب ، فيغفر ما سلف ، بما يعلمه سبحانه من استحقاقهم للغفران) . (٥)

(قابل التوب : يقبل التوبة في المستقبل لمن تاب اليه وخضع

لديه .

شديد العقاب : الذى يدمر على المستكبرين ، ويعاقب المعاندين
ممن تورد منهم وطفى وآثر الحياة الدنيا وعتق عن أوامر الله تعالى

-
- (١) مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٩٠ .
(٢) سورة غافر آية ١ - ٣ .
(٣) انظر المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص ٣٢٣ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٧٠ .
(٥) انظر المفردات / الاصفهاني ص ٣٦٢ / تفسير القرآن العظيم
ابن كثير ج ٤ ص ٧٠ .

ويغنى من الذين لا يتوبون ولا يستغفرون . (١)

ذى الطول : (الطول : (خص به الفضل والمن) (٢)) وقد
قال ابن عباس رضي الله عنهما : ذى الطول : يعني السعة والغنى ،
وكذا قال مجاهد وقتادة (٣) ، وقال يزيد بن الأصم (٤) : ذى الطول ،
يعني الخير الكثير ، والمعنى أنه المتفضل على عباده ، المتطول عليهم
بما هم فيه من المن والنعمة التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها .
لا اله الا هو : أى لا نظيره في جميع صفاته ، فلا اله غيره ،
ولا رب سواه . اليه الصير : فيجازى كل عامل بعمله . (٥)

(١) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٧١ ، في ظلال

القرآن / سيد قطب ج ٤ ص ٣٠٦٨ .

(٢) المفردات / الأصفهاني ص ٣١٢ .

(٣) هو قتادة بن دعامة أبو الخطاب ، السدوسي ، البصري ، الأكنه ،

التابعي أجمعوا على جلالته وتوثيقه وحفظه واتقانه وفضله ، قال

سعيد بن المسيب " ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة " وكان

عالما بالتفسير واختلاف العلماء ، وأما ما في النسب ، ورأسا فسي

العربية وأيام العرب ، توفي بواسط في الطاعون سنة ١١٧ هـ

(انظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ ١/١٢٢ ، تهذيب الأسماء

٢/٥٧ ، طبقات المفسرين ٢/٤٣ ، وفيات الأعيان ٣/٢٤٨ ،

حلية الأولياء ٢/٣٢٣) .

(٤) هو عمرو بن عبيد البكائي الكوفي ، نزل الرقة ، ذكره ابن حبان

في الثقات مات سنة احدى ومائة وقيل غير ذلك ، وهو ابن ثلاث

وسبعين سنة (انظر ترجمته في تهذيب التهذيب ١١/٣١٣ ،

تقريب ٢/٣٦٢) .

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٧١ .

وتقف بنا سورة غافر بين الحين والآخر عند العديد من أسماء الله وصفاته ، ولكل منها مكانها المناسب ، والذي يعطي لذلك الاسم وتلك الصفة معنى ، يجعل المومن يعرف الله عن طريقه فيعبده عن علم ومعرفة .

قال تعالى : ” وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ”

إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

وقوله : ” إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُمْ شُرَكَاءُ لَهُمْ فِي شَيْءٍ ”

إِلَّا كِبْرُ مَا هُمْ بِبِغْيَاءٍ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢)

فالآيتان قد ختمتا بصفتي السمع والبصر ، إلا أن في الآية الأولى بياناً لعللة الشريك الذي لا يستطيع أن يقضي بشيء ، وكيف يقضي والقضاء من الزم صفاته السمع والبصر حتى لا يتقع الظلم وهي - أي الآلهة - لا تسمع ولا تبصر فجاءت هاتان الصفتان منسوبيتين لله في موقعهما الطبيعي والمناسب ، تنسب لله سماعاً وبصراً يليقان بجلاله .

وفي الثانية : كان الحديث عن الكبر الذي في الصدور ، والذي له تفاعلات ، يسمعها الله ، وله مظاهر يبصرها سبحانه ، والكبر يقع من صاحبه دون أن يعترف صاحبه أنه تكبر ، بل يجادل ويباري ليقنع من حوله أن الدافع له على ذلك هو الحق ، فناسب أن يقول له القرآن ، إذا كنت قد موهت على بعض من حولك مدارياً على ما تحمله نفسك فإن الله سميع بصير .

ثم ينتقل بنا المقام الى موضع من السورة تختم آياته بصفتي العزة والحكمة ، قال تعالى على لسان الملائكة : ” رَبَّنَا وَدَخَلْهُمْ جَنَّتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ

صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ”

(١) سورة غافر آية ٢٠ .

(٢) سورة غافر آية ٥٦ .

(٣) سورة غافر آية ٨ .

(وانا ذكروا في دعائهم هذين الوصفين لانه لو لم يكن
عزيزا بل كان بحيث يغلب وينع ، لما صح وقوع المطلوب منه ، ولو لم
يكن حكيما لما جعل هذا المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة) (١) فقولهم:
” إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ” (٢)

(أى الملك الذى لا يغلب فأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئا الا بداعي
الحكمة) (٣) وهذا ما ينهني أن يدركه العبد عن ربه .

وحين تختم الآيات في موضع آخر بصفتي العلو والكبر في قوله
تعالى : ” ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ
تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ” (٤)

(فانهما تجميان هنا لتصب في جانب التحذير ، وبث شاعر الخوف من كل
ما يحدث ، بايثار صفتي ” العلي ، والكبير ” بالذكر هنا ، لأن معناهما
مناسب لحرمانهم من الخروج من النار ، فالعلو بمعنى شرف القدر وكساله ،
ومن جملة ما يقتضيه ذلك تمام العلم وتام العدل ، فلذلك لا يحكم الا
بما تقتضيه الحكمة والعدل ، والكبير ، يقتضي منه الغنى عن الجور) (٥)

وفي ظل هذا المشهد تستطرد السورة الى شيء من صفة الله
تناسب موقف الاستعلاء ، وبالتالي استحقاقه أن يتوجه اليه بالدعاء وحده

(١) التفسير الكبير / الرازي ج ٢٧ ص ٢٧٧

(٢) سورة غافر آية ٨

(٣) الكشاف / الزمخشري ج ٣ ص ٤١٧

(٤) سورة غافر آية ١٢

(٥) التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ١٠٢

مخلصين له الدين "هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَأَدْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَهُمْ بُرُونَ لَا يَخْتِئُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾ لَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ (١)

وفي ذلك يقول صاحب التحرير والتنوير (وتجي صفتا الوجدانية والقهر هنا بالذات لأن لمعنيهما مزيد مناسبة بقوله (لمن الملك اليوم) حيث شوهدت دلائل الوجدانية لله وقهره جميع الطغاة) (٢)

ومن هنا كان الاستعلاء الذي يظهر واضحا في اليوم الذي (يتضاءل فيه المتكبرون ، وينزوي المتجبرون ، ويقف الوجود / خاشعا والعباد كلهم خضعا ، ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان ، وهو سبحانه متفرد به في كل آن ، فأما في هذا اليوم فيكشف هذا للعيان بعد انكشافه للجنان ، ويعلم هذا كل منكر ويستشعره كل متكبر وتصمت كل نامة (٣) وتسكن كل حركة ، وينطلق صوت جليل رهيب ، يسأل ويحيب ، فما في الوجود كله يومئذ من سائل غيره ، ولا مجيب " لمن الملك اليوم ؟؟ لله الواحد القهار ") (٤)

ومن تلك الصفات تتضح صلته بعباده ، وصلته عباده به ، تتضح في مشاعرهم وتصوراتهم وادراكهم فيعرفون كيف يعاملونه في لحظة ،

(١) سورة غافر آية ١٣-١٦ .

(٢) انظر التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٢١١ .

(٣) النامة : النعمة والصوت وأسكت الله تعالى نامة : أى : أمات

(انظر القاموس المحيط مادة : نام ج ٤ ص ١٧٩) دار الفكر ،

بيروت .

(٤) في ظلال القرآن / سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٧٣ .

وفي حساسية ، وفي ادراك لما يفضبه وما يرضيه (وقد كان أصحاب
العقائد الأسطورية يعيشون مع الهتهم في حيرة ، لا يعرفون عنها
شيئا مضبوطا ، ولا يتبينون ماذا يسخطها ، وماذا يرضيها ، ويصورونها
متقلبة الأهواء غامضة الاتجاهات ، شديدة الانفعالات ، و يعيشون معها
في قلق دائم ، ويتحسسون مواضع رضاها بالرقى والتمايم والضحايا والذبايح
ولا يدرون سخطت أم رضيت الا بالوهم والتخمين !

فجاء الاسلام واضحا ناصعا يصل الناس بالههم الحق ، ويعرفهم
بصفاته ز ويبصرهم بشيئته ، ويعلمهم كيف يتقربون اليه ، وكيف يرجون
رحمته ، ويخشون عذابه ، على طريق واضح ماضٍ مستقيم . (١)

(١) المرجع السابق نفسه جه ص ٣٠٦٩ .

المبحث الثالث :

الإيمان بالملائكة .

وليشتمل على تمهيد وثلاثة مطالب :

التمهيد : معنى الإيمان بالملائكة .

المطلب الأول : جانب من وظائفهم في السماء والذي اقتصر على حملة العرش .

المطلب الثاني : جانب من عباداتهم بعد إثبات حقيقة إيمانهم وهي التسبيح بحمد الله .

المطلب الثالث : جانب من وظائفهم في الأرض والذي اقتصر على الدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم .

المبحث الثالث
الايان بالملائكة

تمهيد : معنى الايمان بالملائكة :

لفظ الملائكة مشتق من الملك بضم اللام والملك من ذلك لأن معنى الملك الرسول والايان بالملائكة ركن من أركان العقيدة الاسلامية ومعناه (الاعتقاد والاقرار الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، وأنهم قائلون بوظائفهم التي أمرهم الله القيام بها) (١) سواء منهم الملائكة الذين وردت أسماؤهم في الكتاب أو في السنة بالتفصيل (كجبريل وميكائيل واسرافيل - رؤسائهم هم الثلاثة) (٢) أو الملائكة الذين لم يرد ذكرهم والذين يجب أن نؤمن بهم بصورة اجمالية ، ونؤمن بها ذكر من أوصافهم ، وأفعالهم في القرآن والسنة (هذه المعاني تحدث عنها الامام البيهقي (٣) في "شعب الايمان" حين قال (والايان بالملائكة ينتظم في معان :

أحدها : التصديق بوجودهم .

والثاني : انزالهم منازلهم ، وإثبات أنهم عباد الله وخلقهم كالانس والجن ، مأمورون ، مكلفون لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه ،

-
- (١) الأسئلة والأجوبة الأصولية / عبد العزيز محمد السلطان ص ٢٥ .
(٢) اغاثة اللفهان من مصاديد الشيطان / ابن قيم الجوزية ج ٢ ص ١٢٧ .
(٣) هو أحمد بن الحسين بن علي الخسرو جردى الشافعي ، الحافظ صاحب التصانيف ومنها السنن الكبرى والصغرى ، توفي سنة ٤٥٨ هـ (انظر شذرات الذهب ٣ / ٣٠٤ - ٣٠٥) .

والموت عليهم جائز ، ولكن الله تعالى جعل لهم أمداً بعيداً فلا يتوفاهم حتى يبلغوه ، ولا يوصفون بشيء يؤدى وصفهم به إلى اشراكهم بالله تعالى ، ولا يدعون آلهة كما دعوتهم الاوائل (١) .

وقد قال تعالى في صفة عقيدة المؤمنين :

” ءَامِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامِنٌ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ “ (٢)

كما أن هناك الكثير من الأحاديث التي تنص على وجوب الايمان بهم والتي منها ما جاء في الحديث المشهور الذي أخرجه مسلم عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه والبخارى “ عندما سأل جبريل عليه السلام عن الايمان فقال صلى الله عليه وسلم : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ” . (٣)

يثبت هذا في الوقت الذي يثبت فيه ضلال من كفر بهم ، فإنكار وجودهم يعد كفراً باجماع المسلمين بل ينص على ذلك القرآن العظيم ، قال تعالى :

” وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا “ (٤)

وقد اقتضت حكمة الله أن يسخر الملائكة لكثير من الوظائف الثابتة في القرآن الكريم والسنة الشريفة سواء ما يتعلق منها / الله تعالى ، أو بالكون

(١) الحباءك في أخبار الملائك / السيوطي / تحقيق أبي هاجر محمد

السعيد بن بليون زظول ص ٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٥٧ ، وأخرج البخارى نحوه عن

أبي هريرة في صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١ ص ٩٦-٩٧ ، سبق

تخرجه كاملاً .

(٤) سورة النساء آية ١٣٦ .

أوبالانسان خاصة وهذا ما أشار اليه الامام البيهقي في " شعب الايمان " وهو يتحدث عن المعنى الثالث والاخير من حقائق الايمان بالملائكة فقال : (والثالث : الاعتراف بأن منهم رسلا يرسلهم الى من يشاء من البشر وقد يجوز أن يرسل بعضهم الى بعض ، ويتبع ذلك الاعتراف بأن منهم حملة العرش ، ومنهم الصافون ، ومنهم خزنة الجنة ، ومنهم خزنة النار ، ومنهم كتبة الاعمال ، ومنهم الذين يسوقون السحاب ، وقد ورد القرآن بذلك كله أوبأكثره) . (١)

ولقد كان لسورة غافر نصيب ومشاركة حول هذا الجانب العقدي ، وهي مشاركة جاءت لتؤدى غرضها في مكانها ، وهي تتلخص في نقطتين والله أعلم .

النقطة الأولى : الملاحظ أن الجوالعام لسورة غافر مشحون بمعركة حامية بين الحق وأتباعه والباطل وأتباعه .. والذين لا ينقصهم شيء فهم مكتلون قوة وعتادا وطلاكا ودولة ، وأهل الحق في ذلك الوقت قلّة مستضعفة ... فذكر الملائكة في السورة جاء مطمئنا لأصحاب ذلك الحق ، وتلك هي الغاية ، فهم ليسوا وحدهم ، بل معهم ملائكة السماء ، الحافين بالعرش ، يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين / بعد اعلانهم ايمانهم بربهم ، فإذا اجتمع أهل الكفر والجدال على كفرهم وجدالهم فقد اجتمع أهل الايمان على ايمانهم ، وما يتبع ذلك من دعاة لإخسوة الايمان بالمغفرة والنعيم والفلاح .

(١) الحباءك في أخبار الملائك / السيوطي / تحقيق بسيوني زغول

النقطة الثانية : أنهم بحكم رابطة الايمان - لأن حملة العرش
ومن حوله هم من بين القوى الموءنة في هذا الوجود - فيحكم هذه الرابطة
كان من حقها عليهم أن يذكروا الموءنين من البشر عند ربهم ، ويستغفرون
لهم ، ويستنجزون وعد الله اياهم .

قال تعالى : " الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ ٥ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَأْسِفْ لَهُمْ فَتَدْرِهِمْ رَحْمَتُكَ يَا ذَا الْكَرَمِ ٧ " (١)

وإذا أردنا أن نقف أمام المطالب العقديّة حول هذه الآيات ، نجد

أنها تناولت ثلاثة مطالب :

يتناول

المطلب الأول : بجانبا من وظائفهم في السماء ، وقد اقتصر على حمل العرش .

يتناول

المطلب الثاني بجانبا من عباداتهم بعد اثبات حقيقة ايمانهم ، وهي التسبيح

بحمد الله .

يتناول

المطلب الثالث بجانبا من وظائفهم في الأرض ، وقد اقتصر في هذه الآية على

الدعاء للموءنين والاستغفار لهم .

(١) سورة غافر آية ٧ - ٩ .

المطلب الأول : جانب من وظائفهم في السماء

أولاً: إن الجانب الأول من تلك الوظائف كان في سورة غافر عبارة

عن مجرد إشارة إلى حملهم العرش :

”الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ“

هذه الإشارة وقعت عندها آية الحاققة في قوله تعالى :

(١) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ (١١)

يقول الامام ابن كثير في تفسيره (انهم ثمانية من الملائكة وقد أورد عن

سعيد بن جبير (٢) في قوله تعالى :

”وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ“ (١١)

قال : ثمانية صفوف من الملائكة (٣) وهذا ما ذهب إليه صاحب

التفسير الكبير (٤)

والى هنا فأنا أكتفي بهذا القدر من هذا الجانب العقدي ،

بتعدة عما ورد من استطرادات في التفاسير وفي غيرها من الكتب حول

أسماء حملة العرش من الملائكة ، والخلافات حول ما اذا كانوا ملائكة

أم لا ؟ وما يدور حول أشكالهم وأوصافهم ، لأن الآيات صريحة في

كونهم ملائكة ، ولا منها من الغيبيات التي يجب أن نقف فيها عند خبر

الصادق عليه الصلاة والسلام .

(١) سورة الحاققة آية ١٧ .

(٢) هو سعيد بن جبير بن هشام الكوفي الأشدي ، أبو عبد الله ، من

كبار أئمة التابعين ومقدميهم في التفسير والحديث والفقاه

والعبادة والورع ، قتله الحجاج ظلماً سنة ٩٥ هـ (انظر ترجمته

في : تهذيب الأسماء واللغات ٢١٦/١ ، شذرات الذهب (١٠٨/١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ، ص ٧٢٠ - ٧٢٣ .

(٤) الامام الفخر الرازي ، ج ٢٧ ، ص ٣١ .

المطلب الثاني

جانب من عبادتهم

فنحن نوه من بأن الملائكة نوع من مخلوقات الله ، التي لا تعرف الا الله / انها ما خلقت الا لتعرف الله وتتوجه اليه بالعبادة ، وقد أورد لنا القرآن الكريم ، وكذلك السنة الكثير من عباداتهم فتحدثنا مثلا عن :

أ - صلاتهم كما قال تعالى على لسانهم :
(١) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّابِرُونَ ﴿١٦٥﴾

ب - كما تحدثنا عن حجهم ، قال تعالى :
(٢) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾

وقد قال ابن كثير في هذه الآية ، ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الاسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : "ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم" . (٢)

(١) سورة الصافات آية ١٦٥ .

(٢) سورة الطور آية ٤ .

(٣) صحيح البخارى كتاب مناقب الانصار ، باب المعراج ج٧ ص ٢٠١ -

٢٢٠ ، صحيح مسلم كتاب الايمان باب الاسراء برسول الله صلى الله

عليه وسلم وفرض الصلوات ج٢ ص ٢٢٥ وما قبلها .

ج - والتسبيح الذي هو أحد عباراتهم ، وقد كان لسورة غافر وقفة
أمام هذا الجانب ، فقال تعالى :

(١) ” الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ،“

كما قال تعالى في كثير من سور القرآن الأخرى :

(٢) ” وَاللَّيْلِ كَمَا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ،“

وقال :

(٣) ” يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٣٠﴾ “

وقال على لسانهم :

(٤) ” وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿٣١﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿٣٢﴾ “

وقال :

(٥) ” وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ،“

وقال على لسانهم :

(٦) ” وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ .. “

-
- (١) سورة غافر آية ٧ .
(٢) سورة الشورى آية ٥٥ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٢٠ .
(٤) سورة الصافات آية ١٦٥-١٦٦ .
(٥) سورة الزمر آية ٧٥ .
(٦) سورة البقرة آية ٣٠ .

(والتسبيح هو عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي ، والتحميد :
الثناء عليه بالفضيلة) (١) ، فمعنى نحن نسبح بحمدك : (أى ننزهك
ونبرئك ما يضيفه اليك أهل الشرك بك) (٢) (فأصل التسبيح لله
عند العرب التنزيه له من اضافة ما ليس من صفاته إليه ، والتبرئة له
من ذلك) (٣) وقد أورد الطبرى أن التسبيح هو صلاة الملائكة ، فعن
سعيد بن جبير قال : * كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، فمر رجل
من المسلمين على رجل من المنافقين فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :
يصلى وأنت جالس ، فقال له : امض إلى عمك إن كان لك عمل ، فقال
ما أظن إلا سيمر عليك من ينكر عليك ، فمر عليه عمر بن الخطاب فقال له
يا فلان ، النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وأنت جالس ، فقال له مثلها ،
فقال ، هذا من عملي ، فوثب عليه فضربه حتى انتهى ، ثم دخل المسجد
فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما انفتل النبي صلى الله عليه وسلم
قام إليه عمر فقال : يا نبي الله مررت آنفا على فلان وأنت تصلو فقلت له :

(١) المفردات في غريب القرآن / الأصفهاني ص ٢٢١ ، ١٣١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ١ ص ٧٢-٧٣ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن ج ١ ص ١٦٧ .

النبي يصلي وأنت جالس ، فقال : سر إلى علك إن كان لك عمل ،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم فهلا ضربت عنقه ، فقام عمر مسرعا فقال :
يا عمر ، ارجع ، فان غضبك عز ورضاك حكم ، إن لله في السموات السبع
ملائكة يصلون له غني عن صلاة فلان ، فقال عمر : يا نبي الله وما صلاتهم؟
فلم يرد عليه شيئا ، فاتاه جبريل فقال : يا نبي الله سألك عمر عن صلاة
أهل السماء ، قال : نعم . فقال : اقرأ على عمر السلام ، وأخبره أن
أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون : سبحان ذي الملك
والملكوت ، وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون : سبحان
ذي العزة والجبروت ، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون :
سبحان الحي الذي لا يموت . (١)

والحقيقة أنه لا عجب في أن يكون للتسبيح هذا الشأن الكبير
والفضل العظيم ليكون صلاة الملائكة . وفي الحديث يروي أبو هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان
في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وحده سبحان الله العظيم " .
(٢)

وقال أبو نذر رضي الله عنه قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
" أي الكلام أحب إلى الله عز وجل ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ما اصطفى
الله سبحانه لملائكته : سبحان الله وحده سبحان الله العظيم " . (٣)

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات باب
فضل التسبيح ١٦٨/٧ ، صحيح مسلم ج ٤ كتاب الذكر والدعاء
والتوبة والاستغفار باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء حديث
رقم ٣١ ص ٢٠٧٢ .

(٣) صحيح مسلم ج ٤ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار / باب
فضل " سبحان الله وحده " حديث رقم ٨٥ ص ٢٠٩٣-٢٠٩٤-
قريبا منه .

(وانما ذكروا هنا بهذه العبارة ليقترن بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ها هنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل ، كما جاء في الحديث " ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ، يتمون الصفوف ، الا أول فالأول ، ويتراصون في الصف " (١) لذا قال تعالى :

" إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ " (٢)

مذكراً ابن آدم أن لا يستكبر عن عبادة ربه ، فهو لا الملائكة لا يستكبرون عن التواضع والتخشع ، وذلك هو العبادة (٣) بل انهم راعوا التسبيح لله :

" يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ " (٤)

وقد قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية ، (ان الملائكة لا يستكفون عن عبادته ، ولا يتعبون أو يملون ، فهم راضون في العمل ليلاً ونهاراً ، مطيعون قسداً وعملاً ، قادرين عليه ، كما قال تعالى :

لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ " (٥) (٦)

فحري بالانسان أن يقتدى بهم خوفاً من الله ورهبة ، قال تعالى :

" وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ " (٧)

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٢٨٢ ، عند تفسير قوله تعالى " ان

الذين عند ربك لا يستكبرون . . . الآية " والحديث أخرجه مسلم

كتاب الصلاة باب تحريم سبق الامام بركوع وسجود ونحوها ج ٤

ص ١٥٢-١٥٣ .

(٢) سورة الاعراف آية ٢٠٦ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن / الطبري ج ١٢ ص ٨٣ .

(٤) سورة الانبياء آية ٢٠ .

(٥) سورة التحريم آية ٦ .

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٧٥ .

(٧) سورة الرعد آية ١٣ .

المطلب الثالث : جانب من وظائفهم في الأرض

هذا هو الجانب الثالث الذي تعرضت له آيات سورة غافروهي

تتحدث عن حطة العرش ، قال تعالى : " وَيَسْتَغْفِرُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ
كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ
جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ
السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَبَى السَّيِّئَاتِ يُوَسِّدْ فَقَدْ رَجِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ " (١)

وهذا الجانب يمثل واحدا من مواقفهم الكثيرة مع المؤمنين ،

والتي سخرهم الله لها ، وهو الاستغفار لهم والدعاء ، قال تعالى :
" وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَآلَهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ "

وفي الحديث عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا
دخل شهر رمضان أمر الله تعالى حطة العرش أن يكفوا عن التسبيح
ويستغفروا لأمة محمد والمؤمنين . (٣)

والاستغفار من الملائكة هو الدعاء ، كما ورد عن ابن كثير فسي
تفسيره للآية ما نصه (إِنْ أَلَّهَ قَبِيضَ مَلَائِكَتِهِ الْمُقْرَبِينَ أَنْ يَدْعُوا لِلْمُؤْمِنِينَ
بِظَهْرِ الْغَيْبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى :

" هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤﴾ " (٥)

- (١) سورة غافر آية ٧ - ٩ .
(٢) سورة الشورى آية ٥٥ .
(٣) انظر كنز العمال ج ٨ حديث رقم ٢٧١٦ وانظر كنز العمال بهامش سند
الامام احمد بن حنبل ٣ / ٣٣٤ والذي عزاه الى الديلمي عن علي .
(٤) سورة الاحزاب آية ٣
(٥) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٧١ .

وكما أسلفنا فان الأمر لا يقف عند مجرد الدعاء لهم بل نجدهم
يوّنون على دعاء الموتى من اذا دعا ، وفي الحديث عن أم سلمة قالت :
" لا تدعوا على أنفسكم الا بخير فان الملائكة يوّنون على ما تقولون " . (١)
كما يقومون بتبشير الموتى من بالخير ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : " زار رجل أخاه في قرية أخرى ، فأرصد
الله له على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد
أخالي في هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربسها ؟ ،
قال : لا ، غير أنني أحببت في الله عزوجل ، قال : فاني رسول الله
اليك بأن الله قد أحبك كما أحببت فيه " . (٢)

كما أنها تقوم بتسديده ، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : " من سأل القضاء وكل الى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه
ملكا فيسدره " . (٣)

-
- (١) صحيح مسلم ج ٢ كتاب الجنائز باب في اغراض الميت والدعاء
له اذا حضر حديث رقم ٧ ص ٦٣٤ بلفظه وحديث رقم ٦ من
نفس الباب " قريبا منه " ص ٦٣٣ .
- (٢) صحيح مسلم ج ٤ كتاب البر والصلة والآداب باب في فضل الحب
في الله حديث رقم ٣٨ ص ١٩٨٨ " بلفظه " .
- (٣) سنن الترمذى بلفظه من رواية أنس ج ٢ أبواب الأحكام عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم في القاضي حديث رقم ١٣٣٨ ص ٣٩٢ وحديث رقم ١٣٣٩
من نفس الصفحة " قريبا منه " ، وقال عنه الترمذى ، هذا حديث
حسن غريب ، كما أخرجه الامام أحمد في مسنده بلفظه ج ٣ برواية
أنس بن مالك ص ١١٨ و ص ٢٢٠ " قريبا منه "

أما كيفية تسديده فالله أعلم به ، ومن هذا الباب ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" قال سليمان بن داود عليهما السلام ، لا تطوفن الليلة بحائة امرأة تلد كل امرأة غلاما يقاتل في سبيل الله ، فقال الطك : قل ان شاء الله ، فلم يقل ونسي ، فأطاف بهن ولم تلد الا امرأة منهن نصف انسان ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لو قال إن شاء الله لم يحنت وكان أرجى لحاجته " .
(١)

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب قوله تعالى " ووهبنا لداود سليمان " ج ٦ ص ٤٥٨ حديث رقم ٣٤٢٤ ، قريبا منه ، وقال فيه سبعين امرأة ، كما أخرجه في كتاب الجهاد باب من طلب الولد ج ٦ ص ٣٤ حديث رقم ٢٨١٩ [انظر فتح الباري ج ٦ ص ٣٤] وأخرجه في كتاب التوحيد باب في الشيعة والارادة حديث رقم ٧٤٦٩ (انظر فتح الباري ج ١٣ ص ٤٤٦ - ٤٤٧ ، كما أخرجه بلفظه في كتاب النكاح باب قول الرجل لا تطوفن الليلة على نسائي ، حديث رقم ٥٢٤٢) انظر فتح الباري ج ٩ ص ٣٣٩ .

المبحث الرابع : الإيمان بالكتب .

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب :

- التمهيد : معنى الإيمان بالكتب
المطلب الأول : وجوب إيمان بالكتب السماوية إجمالاً وتفصيلاً
المطلب الثاني : وجوب إيمان بها شرعاً وعقلاً
المطلب الثالث : اتفاق هذه الكتب السماوية في الأصول

المبحث الرابع

الايمان بالكتب

التمهيد : معنى الايمان بالكتب :

(هو التصديق الجازم بأن لله كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله وهي من كلامه حقيقة ، وأنها نور وهدى وأن ما تضمنته حق وصدق ، ولا يعلم عددها إلا الله ، وأنه يجب الايمان بها اجمالاً الا ما ورد منها مفصلاً فإنه يجب الايمان بها على التفصيل) . (١)
المطلب الأول : وجوب الايمان بالكتب السماوية اجمالاً وتفصيلاً :
أما الفصلة فهي صحف ابراهيم ، وصحف موسى ، وأربعة كتب هي (توراة موسى وزبور داود وانجيل عيسى وفرقان محمد عليهم السلام .

قال تعالى :

(٢)

” إِن هَذَا نَبِيُّ الْأَوَّلِ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾ “

وقال تعالى :

” إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا الَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَجْبَارُ إِنَّا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ “ (٣)

وقال تعالى :

” وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَايَاتِنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ “ (٤)

(١) الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية / عبد العزيز

المحمد السلطان ص ٢٥-٢٦ .

(٢) سورة الأعلى آية ١٨-١٩ .

(٣) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٤) سورة الاسراء آية ٥٥ .

وقال تعالى :

(١) ” ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ”

وقال سبحانه مخاطبا رسوله محمدا :

(٢) ” وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ”

وقوله تعالى :

(٣)

” ﴿١﴾ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ”

وأما المجلة فقد وجب الايمان بها باجمالها بدون معرفة أسماؤها

ولا أسماء من أنزلت عليهم من منطلق قوله تعالى :

(٤) ” لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ”

وقوله تعالى :

” كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ” (٥)

يقول شارح الطحاوية : (وأما الايمان بالكتب المنزلة على

المرسلين ، فنوّه من بما سعى الله تعالى منها في كتابه ، من التوراة

والانجيل والزبور ، ونوّه من بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها

على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى .

(١) سورة الحديد آية ٢٧ .

(٢) سورة المائدة آية ٤٨ .

(٣) سورة غافر آية ٢-١ .

(٤) سورة الحديد آية ٢٥ .

(٥) سورة البقرة آية ٢١٣ .

وأما الايمان بالقرآن ، فالإقرار به ، واتباع ما فيه ، وذلك أمر زائد على الايمان بغيره من الكتب (١) . فالايان بالكتب السماوية الالهية واجب شرعا وعقلا .

المطلب الثاني : وجوب الايمان بها شرعا وعقلا

أما شرعا : فقد قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا " (٢)

فهذه الآية كافية في الدلالة على وجوب الايمان بكتب الله عامة ،

وبالقرآن الكريم خاصة ، وفي تحريم التكذيب بها ، كما هو واضح فسي

سورة غافر حيث قال سبحانه في تقرير انزال القرآن :

" نَزَّلْنَا الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَرَبِيَّةَ الْعَلِيَّةِ " (٣)

يقول الامام ابن كثير (أى تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله (٤)

ذى العزة والعلم فلا يرام جنابه ولا يخفى عليه الذر وان تكاثف حجاباه) .

كما يقول صاحب كتاب التحرير والتنوير هي : (فاتحة أنيقة في التنويه

بالقرآن جعلت مقدمة لهذه السورة لان القرآن جامع لما حوته وغيره

من أصول الدين ، و " تنزيل " : مصدر نزل المضاعف وهو شعر بأنه

أنزله منجما ، واختيار هذه الصيغة هنا للرد على الطاعنين لأنهم من جملة

ما تعللوا به قولهم :

(٥)

" لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً "

(١) شرح العقيدة الطحاوية / ابن ابي العز الحنفي ص ٢٨٥-٢٨٦ .

(٢) سورة النساء آية ١٣٦ .

(٣) سورة غافر آية ٢ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٦٩ .

(٥) سورة الفرقان آية ٣٢ .

والتعريف في الكتاب " للعهد " وهو القرآن المعهود بينهم عند كل تذكير وكل مجادلة (فهو ليس منقولاً ولا ما يجوز أن يكذب به) (١)

وأجرى على اسم الجلالة الوصف بـ " العزيز ، العليم " .

أ - (للايمان الى أن ما ينزل منه يأتي على ما يناسب الصفتين ،

فكتابه عزيز ، قال تعالى : (٢)

” وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ ”

أى القرآن ، عزيز غالب بالحجة لمن كذب به ، وغالب بالفضل لما سواه من الكتب من حيث أن الغلبة تستلزم التفضل والتفوق ، وغالب لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه .

ب - كما هو تعريض بأن منكرى تنزيل الكتاب مغلومون مقهورون وبأن

الله يعلم ما تكنه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك .

ج - وهو رمز الى أن القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على

مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله .

د - وفي ذكره رمز الى أن الله أعلم حيث يجعل رسالته وأنه لا يجارى

أهواء الناس فيمن يرشحونه لذلك من كبرائهم :

(٣) (٤)
” وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ” (

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٩٠ .

(٢) سورة فصلت آية ٤١ .

(٣) سورة الزخرف آية ٣١ .

(٤) التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٣١٤ ،

ج ٢٤ ص ٧٩ .

ومن هنا كان التشديد على من كذب بعد ذلك بالقرآن وبما سبقه من كتب كما تذكر آيات سورة غافر

(١)

” الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ”

(فالكتاب هو القرآن ، وعطف * وبما أرسلنا به رسلنا * يجوز أن يكون على أصل العطف مقتضاها المغايرة ، فيكون المراد : وما أرسلنا به رسلنا من الكتب قبل نزول القرآن فيكون تكذيبهم ما أرسلت به الرسل مراداً به تكذيبهم جميع الأديان كقوله تعالى :

” وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ ” (٢) (٣)

ولهذا أصل عند صاحب التفسير الكبير ، سبقه إليه صاحب الكشاف حين قال : ان المقصود بالكتاب : القرآن ، و* بما أرسلنا به رسلنا * من سائر الكتب . (٤)

يقول الامام الطبري عند تفسير هذه الآية (يقول تعالى ذكره : ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بكتاب الله وهو هذا القرآن ، وكذبوا أيضا مع تكذيبهم بكتاب الله بما أرسلنا به رسلنا من اخلاص العبادة لله والبرائة ما يعبدونه من الآلهة والانداد والاقرار بالبعث بعد الهات للشواب والعقاب ، فسوف يعلم هو* لا* حقيقة ما تخبرهم به يا محمد وصحة ما هم به اليوم مكذبون من هذا الكتاب حين تجعل الاغلال والسلاسل في أعناقهم في جهنم) . (٥)

-
- (١) سورة غافر آية ٧٠ .
(٢) سورة الانعام آية ٩١ .
(٣) انظر التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٢٠١ .
(٤) انظر الكشاف / الزمخشري ج ٣ ص ٤٣٦ ، التفسير الكبير / الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٨٧ .
(٥) تفسير الطبري ج ١٢ ص ٨٤ .

وأما عقلا ، فإن الرسول المبلغ عن الله شرائعه وأحكامه يحتاج غالبا في اثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة له على تلك الأمة التي أرسل اليها حتى يومئذ ، ويصدقوه ، ويتبعوه ويمطوا بما جاءهم به ، وقبل ذلك هو محتاج إلى معجزة لاثبات رسالته .

ومن هنا كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مبنية على دلالة معجزة القرآن ولا أدل على ذلك من سورة غافر والتي هي من أولها إلى آخرها مبنية على لزوم حجة القرآن ، والتنبؤ على معجزته وذلك يتضح فيما يلي :

أولا : قوله تعالى :

﴿ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْمُنِيرِ ﴾ (١)

فبعد أن قرر سبحانه تنزيل الكتاب - القرآن - دلال على أن الجدل في تنزيهه كفر والحاد .

ثانيا : قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ (٢)

فلولا أنه برهان قاهر لم يذم الكفار على العدول عنه ، ولم يحمد المؤمنون على التصير إليه .

ثالثا : قوله تعالى :

﴿ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (٣)

(١) سورة غافر آية ١-٢ .

(٢) سورة غافر آية ٧-٩ .

(٣) سورة غافر آية ١٥ .

فجعل القرآن والوحي به كالروح ، لأنه يورث الحياة الأبد ،
ولأنه لا فائدة للجسد من دون الروح ، فجعل هذا الروح سببا للانذار ،
وعلمنا عليه ، وطريقا إليه ، ولولا أن ذلك برهان بنفسه لم يصح أن يقع
به الانذار والاخبار عما يقع عند مخالفته ، ولم يكن الخبر عن الواقع فسي
الآخرة عن ردهم دلالة من الوعيد حجة ولا معلوما صدقه ، فكان لا يلزمهم
قوله .

رابعا - قوله تعالى :

” أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ (١)

ضرب المثل بمن خالف الآيات وجحد الدلالات والمعجزات ، ثم
بين أن عاقبتهم صارت إلى السوأى لأن رسالتهم كانت تأتيهم
بالبينات ، وكانوا لا يقبلونها منهم ، فعلم أن ما قدم ذكره في
السورة بينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

خامسا - قوله تعالى :

” أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُضَرِّفُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ
وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رَسُولًا فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ (٢)

بيان عاقبة الذين يجادلون في آيات الله ومن حطه آياته هذا
الكتاب . (٣)

(١) سورة غافر آية ٢١-٢٢ .

(٢) سورة غافر آية ٦٩ - ٧٦ .

(٣) انظر اعجاز القرآن / الباقلائي ص ١٠-١١ .

المطلب الثالث : اتفاق هذه الكتب السماوية في الأصول .

إن كل هذه الكتب حق من الحق تبارك وتعالى موافق بعضها بعضاً ، لا تناقض ولا اختلاف بينها في الأسس والأصول التي تجمع وحدة الدين ، فيجب أن نؤمن من بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنسور والهدى وتوحيد الله سبحانه في ربوبيته والوحيته وأسمائه وصفاته ، وأن ما نسب اليها ما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وضعهم ، قال تعالى عن القرآن الكريم كما يحكيه لنا شيخ الاسلام رحمه الله :
(الحمد لله . . الذي أنزل الكتاب تفصيلاً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى

للمسلمين : ” مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقًا لِّذِي بَيْنِ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ” (١) (٢)

كما قال تعالى عن الانجيل قبله :

” وَأَيُّهَا الْإِنجِيلُ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى

وَمَوْعِظَةً لِّلَّتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ” (٣)

كما قال سبحانه عن التوراة قبلهما :

” إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ” (٤)

يقول شارح الطحاوية (فعلينا الايمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله ، وأنها حق وهدى ونور وبیان وشفاء) . (٥)

(١) سورة يوسف آية ١١١ .

(٢) فتاوى شيخ الاسلام ج ٣ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٣) سورة المائدة آية ٤٦ .

(٤) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٥) ابن أبي العز الحنفي ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

وهذا ما تقرره سورة غافر في قوله تعالى :

” وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى هَدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ۗ هُدًى وَبُورًا
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ ” (١)

ويقول الامام الطبري إن الهدى : (ما آتاه الله من البيان
للحق) (٢) والذي فسره القرطبي بأن المقصود به : (التوراة والنبوة) (٣)

وهذا ما ذهب اليه صاحب التفسير الكبير حين قال أن المراد بالهدى
(يجوز أن يكون انزال التوراة عليه ، ويجوز أن يكون المراد هو النبوة
التي هي أعظم المناصب الانسانية) (٤) بل ذهب إلى أعم من ذلك حين
قال إن المراد بالهدى (يجوز أن يكون ما آتاه الله من العلوم الكثيرة
النافعة في الدنيا والآخرة) (٥)

وما نراه أن المقصود بالهدى هنا هو التوراة ، سميت بذلك لما
فيها من هدى ونور لقوله تعالى :

” إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ” (٦)

وهذا ما أورثه بني اسرائيل كما تحكى الآية :

” وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ” (٧)

(أى التوراة فعلناها هوها) (٨) (تذكيراً لأهل العقول الصحيحة

-
- (١) سورة غافر آية ٥٣ - ٥٤ .
(٢) تفسير الطبري ج ١٢ ص ٧٦ .
(٣) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٢٣ .
(٤) انظر الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٧٧ .
(٥) المرجع السابق ج ٢٧ ص ٧٧ .
(٦) سورة المائدة آية ٤٤ .
(٧) سورة غافر آية ٥٣ .
(٨) انظر تفسير الطبري ج ١٢ ص ٧٦ ، تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٢٣ ،
الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٤٣٦ .

(١) السليمة .

(والفرق بين الهدى والذكرى : ان الهدى ما يكون دليلا
على الشيء ، وليس من شرطه أن يذكر شيئا كان معلوما ثم صار منسيا
وأما الذكرى فهي الذي يكون كذلك فكتب * أنبيا * الله مشتقة على
هذين القسمين . بعضها دلائل في نفسها وبعضها مذكرات لما ورد في
الكتب الالهية المتقدمة) (٢)

(١) انظر تفسير الطبري ج ١٢ ص ٧٦ ، تفسير القرآن العظيم / ابن

كثير ج ٤ ص ٨٤ .

(٢) التفسير الكبير / الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٧٧ .

المبحث الخامس :

الإيمان بالرسول .

وفيه تمهيد ومطلبان :

التمهيد : معنى الإيمان بالرسول .

المطلب الأول : عدد الأنبياء والرسول .

المطلب الثاني : بعض وظائف الرسول عليهم السلام .

البحث الخامس

الايان بالرسل

تمهيد : في معنى الايمان بالرسل :
من أركان العقيدة الاسلامية الايمان بجميع الانبياء والرسل عليهم السلام ، والايان بجميع ما أنزل عليهم ، قال تعالى :

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (١)

والقاعدة العامة في ذلك : أن نؤمن بان الله قد أرسل رسلا
سماهم بأسمائهم في كتابه الكريم ، أو أخبرنا بهم رسوله الأمين (٢)
فهو لا يجوز أن نكذب بهم ، ولا حتى بواحد منهم ، لأن الكفر برسول

(١) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

(٢) هناك أنبياء عرفناهم من السنة فقط وهم :

(أ) - شيبه ، يقول ابن كثير في البداية والنهاية ج١ ص ٩٩
" وكان نبيا بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن
أبي ذر مرفوعا أنه أنزل عليه خمسون صحيفة (انظر الاحسان بترتيب
صحيح ابن حبان ج١ حيث أخرجه هناك مطولا في كتاب البر
والاحسان باب ما جاء في الطاعات وثوابها ، حديث رقم ٣٦٢ ،
ص ٢٨٧ - ٢٨٩ .

واحد كفر بجميع الرسل ، قال تعالى :

” إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (۱۵۰) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (۱)“

ولأن الايمان بواحد منهم يعني الايمان بجميع الانبياء والرسل الصادقين ،
فموجب الايمان بالكل واحد .

=== (ب) - يوشع بن نون : يقول ابن كثير في البداية والنهاية ج ۱
ص ۳۲۳ ، قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر بن همام
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غزا نبي
من الانبياء فقال لقومه لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو
يريد أن يجني بها ولما يجين ، ولا آخر قد بنى بنيانا ولم يرفع
سقفها ، ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها ،
فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريبا من ذلك فقال
للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علي شيئا فحبت
عليه حتى فتح الله عليه (أخرجه البخاري بنحوه ج ۶ كتاب
فرض الخمس باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ” أحلت لكم
الغنائم ” حديث رقم ۳۱۲۴ ص ۲۲۰ ، وفي ج ۹ مختصر في كتاب
النكاح باب من أحب البناء قبل الغزو حديث رقم ۵۱۵۷ ص ۲۲۳ ،
وأخرجه مسلم بلفظه ج ۱۲ كتاب الجهاد باب تحليل الغنائم
لهذه الأمة خاصة ص ۵۲ ، وأخرجه الامام أحمد بلفظه ج ۲ ص ۳۱۸)
وقد أورد ابن كثير في نفس الصفحة أن هذا النبي هو يوشع بن
نون حين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ” إن الشمس
لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس) ، أخرجه
الامام أحمد ج ۲ ص ۳۲۵ .
(۱) سورة النساء آية ۱۵۰ - ۱۵۱ .

وفي الوقت نفسه نوّه من بأن لله رسلاً وأنبياء لا نعلمهم (أما من شكك في نبوتهم كذى القرنين وتبع فالأفضل أن نتوقف في اثبات النبوة لهما لأنه صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما أدري تبع أنبياء كان أم لا، وما أدري إذا القرنين أنبياء كان أم لا) (١) (٢) .

وقد كان لسورة غافر اشارات جانبية أحيانا وأساسية أحيانا أخرى والتي تتضح في المطالب الآتية :

المطلب الأول : حول عدد الانبياء والرسل عليهم السلام .

المطلب الثاني : بعض جوانب من وظائف الرسل عليهم السلام .

أما بالنسبة للمطلب الأول في السورة حول هذا الموضوع فقد قال تعالى

فيه : ” وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ ﴿٧٨﴾ ” (٣)

فما لا شك فيه أنه (لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبث

(١) أخرجه الحاكم كتاب الايمان باب ” تبع وذا القرنين كانا نبيين أم لا ”

ج ١ ص ٣٦ ، وقال عنه صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

وأخرجه البيهقي كتاب الأشربة والحد فيها باب الحدود والكفارات

ج ٨ ص ٣٢٩ .

(٢) انظر الرسل والرسالات د . عمر سليمان الأشقر ص ٢١-٢٤ .

(٣) سورة غافر آية ٧٨ .

على التفضيل إلا من جهتهم ، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم ،
فالطيب من الاعمال والاقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به ، فهم
الميزان الراجح الذى على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الاقوال
والأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال^(١)
لذا كثر عددهم وكثر انتشارهم بين الأمم ، قال تعالى :

” وَإِنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِيَّاخْلَافِيهَا نَذِيرٌ ”^(٢)

ولقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الكثرة كما رواه أحمد
في مسنده عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال :
ثلاثمائة وبضعة عشر جا غيبرا^(٣) . وفي رواية أبي أمامة ، قال أبو ذر
قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعمائة
وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جا غيبرا^(٤) ،
ونحن لا نعرف من هذا العدد الكبير والجم الغفير إلا من صح لنا
بأسمائهم القرآن ، وهم خمسة وعشرين نبيا ورسولا ، والقاعدة فيها قوله
تعالى :

” وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ”^(٥)

وقال :

” وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ”^(٦)

أما من ققصصهم علينا القرآن فهم خمسة وعشرون رسولا ورد ذكر ثمانية
عشر منهم في موضع واحد من سورة الأنعام .

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد / محمد بن أبي بكر بن قيم

الجوزية ج ١ ص ١٥ .

(٢) سورة فاطر آية ٢٤ .

(٣) مسند الامام أحمد ج ٥ ص ١٧٨-١٧٩ .

(٤) مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٦٥-٢٦٦ . وقال صاحب الفتح الرباني معلقا :
(هذا الحديث أورده البهشمي في مجمع الزوائد في باب السؤال للانتفاع وإن كثر من
كتاب العلم ، وقال : رواه أحمد والطبراني في الكبير ومداره على علي بن يزيد وهو
ضعيف) كما ذكر صاحب الفتح الرباني تضعيف ابن كثير لبعض رجاله وكذلك الحافظ
في التقریب (انظر باب ما جاء في أبي ذر الغفارى رضى الله عنه وقصة أسلامه ٣٧٢/٢٢) .

(٥) سورة غافر آية ٧٨ .

(٦) سورة النساء آية ١٦٤ .

قال تعالى: "وَلِلَّهِ جُنُودًا أَلْفَيْنَا بِإِِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٦﴾
 وَوَهَبْنَا لِمُوسَىٰ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ
 وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَزَكَرِيَّا
 وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَىٰ سَكُلٌ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَأُوْدًا
 وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾" (١)

وورد ذكر السبعة الباقين في مواضع متفرقة من القرآن ، قال تعالى :

(٢)
 "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ"

وقال :

(٥) (٤) (٣)
 (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) ، (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) ، (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

(٦) (٧)
 "وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٤﴾" محمد رسول الله ،

وقد أشارت سورة غافر إلى خمسة منهم وهم :

نوح عليه السلام ، هود عليه السلام ، صالح عليه السلام ، يوسف عليه السلام ،
 موسى عليه السلام .

(١) أما نوح ، فهو النبي الرابع من ذكروا بعد آدم عليه السلام ،

قال تعالى: "إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ
 وَأَطِيعُوا" (٨)

-
- (١) سورة الانعام آية ٨٣ - ٨٦ .
 - (٢) سورة آل عمران آية ٣٣ .
 - (٣) سورة هود آية ٥٠ .
 - (٤) سورة هود آية ٦١ .
 - (٥) سورة هود آية ٨٤ .
 - (٦) سورة الانبياء آية ٨٥ .
 - (٧) سورة الفتح آية ٢٩ .
 - (٨) سورة نوح آية ١ - ٣ .

وهو أول الرسل كما في حديث الشفاعة عن أبي هريرة " يا نوح أنت أول الرسل في الأرض " (١) وقد أرسل إلى قوم عكفوا على عبادة غير الله تعالى ، واتخذوا لهم أصناما يعبدونها من دونه ، ليدعوهم إلى توحيد الله ، لكنهم قوم يقودهم الكبر ، وما كان منهم إلا التكذيب والاحتقار له وللمن اتبعه ، بالرغم من أنه بذل معهم منتهى وسعه ، واجتهد بفاية إمكانه أن يتبعه قومه في الإيمان بالله ، والاقلاع عن عبادة تلك الأصنام . وعندما يبش من إيمانهم توجه إلى ربه بالدعاء عليهم ، فأمره الله تعالى بعمل الفلك لتكون أداة نجاته ومن معه من الغرق ، فلما أتم نوح عدته ورأى الأمانة التي بينه وبين ربه على ابتداء أمر الطوفان دخل السفينة وأهله إلا ابنة ، ومن كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين ، فلما استوا على ظهر السفينة حلت عزاليها السماء ، وانفجرت عيون الأرض وغرق كل ما عليها من انسان وحيوان ، وخرج من كان في السفينة ، وبارك الله فيهم ، فكثروا وملأوا الأرض ، قال تعالى :

” حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَاءٌ آمِنٌ مَّعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ “ (٢) (٣)

وقال :

” قِيلَ لِنُوحٍ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّن مَّعَكَ وَأُمٌّ سَمَّتْهُمُ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ “ (٤) (٥)

(١) أخرجه البخارى في صحيحه مطولا ج٤ كتاب الانبياء باب ٣ قول

الله عزوجل " ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه " ص ١٠٥-١٠٦ .

(٢) عزاليها جمع عزلا ، ويقال : ارسلت السماء عزاليها : انهضت بالمطر ، وأرخت الدنيا عزاليها : كثر نعيمها (انظر المعجم الوسيط ٦٠٥/٢) .

(٣) سورة هود آية ٤٥ . (٤) سورة هود آية ٤٨ .

(٥) انظر قصص الانبياء / النيسابورى ص ٤٥ ، قصص الانبياء / ابن

كثير تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ص ٦٤-٨١ ، قصص الانبياء /

عبد الوهاب النجار ص ٣٠-٣٦ .

(٢) هود عليه السلام :

هو رسول من رب العالمين ، أرسله الى قبيلة عاد ليبلغهم رسالة

ربه : **وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾** قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ، (١)

وقد كان قومه أهل زرع و وضع ، عمروا البلاد وأذلوا العباد ، اتخذوا لهم أوثانا يعبدونها من دون الله ، قال تعالى على لسان هود عليه السلام :

”أَنْتُمْ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ تَبِطْشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾“ (٢)

انذار وترهيب تارة وتذكير وترغيب تارة أخرى ، الا أن موقفهم لم يكن بأحسن من موقف غيرهم ، فقد كذبوه ، بل اتهموه في عقله ، فحذرهم هود عليه السلام بأنهم اذا تولوا معرضين عن قوله ، فانه قد قام بواجبه الذي كلف به من ربه ، وأن الله سيبيدهم ويستخلف قوما غيرهم ، ولكنهم ظلوا على عتوهم وعصيانهم وتكذيبهم وجحدهم آيات ربهم ، فما كان من الله الا أن أرسل عليهم الريح العقيم ، سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام

(١) سورة الاعراف آية ٦٥ - ٦٨ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٢٨ - ١٣٤ .

حسوما ، فأهلكهم الله وأبادهم ، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل

منقعر ، ونجى الله هودا والذين آمنوا معه قال تعالى :

” فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ
هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مُمِيسَاتٍ
لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٦﴾ ” (١) ، (٢)

(١) سورة فصلت آية ١٥ - ١٦ .

(٢) انظر قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ص ٤٧ - ٥٥ ، تاريخ

الأنبياء ، محمد الطيب النجار ص ٨١ - ٨٢ ، الأنبياء في القرآن ،

سعد صادق محمد ص ٧٩ - ٨٢ .

٣ - صالح عليه السلام :

كانت قبيلة ثمود تدين بعبادة الأصنام ، يشركونها مع الله في العبادة ، فأرسل الله إليهم صالحا واعظا ومذكرا لهم بنعم الله وآياته الدالة على توحيده ، وأنه لا شريك له ، وأقام لهم الأذلة القالعة والبينة الواضحة على ضلالهم في عبادتهم وعلى أن الله هو الذي يجب افراده بالعبادة دون سواه ، فأمن له المستضعفون من قومه ، وكفر الملا منهم كبرا وعنادا طالبين منه آية على صدقه ، فاتاهم بالناقذة وأمرهم ألا يسوها بسوء ، ويذروها تأكل في أرض الله ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، الا أن ذلك كبر عليهم ، فعتوا عن أمر ربهم وأجمعوا على عقرها ، ولما أرادوا تنفيذ عزمهم جاؤا الى صالح يرصدون الفرصة للايقاع به وأهله فأهلكهم الله ، وكان تدميرهم بالصاعقة ، وقد عبر الله تعالى عنها تارة بالرجفة ، وتارة بالطاغية ، وتارة بالصيحة ، أما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا ما حاق بقومهم من العذاب ، قال تعالى :

” كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ الْأَلْتَقُونَ ﴿١٥٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥٣﴾ فَانْقَبُوا إِلَى اللَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عِلًّا رَاتِ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَرْكَبُوا فِيهَا مُنَادًا ، آمِنِينَ ﴿١٥٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاهُنَا حُضِيمٌ ﴿١٥٨﴾ وَتَلْحَتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَ تَاْفَرِهِنَّ ﴿١٥٩﴾ فَانْقَبُوا إِلَى اللَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٦٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٦٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَافَةٌ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٦٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٦﴾ فَعَمَّرُوهَا فَأَصْحَابُ نَادِمِينَ ﴿١٦٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٩﴾ “ (١) (٢)

(١) سورة الشعراء آية ١٤١ - ١٥٩ .

(٢) انظر قصص الانبياء ، عبد الوهاب النجار ص ٥٨ - ٦٦ ، تاريخ

الانبياء ص ٩٠ - ٦ ، الانبياء في القرآن ص ٩١ - ١٠٣ .

٤ - يوسف عليه السلام :

هو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام ، كان نبيا يدعو الى دينه مبينا أن ذلك من تعاليم الهه ، بعد أن أعلن تركه ومجانبة مله الاقوام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، متعاملة آباءه ابراهيم واسحاق ويعقوب ، يقول تعالى علولسانه مبينا شناعة ما عليه أهل مصر من تعديد الالهة وتكثير الارباب ، وأن دينه - دين التوحيد -

هو الدين القيم ، ولكن الناس في غلظة عنه :

”إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السَّيِّدَةُ رَبُّهَا مِنْ مَنَفَرَةٍ تُؤْتِي خَيْرًا مِنْ اللَّهِ الْوَحِيدِ الْمُتَنَاهَاةِ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾“ (١) (٢)

(١) سورة يوسف آية ٣٧-٤٠.

(٢) انظر قصص الانبياء / عبد الوهاب النجار ص ١٢٠-١٤٠ ، تاريخ

الانبياء ، محمد الطيب النجار ص ١٣٣-١٦٩.

٥ - موسى عليه السلام :

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازرين لاوى بن يعقوب بن

ابراهيم عليهم السلام ، أرسله الله الى فرعون وملئه ، قال تعالى :

”وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِذْ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ
الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾“ (١)

وقام بأمر الرسالة خير قيام ، فذهب الى فرعون وأدى مقالتة بواسطة

هارون ، إلا أن فرعون كان رجلاً عاتياً تدين الأمة المصرية بعبادته ،

وتذعن بقداسته ، ففوجي من موسى بأمر لا يقره ولا يرضاه وهو محاولة

انزاله عن عرش الربوبية ، وأخذ على اثر ذلك يحاور موسى فعلم

موسى عدم ارعوا فرعون عن غيه وتماديه في ادعاء الربوبية وأنه مكذب لامحالة ،

بعد كل البيئات والدلائل على صدق دعوته ، ومع ذلك فقد الح عليه

وملأه بالدعوة الى الايمان بالله تعالى ، فكانت عصاراة تلك الدعوة كلها أن

فريقا من بني اسرائيل قد آمنوا له ، ولما لم ينفذ العلاج مع فرعون ، أمر

الله موسى أن يتخذ لبني اسرائيل بيوتا للعبادة في مصر ويقم فيها

الصلاة لله تعالى ، قال تعالى : ”فَأْمُرْ أُمَّةً مِّنْ لُّؤُسَىٰ إِلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ

وَمَلَأْنَاهُمْ أَن يَفْنَنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ

يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ

تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن نَّبِّئِ الْقَوْمِ أَنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٥٧﴾

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾“ (٢)

(١) سورة مريم آية ٥١ - ٥٣

(٢) سورة يونس آية ٨٣ - ٨٧

إِلَّا أَنْ فَرَعُونَ خَافَ مِنْ تَرْكِ مُوسَى يَفْسُدُ فِي الْأَرْضِ عَلَى حَسْبِ زَعْمِهِ فَخَلَصَ هُوَ وَمُلَاؤُهُ إِلَى الْإِثْتِمَارِ بِهِ وَقَتْلِهِ ، وَلَمَّا كَانَ الْحَقُّ لَا يَعْدُمُ نَصِيرًا ، قَامَ رَجُلٌ - مَوْءُودٌ مِنْ آلِ فَرَعُونَ - يَدَافِعُ عَنِ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُمْ هَمُّوا بِهِ كَمَا هَمُّوا بِمُوسَى فَوَقَاهُ اللَّهُ سَوْءَ عَمَلِهِمْ وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ السَّعَادَةُ وَعَاقِبَةُ آلِ فَرَعُونَ النَّارُ بَعْدَ اسْتِمْرَارِهِمْ فِي الْإِعْنَاتِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَمَادِيهِمْ فِي الْكُذْبِ وَرُدِّهِمْ لِكُلِّ آيَاتِهِ وَاتِّهَامِهِ بِالسَّحْرِ ، فَكَانَتْ الْبَطْشَةُ الْعَظِيمُ بِهِمْ وَهِيَ إِغْرَاقُ فَرَعُونَ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْيَمِّ وَنَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ تَعَالَى :

” وَقَدْ جَاءَ آلَ فَرَعُونَ النَّذْرُ ﴿١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَا لَهُمْ أَخْذَ عَزَابٍ مُنْقَذِينَ ﴿٢﴾ “ (١)

وهنا انطلق موسى بقومه بني اسرائيل من أرض مصر ذاهبا الى فلسطين وفي خلال ذلك حنوا الى وثنياتهم فطلبوا من موسى وقد مروا على قوم يعبدون الأصنام - أن يتخذ لهم الهة كما لهو لاه القوم آلهة ، فكان جواب موسى لهم تجهيلا ولوما على طلبهم الهة سوى الله بعد كل ما حدث ، وهنا أوصى الله موسى أن يصعد الى الجبل ويكث فيه أربعين ليلة ، حتى اذا أتتها أعطاه الله الواحا وكتب له فيها الوصايا التي يأخذ بها بنو اسرائيل أنفسهم وأعقابهم من بعدهم الا أن ربه بلغه بأن قومه فتنوا عن دينهم وأن السامري أضلهم ، فرجع موسى الى قومه غضبان حزينا ، وأمرهم بالتوبة ، ومعداها أراد أن يدخل بهم أرض فلسطين لكنهم أبوا وقالوا لموسى :

” فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢﴾ “ (٢)

(١) سورة القمر آية ٤١-٤٢

(٢) سورة المائدة آية ٢٤

وحكم عليهم سبحانه بالتيه اربعين سنة واستمر موسى يكابد في معالجة
شئون بني اسرائيل ويسوس ذلك الشعب المشاغب وبأتيهم بالعجائب
محتلا صلفهم وطمعياتهم ولم يترك وسيلة من وسائل استرضائهم الا فعلها
وهم لا يزيدون الا عنادا ومخالفة عن أمره ، فأمره الله أن يذهب الس
جيل " نبو " وأن ينظر الى الأرض المقدسة ولا يدخلها وهناك مات
ودفن (١) .

أما كيف جاء ذكر اولئك الخمسة في السورة ، ولما اكتفت السورة بهم
فنقول وبالله التوفيق :

لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم الى قومه بالرسالة ،
لكنهم رفضوها وأصروا على كفرهم وجاءت السورة - كغيرها من السور المكية -
تتحدث عن الكافرين الذين يجادلون في آيات الله بغير حق ، والمفترين بما
هم عليه من قوة وسلطة ، وتضرب أمثلة بهم ، فتقص على الرسول قصتهم
والتي جاءت : ١ - مرة خطاباً من الله لنبيه مباشر في العرض بذكره يقوم
نوح خاصة ومن جاء بعدهم عامة .

٢ - وجاءت في الثانية من خلال القصة في السورة - قصة
موسى مع فرعون - على لسان مو من آل فرعون لقومه يذكرهم بقوم نوح وقوم هود
وقوم صالح ، ومن جاء بعدهم عامة ، والذين كان دأبهم الكفر والتكذيب ، وقد علل
صاحب كتاب " التحرير والتوير " تخصيصهم بالذكر فقال : (ان القبط كانوا
على علم بنا حل بقوم نوح وعاد وشود ، فأما قوم نوح فكان طوفانهم
مشهورا ، وأما عاد وشود فلقرّب بلادهم من البلاد المصرية وكان عظيما لا يخفى
على مجاورهم) . (٢)

(١) انظر القصص ، ابن كثير ص ٢٣٧-٣١٩ ، قصص الانبياء ، عبد الوهاب

النجار ص ١٥٥-٢٩٨ .

(٢) محمد الطاهر عاشور ج ٢٤ ص ١٣٥ .

ثم ورد ذكر يوسف عليه السلام على لسان ذلك المؤمن من (لتذكيرهم
بأنهم من ذرية قوم كذبوا يوسف لما جاءهم بالبينات، فتكذيب المرشدين
الى الحق شنشنة معروفة في أسلافهم فتكون سجية فيهم) (١).

هذه الأمثلة وردت كما قلنا من قبل العظة للمشركين في ذلك الوقت
خاصة، وأن الجميع مشتركون في :

(١) تكذيب الرسل ، (٢) المجادلة بالباطل ، (٣) التجاوز عن التكذيب
الى غاية الأذى من الهم بالقتل. ومن هنا جعلت أيامهم جميعاً يوماً
واحداً ، مع أن لكل حزب منهم ، يوماً خاصاً به ، وفي ذلك يقول صاحب
الظلال (ولكل حزب كان يوم ، ولكن الرجل المؤمن من يجمعها في يوم
واحد " مثل يوم الأحزاب " فهو اليوم الذي يتجلى فيه بأس الله
وهو يوم واحد في طبيعته على تفرق الأحزاب " . (٢)

(١) محمد الطاهر عاشور ج ٢٤ ص ١٣٨ .

(٢) انظر سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٨ .

المطلب الثاني : من وظائف الرسل عليهم السلام

أما المطلب الثاني الذي تعرضت له سورة غافر فقد ألفت فيه

الأضواء على بعض الجوانب من وظائف الرسل عليهم السلام ، قالت فيه :

ان الله سبحانه وتعالى هيا رسله ورباهم على عينه ، فكانوا رجالا موحدين :

” قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ “ (١)

موقنين أنهم يعطون بأمر من الله ، وأنه ليس لهم من الأمر شيء ، قال

تعالى :

” وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ فَخِصِرْ لَهُ نَفْسُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٧﴾ “ (٢)

متسلحين بالصبر والاستغفار والتسبيح فهو زادهم في الطريق ، قال

تعالى :

” فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٦٨﴾ “ (٣)

ثم بعد ذلك دعمهم بالبراهين والمعجزات ، قال تعالى :

” وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٦٩﴾ “ ، وقال : ” وَلَقَدْ جَاءَكَ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيْتِ ﴿٧٠﴾ “ (٤)

كل ذلك ليؤدوا الدور الذي كانوا من أجله رسلا ويقوموا بوظائفهم خير

قيام .

وقد وقفت بنا السورة أمام بعض تلك الوظائف وهي :

(١) سورة غافر آية ٦٦ .

(٢) سورة غافر آية ٧٨ .

(٣) سورة غافر آية ٥٥ .

(٤) سورة غافر آية ٢٣ .

(٥) سورة غافر آية ٣٤ .

١ - الدعوة الى الله :

فطر الله تعالى الانسان على فطرة الايمان بالله تعالى وتوحيده ،
يقول ابن القيم رحمه الله (ان الله لا يألف من الاعمال الا اطيبها وهي
الاعمال التي اجتمعت على حسنها الفطر السلية مع الشرائع النبوية
مثل ان يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)^(١) ، ولكن الانسان قد
تخدعه مظاهر ، أو تربوية ، أو ضلالات وخرافات ، فيؤثر من يمن لا يستحق
الايمان به من انسان أو حيوان أو مظهر من مظاهر الطبيعة أو أرض أو
دم أو كوكب أو نجم ، لأن العقل البشرى وحده في تصور عن ادراك المعرفة
المتصلة برب العالمين ، يقول صاحب كتاب تاريخ الانبياء (أما الغالبية
العظمى من الناس فلا يستطيعون وحدهم أن يهتدوا الى الحق ويعرفوا
الله ومن هنا كانت حاجة البشر الى من يعرفهم بربهم الذي يخلق
ويرزق ويحيى ويميت ، ويبصرهم بالطريق المستقيم ويرشدهم الى الحق
على هدى وبصيرة ، وتلك هي مهمة الانبياء والمرسلين ، فالانبياء
والمرسلون هم السفراء بين الله وبين عباده)^(٢) لأنه (اذا كنا
في العلم البشرى لا نأخذ الا عن مصادر يعول عليها ، ففي علم الغيب
لا ينبغي أن نأخذ الا عن يكون حق الحديث عن الله)^(٣) ، وفي
هذا المقام يقول الشيخ محمد عبده^(٤) (ان الله تعالى أخذ على

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ج ١ ص ٥١ .

(٢) محمد الطيب النجار ص ١٣-١٤ .

(٣) الله في العقيدة الاسلامية / احمد بهجت ص ٥٢ .

(٤) هو ابن خير الله مفتي الديار المصرية ، صاحب المصنفات الكثيرة

المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ (انظر ترجمته في : الاعلام للزركلي

نفسه ارسال الرسل رحمة بالناس ، اذ لو ترك الناس شأنهم ما عرفوا طريق الحق والشياطين تقعد لهم كل مرصد ، وقد ركب الله في الانسان القوة الشهوية التي تدفعه الى اللذة الجسدية اولذة جمع المال أو الجاه وركب فيه كذلك القوة الغضبية التي بها يظلم ويظفئ ، والصراع دائم ما دامت الحياة الا من عصم الله ، وقد جعل الله تعالى رسله وسيلة للتصير والهداية ، وطك مهتهم ، ومن ذلك نرى أن ارسال الرسل اقتضتـه الحكمة الالهية . (١)

فالفرض الأساسي اذا من بعثة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه منذ بزوغ فجر الرسالة الالهية من لدن نوح عليه السلام الى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو الدعوة لله تعالى والهداية اليه ، يقول صاحب كتاب الله في العقيدة الاسلامية (هدف الانبياء والرسل واحد - وهو هداية الناس الى الحق . . . واذا كان الله تعالى هو الحق ، فان هدف رسالات الرسل ودعاوى الانبياء هو الدعوة الى الله) (٢) لانه (وقبل أي شيء أراد سبحانه أن يعبد في الأرض كما عبد في السماء فقال سبحانه :

(٣) ” وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ “

من أجل هذه الحقيقة تكرر النداء للام أن تعبد الله وحده . (٤)

-
- (١) رسالة التوحيد ، تحقيق محمد أبو رية ص ٦٩ .
(٢) أحمد بهجت ص ٥١ .
(٣) سورة الذاريات آية ٥٦ .
(٤) سيرة نبي الهدى والرحمة / عبد السلام هاشم حافظ ص ١٧ .

فجاء على لسان أول رسول قوله تعالى :
”لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ“ (١)

كما جاء على لسان آخر رسول قوله تعالى :
”قُلْ إِنِّي بُهِتٌ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي
وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ“ (٢)

فلا تتفهم مهمة الرسل عند بيان الحق وإبلاغه ، بل عليهم دعوة الناس
إلى الأخذ بدعوتهم والاستجابة لها ، وتحقيقها في أنفسهم اعتقاداً
وقولاً وعملاً وهم في ذلك ينطلقون من منطلق واحد :

”وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَلِحُنَّ بِوَالطَّغُوتِ“ (٣)

وقد بذل الرسل في سبيل دعوة الناس إلى الله جهوداً عظيمة ، وحسبنا في
هذا أن نقرأ سيرة الأنبياء في القرآن الكريم كـ — فهو يوضح
الجهد الذي بذلوه على مدار حياتهم باستعمال أساليب الدعوة كلها
محاولين تفتيح العقول وتوجيهها إلى ما في الكون من آيات ، بهفض النظر
عن أعراضهم . (٤)

(١) سورة الاعراف آية ٥٩ .

(٢) سورة غافر آية ٦٦ .

(٣) سورة النحل آية ٣٦ .

(٤) الرسل والرسالات / عمر سليمان الأشقر ص ٤٥ .

٢ - الانذار والتبشير :

ما بُعِثَ الرسل الا لتقويم حياة الناس واصلاح معوجها والوصول بهم الى بر الأمان ، وهذا وسيلته التبشير والانذار (فأول الأمر فسي أصول وظيفة الرسل هو ، تحقيق كلمة " لا اله الا الله " ثم تبشير الناس بحسن العاقبة لمن يعمل منهم الصالحات وانذار الناس بسوء العاقبة لمن يكفر منهم بالله وبتشريعاته ، ويفسد في الأرض) (١)

ولوجود هذا الارتباط بين أصل وظيفتهم وبين التبشير والانذار فقد جعل القرآن مهمة الرسل أحيانا مقتصرة على هذا الجانب العام ،
فقال تعالى :

” وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ “ (٢)

وتبشير الرسل وانذارهم دنيوي وأخروي (لأنه كما أسلفنا لا سبيل الى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة الا على أيديهم ولا سبيل الى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل الا من جهتهم ولا ينال رضا الله البتة الا على أيديهم ، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس الا هديهم وما جاءوا به ، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال وبمتابعتهم يتميز

(١) الانبياء في القرآن / سعد صادق محمد ص ٢٨٠

(٢) سورة الكهف آية ٥٦

أهل الهدى من أهل الضلال (١) فهم في الدنيا يبشرون الطامعين
بالحياة الطيبة

”مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً“ (٢)

وقوله تعالى :

”مَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ“ (٣)

ويعدوتهم بالعز والتكين والامن :

”وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسخَرَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسخَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَيَمُكِّنْ لَكُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا“ (٤)

ويخوفون العصاة بالشقاء الدنيوي :

”وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا“ (٥)

ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي :

”فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ“ (٦)

وفي الآخرة يبشرون الطامعين بالجنة ونعيمها :

”وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ“ (٧)

ويخوفون المجرمين والعصاة عذاب الله في الآخرة :

”وَمَنْ يُعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ“ (٨) (٩)

-
- (١) زاد المعاد في هدى خير العباد ، ابن قيم الجوزية ج ١ ص ١٥ .
(٢) سورة النحل آية ٩٧ .
(٣) سورة طه آية ١٢٣ .
(٤) سورة النور آية ٥٥ .
(٥) سورة طه آية ١٢٤ .
(٦) سورة فصلت آية ١٣ .
(٧) سورة النساء آية ١٤ .
(٨) سورة النساء آية ١٤ .
(٩) الرسل والرسالات / عمر سليمان الأشقر ص ٤٧ .

ومن هنا (فقد جعل الله من حق البشرية اذا لم يبعث لهم الرسل ي
يبينون الحق من الباطل والحلال والحرام ، جعل من حقهم أن يطالبوه برفع
العذاب عنهم اذا ما انزلقوا الى الذنوب والآثام ، وذلك انجازا لوعده
حيث قال في محكم كتابه :

” وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿٥﴾ “ (١) (٢)

(١) سورة الاسراء آية ٥٠

(٢) تاريخ الانبياء / محمد الطيب النجار ص ١٨٠

٣ - إقامة الحجّة :

الأصل أن ارسال النبي رحمة (لأن الله لولم يرسل أنبياءه ورسله
لا لزم الناس حجة لسببين :

السبب الأول : أخذه العهد عليهم يوم خلق الخلق وهم ذرات في ظهر
أبيهم .

السبب الثاني : حديث الله الرحيم المستمر الى الناس ، وآياته في الكون
وفي أنفسهم . . ولو تأمل الانسان تنفسه فحسب . لو أدرك
أنه يعيش في كل نفس عالة على هواه خلقه الله . .
لو أدرك الانسان هذا لا أدرك أن الحجّة تلزمه دون ما
حاجة لارسال الرسل .

وهذه هي الفطرة ما لم تتلوث ، واذن - لا تفسير لارسال الانبياء
غير الرحمة . . محض كرم من الله ورحمته أنه أرسل أنبياءه ، ومحض كرم

من الله ورحمته أنه قضى القضاء الرحيم التالي :
(١) (٢)
” وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ “ (١)

لأنه لا أحد أحب اليه من الله تعالى ، فالله جل جلاله يقول :

” رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥﴾ “ (٣)

(١) سورة الاسراء آية ١٥ .

(٢) الله في العقيدة الاسلامية / أحمد بهجت ص ٥٢ .

(٣) سورة النساء آية ١٦٥ .

وقد أخبر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة أنه تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام حتى يبشروا من أطاع بخيرات طاعته ، وينذروا من خالف وكذب رسله بعقاب وعذاب ربه ، وذلك حتى لا يكون لمعتذر عذر يعتذره يوم القيامة ، يقول الامام ابن جرير (أرسل الله تعالى رسلاً الى عباده مبشرين ونذيرين لئلا يحتج من كفر به تعالى وعبد الاوثان والاعصام من دون الله ، أوضل عن سبيله ، بأن يقول إن أراد الله عقابه : يا رب لو أرسلت الينا رسولا في الدنيا كنا قد اتبعناه ، ومذلك قطع الله عز وجل عذر كل مبطل طمخ في توحيد الله تعالى وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة ، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه) (١) يقول سبحانه وتعالى في ذلك :

” وَأَنَا أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بَعْدَ أَنْ مَنَّ قَبْلَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ نَارِ سُلَيْمَانَ
فَتَّبِعُوا آيَاتِنَا مِن قَبْلُ أَنْ نَذَلَّكَ وَمَنْزِلِي (١٥) “ (٢)

فبين (لنا سبحانه وتعالى الحجة التي كانت تكون للناس عليه لو عذبهم دون انذارهم على السنة الرسل عليهم الصلاة والسلام) (٣) لذلك كانت القاعدة العامة :

(٤) ” وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) “

وهنا يظهر (كمال ربه و كمال حكته و علمه و عدله و رحمته فيعلم اعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين لا رسله البررة الصادقون) (٥)

-
- (١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٦ ص ٣٠ .
(٢) سورة طه آية ١٣٤ .
(٣) ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم / أبي السعود ، ج ١ ص ٢٥٦ .
(٤) سورة الاسراء آية ١٥ .
(٥) زاد المعاد في هدى خير العباد / ابن قيم الجوزية ج ١ ص ١٤ .

وتتمه لما سبق يقول ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال " لا أحد أغبر من الله ، من أجل ذلك حرم
الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ،
من أجل ذلك مدح نفسه ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك
أرسل رسله وأنزل كتبه " . (١)

(ولذلك فان الذين يرفضون اتباع الرسل ويعرضون عن هديهم

لا يملكون الا الاعتراف بظلمهم اذا وقع بهم العذاب في الدنيا :

" وَكَرِهْتُمَا مِنْ تَرْبِيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَا أَحْسُوا بِأَسْنَا
إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ
أَعْلَمُكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بُولِئْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَلَّ نَدُّكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى
جَعَلْتَهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ " (٢)

وفي يوم القيامة عندما يساقون الى مصيرهم الاسود الكئيب فيضجون
في النار بعد أن يحيط بهم العذاب من كل جانب ، ينادون ويصرخون ،
فيقول لهم خزنة النار :

" أَوَلَمْ يَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَاذْعَبُوا وَمَا ذَعَبُوا الْكَافِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ " (٣) (٤)

(١) صحيح البخارى ج ٨ كتاب التوحيد باب ٢٠ قول النبى

صلى الله عليه وسلم لا شخص أغبر من الله " ص ١٧٤ ، صحيح

سلم ج ٤ كتاب التوبة باب غيرة الله وتحريم الفواحش حديث

رقم ٣٥ ص ٢١١٤ .

(٢) سورة الانبياء آية ١١-١٥ .

(٣) سورة غافر آية ٥٠ .

(٤) انظر الرسل والرسالات / عمر سليمان الأشقر ٥٢-٥٣ .

المبحث السادس :

الإيمان باليوم الآخر .

وفيه تمهيد وأربعة مطالب :

- التمهيد : معنى الإيمان باليوم الآخر .
- المطلب الأول : بعض من أسماء ذلك اليوم .
- المطلب الثاني : بعض من مشاهد ذلك اليوم .
- المطلب الثالث : حياة البرزخ (عذاب القبر) .
- المطلب الرابع : جانب من الرد على منكري البعث .

المبحث السادس

الايان باليوم الآخر

تمهيد : معنى الايمان باليوم الآخر :
الايان باليوم الآخر هو : (الايمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله

عليه وسلم مما يكون بعد الموت ، من فتنة القبر وعذابه ونعيمه ، والبعث والحشر ، والنشر ، والصحف ، والميزان ، والحساب ، والصراف ، والحسوس ، والشفاعاة ، وأحوال الجنة والنار ، وما أعد الله لأهلها اجمالا وتفصيلا)^(١).

وقد اهتم القرآن الكريم اهتماما بالغا بتقرير حقيقة اليوم الآخر ، وما يكون فيه ، ثم ما يتبعه ، ودعم الايمان به في الطوب بوصفه ركنا من أركان العقيدة الاسلامية (مخاصة في الآيات المكية حيث نجد سورا أو آيات من سور تنفرد بالآخرة تعريفا بها وتعظيما لها ، تذكيرا وتقبيرا وترغيبا وترهيبا ، فلا تكاد سورة تخلو من الحديث عنه ، ولو في إشارة أو تلميح مع تقريبه الى الأذهان تارة بالحجة والبرهان ، وتارة بضرب الأمثال ، وكثيرا ما يتحدث عن الدنيا وكأنها ماضى كان ، والآخرى كأنها الحاضر الآن .

وينتقل الكلام فجأة من الوصف المجرد الى الحوار الفني فيخيل الى

السامع أن الشهيد حاضر بوجه فيه الخطاب ، وذلك للتأثير في النفوس) ،^(٢)

” وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّاحَةً إِذْ جَاءُواهَا وَهِيَ مُخْتَبَأَةٌ لَّهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بِأَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ ” ،^(٣)

(١) الأسئلة والأجوبة الأصولية / عبد العزيز محمد السلطان ص ٢٦١ .

(٢) عقيدة البعث في الاسلام ، التهامي انقرة ص ١٠٦ .

(٣) سورة الزمر آية ٧١ .

كما تجلى هذا في ربط الايمان باليوم الآخر بالايمان بالله ، وكثيرا ما يلاحظ هذا الربط في القرآن الكريم كقوله تعالى :

(١) ” لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ،

وقال أيضا :

(٢) ” إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّبِغِينَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ،

وفي خواتيم البقرة آية جامعة تجمل الأركان الخمسة ، قال تعالى :

(٣) ” ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) ”

والمصير الذي اختتمت به الآية هو صفة من صفات اليوم الآخر الكثيرة جدا والتي اشتهر بها حتى غدت أسماء وأعلاما ، والتي منها :
اليوم الآخر أو الحياة الآخرة ، ويوم القيامة ، ويوم الفصل ، ويوم الدين ، ويوم الحساب ، ويوم الجمع ، ويوم التغابن ، والساعة ، والفاشية ، والظامة ، والحاقة ، وكذا الواقعة ، والصاخة ، والغير ذلك من الأسماء والصفات الكثيرة ، يقول الامام القرطبي (٤) في ذلك (وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أساؤه . وهذا جميع كلام العرب ، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه ، وتأكد نفعه لديهم ، وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم ،

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٢) سورة البقرة آية ٦٢ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

(٤) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي ،

أبو عبد الله القرطبي ، الامام العالم الجليل ، الفقيه المفسر ، المحدث وكان من عباد الله الصالحين ، والعلماء الزاهدين فسي

وله نظائر . فالقيامة لما عظم أمرها ، وكثرت أهوالها ، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة (١) .
المطلب الأول : بعض من أسماء ذلك اليوم -
لقد كان لسورة غافر نصيب من هذه الأسماء والصفات ، أورد الامام القرطبي ثمانية منها في تذكرته وهي :

١ - يوم التلاق :

قال تعالى :

(٢)

”رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرٍ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾“

واللقاء (مقابلة الشيء ومصادفته معا وقد يعبر به عن كل واحد منهما ، يقال لَقِيَهُ يَلْقَاهُ لِقَاءً وَلُقِيًا وَلُقِيَةً ، ويقال ذلك في الادراك بالحس وبالبصر وبالبصيرة) (٣) .
ويوم التلاق : اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده . وقال ابن جريج : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يلتقي فيه آدم وآخر ولده ، وقيل : يلتقي فيه العباد ، وقيل : يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق وقيل يلتقي الظالم والمظلوم) (٤) .
المقصود به (لقاء الأموات بمن سبقهم الى الممات فيسألونهم عن أهل

====
الدينا ، المشتغلين بأمور الآخرة ، قال الذهبي * امام متقن

متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على امامته وكثرة اطلاعه ووفور عقله ، توفي سنة ٦٧١ هـ (انظر ترجمته في شذرات الذهب

٣٣٥ / ٥ ، طبقات المفسرين ٦٥ / ٢) .

(١) التذكرة / القرطبي ص ٢٦٠ .

(٢) سورة غافر آية ١٥ .

(٣) المفردات في غريب القرآن / الأصفهاني ص ٤٥٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٧٥ .

الدنيا ، وقيل لقاء الانسان بعمله (١) وقد يقال (ان يوم التلاق
يشمل هذا كله) (٢)

٢ - يوم الجزاء :

الجزاء : الغناء والكفاية ، والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة ان خيرا
فخير وان شرا فشر (٣) ، ومنه قوله تعالى :

”الْيَوْمَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)“ (٤)

فيخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير
ولا من شر ، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وبالسيئة واحدة ، ولهذا
قال تبارك وتعالى :

(٥) ”لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ“

٣ - يوم الآزفة :

الآزفة : (اسم من أسماء يوم القيامة ، وسميت بذلك لاقتربها ،

كما قال تعالى :

”أَرْزَفْتِ الْآزِفَةَ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨)“ (٦) (٧)

-
- (١) التذكرة / القرطبي ص ٢٧٧ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ٤ ص ٧٥ .
(٣) المفردات في غريب القرآن / الراغب الاصفهاني ص ٩٣ .
(٤) سورة غافر آية ١٧ .
(٥) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ٤ ص ٧٥ .
(٦) سورة النجم آية ٥٧-٥٨ .
(٧) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ٤ ص ٧٦ .

(ويقال أذف اعتبارا بضيق وقتها ، والأذف : ضيق الوقت ، وسميت به لقرب كونها ، وعلى ذلك عبر عنها بساعة) (١) يقول الامام القرطبي : (وهي قريبة جدا ، وكل آت قريب ، وما يستبعد الرجل من الساعة ومدتها ساعة) . (٢)

٤ - يوم الحساب :

قال تعالى :

” وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ “ (٣)

(ومعناه أن الباري يعدد على الخلق أعمالهم من احسان واساءة ، يعدد عليهم نعمه ، ثم يقابل البعض بالبعض ، فما يشف (٤) منها على الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشر) . (٥)

٥ - يوم التناد :

قال تعالى على لسان موء من آل فرعون :

” وَيَقُولُوا لِنَا عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ “ (٦)

-
- (١) المفردات / الراغب الأصفهاني ص ١٧٠
 - (٢) التذكرة / القرطبي ص ٢٧٧
 - (٣) سورة غافر آية ٢٧
 - (٤) الاشتقاق : شرب كل ما في الاناء والمقصود بقوله ” فما يشف منها “ أى ما يتبقى عليه بعد وزن الأعمال (انظر مختار الصحاح / الرازى ص ٣٤٢)
 - (٥) التذكرة / القرطبي ص ٢٥٦
 - (٦) سورة غافر آية ٣٢-٣٣

(والنَّدُّ بتخفيف الدال من النداء وتشديدها من نَدَّ اذا ذهب) (١) ،
أى يَنَدُّ بعضهم من بعض ، نحو : ” يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ” (٢) (٣) ،

وهو قوله تعالى : (يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ)

وهو الذهاب في غير قصد . (٤)

(وسمي بذلك كما قال بعضهم : لما جاء في حديث الصور أن الأرض اذا
زلزلت وانشقت من قطر الى قطر ، وماجت وارتجت ، فنظر الناس الى ذلك
ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا .

وقال آخرون : بل ذلك اذا جيء بجهنم ذهب الناس هرباً
منها ، فتلقاهم الملائكة فتردهم الى مقام المحشر ، وقيل : لأن الميزان
عنده ملك اذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته ألا قد سعد
فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وان خفعله نادى ألا قد شقى
فلان بن فلان وقيل : يُنَادَى كل قوم بأعمالهم ” ينادى أهل الجنة أهل
الجنة وأهل النار أهل النار .

وقيل : سمي بذلك لناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل
النار كما هو مذكور في سورة الأعراف ، واختار البيهقي (٥) وغيره أنه سمي
بذلك لمجموع ذلك ، وهو قول حسن جيد والله أعلم . (٦)

-
- (١) التذكرة / القرطبي ص ٢٦٩ .
(٢) سورة عبس آية ٣٤ .
(٣) المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص ٤٨٦ .
(٤) التذكرة / القرطبي ص ٢٦٩ .
(٥) هو ابراهيم بن هشام بن الحسين بن هاشم ابواسحاق المعروف
بالبيهقي والمتوفى سنة ٢٩٧ (انظر ترجمته في تاريخ بغداد
٢٧٣/٦) .
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٠ .

٦ - الساعة :

قال تعالى :

(١) ” وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ “

وقال :

(٢) ” إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنبِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَالنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ “

(و حقيقة الاطلاق فيها أن الساعة بالالف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أتت فيه ، وهو المسمى بالآن ، وسميت به القيامة .

إما لقربها : فان كل آت قريب .

وإما أن تكون سميت بها تنبيها على ما فيها من الكائنات العظام

التي تصهر الجلود وتكسر العظام .

وقيل انها سميت بالساعة لانها تأتي بغتة في ساعة ، الى غير

(٣)

ذلك من الاقوال) .

٧ - يوم يقوم الأشهاد يوم الشهادة :

قال تعالى :

(٤) ” إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ “

وهذه الشهادة على أنواع :

الأول : شهادة محمد وأمه تحقيقا لشهادة الرسل على أقوامها .

(١) سورة غافر آية ٦٤ .

(٢) سورة غافر آية ٥٩ .

(٣) انظر التذكرة / القرطبي ص ٢٦٢ .

(٤) سورة غافر آية ٥١ .

الثاني : شهادة الأرض والأيام والليالي بما عمل فيها وعليها .

الثالث : شهادة الجوارح .

الرابع : شهادة الأمم بعضها على بعض (١) .

٨ - " يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم " :

قال تعالى :

(٢) "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَأُولَئِكَ فِي الدَّارِ الْكَافِرَةِ" (٣)

وإن أذن لهم بأن يمكنوا منها - أي المعذرة - لا بأن يقال لهم اعتذروا

لقوله : " رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا " (٤)

وقوله : " رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا " (٥)

(٦) وقال ابن كثير المقصود بهم المشركون .

ويشير الامام القرطبي الى أن هناك أسماء أخر لم يتعرض لها

حين قال (ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكرنا ، بحسب الأحوال

الكائنة فيه من الازدهار والتضايق واختلاف الأقدام والخزي والهوان

والذل والافتقار والصغار والانكسار ويوم الميقات والمرصاد ، الى غير

ذلك من الأسماء) (٧)

(١) التذكرة / للقرطبي ص ٢٧٣ .

(٢) سورة غافر آية ٥٢ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٦٧ .

(٤) سورة المؤمنون آية ١٠٧ .

(٥) التذكرة / القرطبي ص ٢٨١ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٨٥ .

(٧) التذكرة / القرطبي ص ٢٨٣ .

وقد أشارت سورة غافر الى بعض منها :

كيوم البروز :

” وَالْبَرَّازَ الْفُضَاءَ ، وَبَرَزَ : حصل في برّاز ، وذلك إما أن يظهر بذات ، وإما أن ينكشف عنه ما كان مستورا منه ^(١) ، ومنه قوله تعالى :
” يَوْمَهُمْ بُرُوزٌ لَا يُخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُم شَيْءٌ لِّمَن الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ^(٢) “

أى ظاهرون بادون كلهم ، لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يسترهم . ^(٣)

ودار القرار :

قرّفي مكانه يقر قرارا : اذا ثبت ثبوتا جامدا ، وأصله : من القر وهو البرد ، وهو يقتضي السكون ^(٤) ومنه قوله تعالى على لسان مؤمن من آل فرعون :

” يَتَوَمَّرُونَ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ^(٥) “

والدار الآخرة :

(وأخر : يقابل به الأول ، ويُعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية

كما يُعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى نحو :

” وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ^(٦) “

وربما ترك ذكر الدار ^(٧) نحو قوله :

” لَأَجْرَةً أَمَّا نَدْعُونَِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ^(٨) “

-
- (١) المفردات في غريب القرآن / الراغب الاصفهاني ص ٤٣ .
 - (٢) سورة غافر آية ١٦ .
 - (٣) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ٤ ص ٧٥ .
 - (٤) المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص ٣٩٧ .
 - (٥) سورة غافر آية ٣٩ .
 - (٦) سورة العنكبوت آية ٦٤ .
 - (٧) المفردات / الاصفهاني ص ١٣ .
 - (٨) سورة غافر آية ٤٣ .

المطلب الثالث : بعض من مشاهد ذلك اليوم

(لقد عني القرآن بمشاهد اليوم الآخر ، فلم يعد ذلك العالم الذي وعده الناس بعد هذا العالم موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً وحياً متحركاً ورازماً شاخصاً ، وعاش المسلمون فيه ، فرأوا مشاهدته ، وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم أخرى ، وسرى فسي نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الالغثنان أخرى ، ولفحهم من النار شواظاً ، ورف اليهم من الجنة نسيم ، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم قبل اليوم الموعود وقد أضحى لديهم واضحاً وضوح العقيدة الإسلامية : موت وبعث ونعيم وعذاب ، لأن هذه الحقيقة الواضحة يعرضها القرآن في صورته وترتسم في عالم حافل بالمشاهد المنتزعة من عالم الأحياء ، وتتراهى في عديد الألوان والأشكال والسمات : فتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة ، تتلاها النفس ، ويتابعها الخيال ويستغرق فيها الحس . (١)

فعل القرآن الكريم كل ذلك لأنه أراد أن يؤكّد في أذهان البشر حقيقة واقعة عن الجنة وسعها ونعيمها وأحوالها وعن النار وعذابها وشدتها وأحوالها ، حتى يتسنى للإنسان أن يقف على صورة قريبة من ذلك ، وللإنسان أن يتصور مدى الفارق بين الحقيقة والمثل أو الصورة . (٢)

وقد رسمت لنا سورة غافر بعض المشاهد التي تصف هول ذلك اليوم وذلك من خلال عرضها لأحوال أهل النار وعذابهم ، فهم يساقون إلى

(١) مشاهد القيامة في القرآن / سيد قطب ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) يوم القيامة / عبد الرزاق نوفل ص ١٥٢ .

النار سوتا وهم مكبلون بالسلاسل والأغلال تسوقهم الزانية ، قال تعالى :
” إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ “ (١)

فانما سيقوا الى هناك ، واستقروا بدأوا بالقاء اللوم على بعضهم بعضا ،
قال تعالى : ” وَإِذِ تَحْتَاجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا هَلَ
أَنْتُمْ مُنْجُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٧٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُمُ
الْعِبَادَ ﴿٧٧﴾ “ (٢)

وانا بهم بعد طول العذاب وتواصله والذي لم يفر عنهم لحظة واحدة
ينادون خزنة النار ، يريدون الموت ولا موت حتى اذا يسوا وتيقنوا أنه
لا موت ينادون يطلبون تخفيف العذاب يوما فلا يخفف عنهم :
” وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ اادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْ لَمْ نَكُنْ
تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ “ (٣)

وكذلك رسمت لنا سورة غافر بعضا من الصور لاهوال أهل النار وعذابهم
في قبرهم قبل البعث والحساب والجزاء ، وهي بذلك :

- توهك عقيدة هامة فيما يتعلق بحياة البرزخ ، وهي عذاب القبر .

- (١) سورة غافر آية ٧١-٧٢ .
(٢) سورة غافر آية ٤٧ - ٤٨ .
(٣) سورة غافر آية ٤٩ - ٥٠ .

المطلب الثالث : حياة البرزخ (عذاب القبر)

قال تعالى في سورة غافر :

” فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا كُرِّهَ وَأَحَاقَ بِتَالِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ النَّارُ يُرْصَنَ عَلَيْهَا
عُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٧﴾“ (١)

قال ابن القيم (هي دليل على عذاب البرزخ ، فقد ذكر عذاب الدارين
ذكرا صريحا لا يحتمل غيره) . (٢)

كما ذكر السيوطي (٣) عن الكرمانى : (أن هذه الآية أدل
دليل على عذاب القبر ، لأن المعطوف غير المعطوف عليه) . (٤)

وقال ابن كثير (هذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة
على عذاب البرزخ في القبر) (٥) ولكن هناك ما تجدر الإشارة اليه
في هذا الموضوع وهو أن هذه الآية مكية والحديث حول عذاب القبر
كان في المدينة بعد ذلك ولم يكن معروفا قبلها ، كما يفهم من الحديث

(١) سورة غافر آية ٤٥ - ٤٦ .

(٢) الروح / ابن قيم الجوزية / تحقيق ودراسة السيد الجميلي /
ص ١٣٢ .

(٣) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي ،
المجتهد ، الامام الكبير ، صاحب التصانيف ، الشافعي ، قال
الشوكاني : ” حفظ القرآن وبرز في جميع الفنون ، وفاق الأقران
..... وذكر العلماء ” أن مواعظ بلغت

ست مائة مواعظ في العلوم المختلفة ، توفي سنة ٩١١ هـ .
(انظر ترجمته في الضوء اللامع ٤ / ٦٥ ، شذرات الذهب ٨ / ٥١) .

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل / السيوطي ص ١٨٩ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٨١ .

الذى أورده ابن كثير عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها اليها شيئا من المعروف الا قالت لها اليهودية " وراك الله عذاب القبر " قالت عائشة رضي الله عنها : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم " لا " من زعم ذلك ؟ قالت : هذه اليهودية لا أصنع اليها شيئا من المعروف الا قالت " وراك الله عذاب القبر " قال صلى الله عليه وسلم : كذبت يهودية وهم على الله أكذب لا عذاب دون يوم القيامة ، ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتلا بثوبه محرمة عيناه وهو ينادى بأعلى صوته " القبر كقطع الليل المظلم " أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيرا وضحكتم قليلا ، أيها الناس استعيزوا بالله من عذاب القبر ، فان عذاب القبر حق " . (١)

والسؤال هو : كيف نجمع بين أحداث الحديث التي تمت في

المدينة وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟

(١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨١ ، والحديث أورده البخارى في صحيحه ج ٢ كتاب الكسوف ، باب التعوذ من عذاب القبر في الكسوف ص ٢٦ ، " قريبا منه " وباب صلاة الكسوف في المسجد ص ٢٩ ، سند الامام أحمد ج ٦ (حديث السيدة عائشة رضي الله عنها ص ٨١ " بلفظه " . سفن النسائي ج ٤ كتاب الجنائز باب التعوذ من عذاب القبر ص ١٠٤ - ١٠٥) ، " قريبا منه " .

(والجواب : أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوا وعشيا في البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال نالها بأجسادها في القبور إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسبب فلم يدل عليه إلا السنة (١) في الأحاديث الآتية ذكرها والله أعلم .

ولم تنفرد سورة غافر بالإشارة إلى عذاب القبر ، بل إن نعيم البرزخ وعذابه مذكور في القرآن في غير موضع ، والتي منها :

(١) قوله تعالى :

” وَأَوْتَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦﴾ “ (٢)

يقول ابن القيم : (وهذا خطاب لهم عند الموت ، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم : اليوم تجزون) (٣)

(٢) وقوله تعالى :

” فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يَلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ لَا يَغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ “ (٤)

قال شارح الطحاوية : (يحتل أن يراد به عذابهم بالقتل وفيه في الدنيا أو أن يراد به عذابهم في البرزخ وهو

(١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨١ .

(٢) سورة الأنعام آية ٩٣ .

(٣) الروح ص ١٣٢ .

(٤) سورة الطور آية ٤٥ - ٤٧ .

أظهر لأن كثيرا منهم مات ولم يعذب في الدنيا (١) وقد
يقال وهو أظهر أن من مات منهم عذب في البرزخ ، ومن بقي منهم
عذب في الدنيا بالقتل وغيره ، فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ (٢)
وقال البراء بن عازب (٣) رضي الله عنهما هو عذاب القبر (٤)

(٣) قال تعالى : " فَإِنَّ لَهُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا ، (٥)

فعن أبي هريرة رضي الله عنه * قال : الموت من في روضة ويرحب له
قبره سبعون ذراعا وينور له كالقمر ليلة البدر ، أتدرون فيما نزلت هذه
الآية * فان له معيشة ضنكا * ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال :
* عذاب الكافر في قبره * والذي نفسي بيده انه ليسلط عليه تسعة وتسعون
تنينا ينفخون في جسده ويلسعونه ويخدشونه الى يوم القيامة * (٦)

- (١) ابن أبي العز الحنفي ص ٤٤٧ .
- (٢) الروح / ابن قيم الجوزية ص ١٣٢ .
- (٣) هو الصحابي الجليل البراء بن عازب بن الحارث الانصاري أبو عماره
من كرام الصحابة وخيارهم أتى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر
فرده عنها لصفرسنة فلم يشهد ها ، ثم شهد أحدا وغيرها من المشا هسد
مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا
من الأحاديث توفي سنة ٧٢ ه .
- (٤) انظر ترجمته في الاصابة (١ / ١٤٤ ، الاستيعاب (١ / ١٣٩) .
- (٥) لوامع الأنوار البهية / الاسفراييني ص ١٣ .
- (٦) سورة طه آية ١٢٤ .
- (٦) سنن الترمذى ج ٤ كتاب صفة القيامة باب ٢٦ حديث رقم ٢٤٦٠
* من حديث طويل قريب منه * ص ٦٣٩ - ٦٤٠ وقال عنه الترمذى
* حديث حسن غريب * ، مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٣٨ مختصرا

===

كما تواترت الأحاديث الكثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في عذاب القبر والتي منها :

- (١) عن أم مبشر (امرأة زيد بن حارثة رضي الله عنها) قالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في حائط من حوائط بني النجار وفيه قبور منهم قد ماتوا في الجاهلية فسمعهم وهم يعذبون ، فخرج وهو يقول : (استعيذوا بالله من عذاب القبر ، قالت : قلت يا رسول الله : وانهم ليعذبون في قبورهم ؟ قال : نعم عذابا تسمعه البهائم) . (١)
- (٢) ما ورد في الصحيحين عن ابن عباس (٢) " أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة ، ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين فقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا " . (٣)

- === ما نصه (عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسقط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تينا تلدغه حتى تقوم الساعة فلو أن تينا منها نفخ في الأرض ما أهدت خضراء ، سنن الدارمي ج ٢ باب في شدة عذاب النار ، كتاب الرقاق ص ٣٣١ .
- (١) أخرجه الامام أحمد وابن أبي شيبة في مصنفه ورجاله رجال الصحيح (انظر الفتح الرياني أبواب البكاء على الميت / باب ما جاء في أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ٢٥٨ / ١) .
- (٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم حبر الأمة وترجمان القرآن وأحد الستة المكرمين من رواية الحديث دعاه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله " اللهم فقهم في الدين وعلّمه التأويل " توفي بالطائف سنة ٦٨ هـ (انظر ترجمته في الاصابة ٢ / ٣٣٠ ، الاستيعاب ٢ / ٣٥٠ ، طبقات المفسرين للداودي ٢٣٢ / ١) .
- (٣) صحيح البخاري ج ١ كتاب الوضوء باب ما جاء في غسل البول حديث رقم ٢١٨ ص ٣٢٢ بلفظه ، صحيح مسلم ، كتاب نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ج ٢ ص ٢٠٠ " قريبا منه " .

(٣) وعن زيد بن ثابت ^(١) "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار على بافلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال من يعرف أصحاب هذه القبور ؟ فقال رجل : أنا ، قال : فمتى مات هو ؟ لا ؟ قال ماتوا في الاشرار ، فقال ان هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا نعوذ بالله من عذاب النار قال تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا نعوذ بالله من فتنة الدجال" ^(٢) الى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تنص على عذاب القبر وشبهه .

(١) هو الصحابي زيد بن ثابت بن الضحاك أبو سعيد الأنصاري البخاري المدني ، كاتب الوحي ، أسلم قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة ، واستصفره النبي يوم بدر ، وشهد أحدًا والخندق وما بعدها مع رسول الله ، كتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب له المراسلات الى الناس ، ثم كتب لأبي بكر وعمر فسي خلافتها ، وكان عمر وعثمان يستخلفانه إذا حجا ، توفي بالمدينة سنة ٥٤ هـ وقيل غير ذلك (انظر ترجمته في الاصابة ١ / ٥٦١ ، الاستيعاب ١ / ٥٥١ ، تذكرة الحفاظ ١ / ٣٠) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب ١٧ ، عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه " وأثبت عذاب القبر والتمعذ منه ج ٤ ص ٢١٩٩ .

ولكن بعد هذا العرض لهذه الآيات والأحاديث ما الحكمة في أن عذاب القبر لم يذكر في القرآن صريحا مع شدة الحاجة الى معرفته والايان به ليحذره الناس ويتقى ؟

أجاب ابن القيم رحمه الله عن ذلك قائلا (ان جواب هذا السؤال من وجهين : مجمل ومفصل .

أما المجمل : فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الايمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة قال تعالى :

” وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ “ (١)

وقال :

” هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ “ (٢)

كما قال تعالى :

” وَأَذَكُرَّنَّمَايَتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ “ (٣)

أى أنه ما دام قد ذكر في السنة فكانه ذكر في القرآن فالمصدران هما وحي من الله عز وجل ، أنزلهما على رسوله ونحن مأمورون بالايان بهما معا .

فابن القيم رحمه الله قال بهما معا : فالكتاب هو القرآن ، والحكمة هي السنة ، باتفاق السلف ، وما أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب

(١) سورة النساء آية ١١٣ .

(٢) سورة الجمعة آية ٢ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

تصديقه والايان به كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله ، فهذا أصل متفق عليه بين أهل الاسلام لا ينكره الا من ليس منهم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " اني أوتيت الكتاب ومثله معه " . (١)

وأما الجواب الفصل ، فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور في القرآن (في غير موضع) (٢) ثم شرع رحمه الله يسرد الآيات ، والتي منها مذكرناه سابقا أو ما أشرنا اليه في الهامش ، مبينا مواضعها في القرآن مع التعليق عليها الى آخر الفصل .

والتأمل لأحاديث عذاب القبر ونعيمه يجدها تفصيلا وتفسيرا لما دل عليه القرآن الكريم .

(تخصيص آل فرعون بالعذاب)

كان لآل فرعون نتيجة كفرهم واصرارهم على التكذيب والعناد ، حظ وافر من ذلك العذاب حتى أنهم خصصوا به من دون غيرهم ، وهذا ما أثبتته سورة غافر ، قال تعالى :

” قَوْمَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَتْ بِهِنَّ أَلْفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٥٦﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٥٧﴾ “ (٣)

وهذا العذاب أكده حديث رسول الله .

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل ج٣ ص ٣٦٧ ، ج٤ ص ١٣١-١٣٢ ، من حديث المقدم بن معد يكرب الكندي ، سنن أبي داود ج٤ كتاب

السنة باب قي لزوم السنة حديث رقم ٤٦٠٤ ص ٢٠٠ . وقال صاحب الفتح الرباني معلقا : رواه الترمذي وقال حسن غريب ، وسكت عليه ابو داود وهو لا يسكت الا على صالح للاحتجاج به ، ورواه احمد باسناد جيد ، وقال في النيل (يعني نيل الاوطار) هو حديث صحيح . (انظر كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب الاعتصام بسنته صلى الله عليه وسلم والاهتداء بهديه ١/٩٢)

(٢) الروح / ابن قيم الجوزية ص ١٣٢ .

(٣) سورة غافر آية ٤٥-٤٦ .

ففي حديث الاسراء الذي أورده ابن كثير في تفسيره عن أبي سعيد الخدري ^(١) رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه "ثم انطلق بي الى خلق كثير من خلق الله رجال، كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدا وعشيا :

"وَيَوْمَ تَكُونُ السَّاعَةُ ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٥٠﴾"

وآل فرعون كالابل المسوقة يتخبطون الحجارة والشجر لا يعقلون ^(٢). كما أكد المفسرون، فعن ابن مسعود قال "ان أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تسرح بهم في الجنة، وان أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو على جهنم فذلك عرضها" ^(٣).

(٤)

وتتمة لذلك فقد أورده ابن كثير عن ابن جرير قال "سمعت الأوزاعي

(١) هو الصحابي الجليل سعد بن مالك بن سنان، أبو سعيد الخدري الأنصاري الخزرجي، استصفر يوم أحد، فرد، ثم غزا بعد ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة غزوة، وروى عنه الكثير من الأحاديث، قال ابن عبد البر... كان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم، توفي سنة ٧٤ هـ وقيل غير ذلك (انظر ترجمته في الاصابة ٣٥/٢، الاستيعاب ٤٧/٢، صفة الصفوة ١/٧١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٢.

(٣) الأكليل في أسرار التنزيل / السيوطي ص ١٨٩. كما أخرج ابن جرير نحوه دون ذكر لأرواح الشهداء في جامع البيان في تفسير القرآن ١/٤٦٠.

(٤) هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد، أبو عمرو الأوزاعي، امام أهل الشام، قال ابن حبان أحد أئمة الدنيا فقها وعلما وورعا وحفظا،

وفضلا، وضبطا مع زهاده " وكان إماما في الحديث، وكان يسكن بيروت وهو من تابعي التابعين، توفي سنة ١٥٧ هـ ببيروت

(انظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ ١/١٧٨، وفيات الأعيان ٢/٣١٠، طبقات الحفاظ ص ٢٩).

سأله رجل فقال : رحمك الله رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب، بيضاء، فوجاً فوجاً لا يعلم عددها إلا الله عز وجل ، فإذا كان العشي رجع مثلها سوداء قال : وفظنتم إلى ذلك ؟ قال : نعم ، قال : ان ذلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا فترجع إلى وكورها وقد احترقت أرياشها وصارت سوداء ، فنبئت عليها من الليل ريش أبيض ويتناثر الأسود ، ثم تغدو على النار غدوا وعشيا ثم ترجع إلى وكورها ، فذلك دأبهم في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى :

« (١)

” ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٥١﴾

وعلى هذا :

فالنتيجة التي نصل إليها في خاتمة هذا البحث هي أنه :

(قد توافرت الأخبار في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والايان به ، ولا نتكلم في كيفيته ، ان ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذا الدار ، (٢)
(والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ، ولكنه قد يأتي بما تحارفيه العقول) .

(فمذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت اذا مات يكون في نعيم

أو في عذاب وأن ذلك يحصل لروحه هده (٣) وأن الروح تبقى بعد

(١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٢ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية / ابن أبي العز الحنفي ص ٤٥٠ .

(٣) ويرى ابن تيمية رحمه الله أن عذاب القبر يقع على الروح والبدن

معاً ، فقال رحمه الله ” فقد صح الحديث بإعادة الروح إلى الجسد واختلاف أضلاعها وهذا بين في أن العذاب على الروح

والبدن مجتمعين (مجموع الفتاوى ٢٨٩ / ٤١١) .

مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحيانا ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم اذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح الى الأجسام وقاموا من قبورهم لرب العالمين (١) .

وبذلك نعلم أن (كل من مات وهو مستحق للعذاب نال منه نصيب منه ، قبر أولم يقبر ، أكلت السباع ، أو احترق حتى صار رمادا أو نسفني الهواء ، أو صلب أو غرق في البحر ، وما ورد من عذابه ونيمه يجب أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم من غير غلو ولا تقصير .

فالله قد ركب الانسان من بدن ونفس وجعل أحكام الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبع لها ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدان تبع لها ، فاذا جاء يوم حشر الأجساد وقام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعا ، فاذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل ، لأنه حق لا مربة فيه ، وذلك يستهزئ المؤمنون بالغيب من غيرهم .

ويجب أن يُعلم أن النار التي في القبر ، والنعيم ، ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها ، وان كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحت حتى يكون أعظم حرا من جمر الدنيا ، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها ، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما الى جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من النار ، والثاني في روضة من رياض الجنة ، لا يصل من هذا الى جاره شيء من حراره ، ولا من هذا الى جاره شيء من نعيمه ، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب ، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحظ به علما .

(١) الروح لابن قيم الجوزية ص ٩٧ .

وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير ، واذنا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيبه عن غيره ، ولو أطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالته حكمة التكليف والايان بالغيب ، ولما تدافن الناس كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم " لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع " (١) . ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمعته وأدركته (٢) . أعاننا الله من عذاب القبر ، ومنَّ علينا بالنجاة ، انه على كل شيء قدير .

-
- (١) صحيح البخارى ج١ كتاب الوضوء باب ما جاء في غسل البول حديث رقم ٢١٨ ص ٣٢٢ ، صحيح مسلم ، كتاب نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ج٣ ص ٢٠٠ .
- (٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفى / ص ٤٥١-٤٥٣ .

المطلب الرابع : جانب من الرد على منكرى البعث .

قضية البعث واعادة الحياة الى الموتى بعد غتت تلك الاجساد واختلاطها بأجزاء الارض من معضلات العقيدة ، شأنها في ذلك شأن قضية الوجدانية في الغرابة والاستبعاد ، ومن أجل ذلك سلك القرآن الكريم لاثباتها مسالك مختلفة في طريقة العرض والاستدلال . وقد تجلّى سلك القرآن الكريم في عرضه للقضية بأسلوبه الفطرى السهل الواضح ، لأنه خطاب للفطرة البشرية بما هو في متناول ادراكها ، فقد عني القرآن الكريم بقضية البعث عنايته بقضية الوجدانية ، فكما تعددت الآيات الدالة على اثبات الوجود الالهي ووجدانيته ، فقد كثرت الآيات التي تقرّر البعث وتوّه كدوقوعه ، فنحن نجد القرآن تارة يعرض شبهة المنكرين ، ثم يرد عليها ويظهر بطلانها ^(١) ، وأخرى يذكر الدليل على البعث أولاً وبعد أن يتقرر ويتضح يورد القضية ^(٢) ، وحينما يخبر عن وقوع البعث والجزاء خبراً قاطعاً مع طي الدليل وعدم ذكره لوضوحه ^(٣) . وما لا شك فيه أنه لا سبيل الى استيعاب هذا البحث الكبير في هذه المجالسة وانما من حق البحث علينا أن نقف حيث وقفت بنا سورة غافر والتي هي لب بحثنا ، قال تعالى في سورة غافر :

(٤) "مُخَلِّقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾" ،

- (١) كما في سورة ق آية ١-١١ .
(٢) كما في سورة المؤمنون من آية ١٢ : ١٦ وسورة الرعد من ٣-٥ وسورة الحج من ٥-٧ .
(٣) كما في الجاثية آية ٢١ ، وكما في سورة سبأ من ٣-٥ والتغابن آية ٧ .
(٤) غافر آية ٥٧ .

فالآية تعرض نوعاً من أنواع الأدلة الحسية المشاهدة الدالة على كمال قدرته سبحانه فقال تعالى منكرًا عليهم^{عدم} / اعتبارهم بهذه الأدلة المشهودة على القدرة الإلهية على البعث ، فأمامهم السموات والأرض والتي يعتبر خلقها أكبر من خلق الانسان :

(١)

” أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهُا مِنْ فُرُوجٍ ۝“

فهذه السماء التي يدرجون تحتها ألا ينظرون الى ابداعها وحسنها واحكام بنائها وما زينت به من كواكب ثابتة وسيارة ، ألم يأخذوا منها دليلاً على القدرة الجدة التي لا يعجزها شيء ؟

وهذه الأرض التي يسمعون عليها أفلا ينظرون اليها كيف مدت لهم ، وأرسيت بالجبال لثلاً تضرب بهم ، وما أنبت فيها من الأنواع المختلفة الطعوم والأشكال رزقا للعباد ؟ يقول تعالى :

(٢)

” وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَمْرُوزِينَ ۝“

وقال :

” وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبْتٍ وَجَبَّ الْحَصِيدُ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝“ (٣)

(فهذا مثل ضربه الله لمنكرى البعث بما يشاهدونه من حال الأرض قبل نزول المطر عليها وهي جديبا مقفرة وحين ينزل عليها الماء تهتز وتربو فتبتت من كل زوج بهيج أى حسن المنظر ، وذلك بعدما كانت يابسة لا نبات فيها فأصبحت تهتز خضراء) . (٤) انه مثال للبعث والاحياء بعد

(١) سورة ق آية ٠٦

(٢) سورة الحجر آية ٠١٩

(٣) سورة ق آية ٩ - ١١

(٤) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ / ص ٢٢٢

الموت ، ولذلك يقول جل شأنه " كذلك الخروج " أى مثل ذلك
الايخارج للنبات من الأرض ، يحيى الله الموتى فيخرجهم من قبورهم أحياء
للمحاسب والشواب والعقاب .

فلهذا المشاهد المحسوس من آثار قدرته تعالى أعظم ما أنكروه

الجاحدون للبعث لخلق السماء والأرض ، قال تعالى :

" أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُم مِّنَ قَدْرِهِ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ
بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾ " (١)

فالذى خلق السموات وما شملته من أفلاك لا يحيط بها البصر

ادراكا ولم يعلم مقدار سمعتها وعظمتها الا خالقها ، يرفعها بأمره

ويسكها بقدرته أن تنزل ، محكمة البناء لا شقوق فيها ولا تصدع ، قال

تعالى : " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا يُرِيسُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْقَمَرَ
كُلُّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ
الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا وَأَمْرًا وَمِنَ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ
أُنثَىٰ يَعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾ " (٢)

فهذه الآيات الكونية العلوية منها والسفلية تهدى المتفكر فيها ،

المستعمل لعقله الفطرى الذى فطره عليه خالقه ، على أنها قد أوجدت

وأحكمت ونظمت بتدبير حكيم حلیم ، قادر ، تقتضى حكمته رجوع الخلائق

اليه ، وملاقاتهم له ، وتدل دلالة واضحة على أن من طلب دليلا غير هذه

الأدلة على قدرة الله على اعادته للحياة مرة أخرى تدل على أنه ممكن

يعجب من قوله ، فخلق السموات والأرض أكبر من خلق الانسان .

(١) سورة الاحقاف آية ٣٣ .

(٢) سورة الرعد آية ٢-٣ .

ومن هنا نرى أن أولئك المنكرين ليس لديهم حجة يستندون إليها

في انكارهم الا الاستبعاد المستند الى الوهم والظن كما قال تعالى :

”وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا“ (١)

اذ ليس هناك علم يقيني لامتناع البعث بعد الموت ، وعدم امكانه ، وانما هناك ظن ووهم ناتج عن تكذيبهم بالحق الذي جاءهم من الله تعالى ،

فالله هو الحق ، وقوله الحق ، وليس بعد الحق الا الضلال البين ، ولذلك

فان المكذب بالحق مضطرب ، ليس لديه أساس متين يستند اليه ، قال

(٢)

تعالى : ”بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ“ (٣)

وهذا كفر متأصل في النفوس يستحق أن يقف أصحابه ذلك الموقف الذليل

في ذلك اليوم العظيم :

”يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ أَعْلَىٰ لِلَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَّن الْمُسْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ“

”الْيَوْمَ يُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ“

الْحِسَابِ“ (٣)

(١) سورة الجن آية ٠٧

(٢) سورة ق آية ٠٥

(٣) سورة غافر آية ١٦-١٧

الفصل الثاني

قضايا الأخلاق في السّورة

ويشتمل على أربعة مباحث :-

- المبحث الأول : تعريف الخلق لغة واصطلاحًا .
- المبحث الثاني : صلة الأخلاق بالحقيدة .
- المبحث الثالث : الأخلاق الحسنة في السورة .
- المبحث الرابع : الأخلاق السيئة في السورة .

المبحث الأول :
تعريف الخلق لغة واصطلاحًا .

الفصل الثاني

قضايا الأُخلاق في السورة

المبحث الأول : تعريف الخلق لفة واصطلاحاً :
الخلق والخلق : السجية ، والخلق : الطبيعة ، وفي التنزيل :

(١) ” وَآتَاكَ عَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴿٥١﴾ ”

والخلق : المروءة والخلق : بضم اللام وسكونها : هو الدين والطبع
والسجية (٢) ، وقد جمعها صاحب القاموس المحيط فقال : (الخلق :
السجية والطبع والدين والمروءة) (٣) .

والخلق : الفطرة ، والخلقة والسليقة بمعنى واحد ، والجمع : أخلاق .

واشتقاق خَلِيقٌ وما أخلقه من الخلاقة وهي التمرين ، من ذلك أن
تقول للذي قد ألف شيئاً صار ذلك له خُلُقاً أي مرن عليه ، ومن ذلك الخلق
الحسن .

ويقال : أخلق الرجل اذا صار ذا أخلاق ، وفي الحديث " ليس
شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق " (٤) .

(٥)
وفلان حسن الخلق : أي حسن الصورة والباطنة والهيئة الداخلية له .

ومن هنا قال صاحب اللسان : (ان حقيقة الخلق هو : صورة الانسان
الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورة
الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة ، والشواب والعقاب

(١) سورة القلم آية ٤ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ج ١٠ ص ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ .

(٣) الفيروزآبادي ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٤) لسان العرب لابن منظور ج ١ ص ٩١ . والحديث أخرجه الترمذي في كتاب البر
باب ٦١ والذي نصه (ماشي أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن) .

(٥) تاج العروس / الزبيدي / ج ٦ ص ٣٣٧ .

يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع ، كما جاءت في ذم سوء الخلق أيضا أحاديث كثيرة (١) .

ومن هذا العرض اللغوي لفهم الأخلق يمكننا استخلاص المعاني

التالية :

- ١ - أن الخلق يطلق على الصفات الفطرية الطبيعية في خلقه الانسان كما يطلق على الصفات التي من عليها الانسان واكتسبها فأصبحت أيضا من طبيعته .
- ٢ - أن للأخلق جانبين : جانبا باطنيا نفسيا وجانبا ظاهريا سلوكيا .

الخلق في الاصطلاح :

يعرف ابن مسكويه (٢) الخلق فيقول (الخلق : حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية) . (٣)

- (١) ابن منظور ، ج ١٠ ص ٨٦-٨٧ .
- (٢) هو أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، كان في شبابه يحيى حياة سادرة لاهية ، يسمى وراء الشهوات الا أنه فطن الى خطورة ما هو فيه عند بدء رجولته ففطم نفسه عن كبر ، وقد كان يوصف بأنه لا أستاذ له ، وإنما أستاذه هو اجتهاده ، فطبعه المتأصل : حب الحقيقة والاطلاع الواسع ولقد ساعدته وظيفته في خزانة الكتب على تنمية فكره وتوسيع ثقافته ، واكتسب بهذه الطريقة الكثير من العلوم فبرز في الكيمياء والتاريخ والفلسفة والأدب والشعر توفي سنة ٤٢١ هـ (انظر ترجمته في : رياض الجنات ١ / ٧١ ، النجوم الزاهرة ٤ / ١٩٨ ، معجم الأدباء ٥ / ١٧٠) .
- (٣) تهذيب الأخلق ، ص ٢٥ .

وقريب منه ما أورده الامام الغزالي (١) في إحياءه حين قال :

إن الخلق (مهارة فن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر و روية) . (٢)

هذه الهيئة تحتاج الى تعليم وتبصير أخلاقي ، ان لا بد من وعي أخلاقي ليدرك الانسان حكمة المبادئ الأخلاقية ، ولا بد من بصيرة أخلاقية يستطيع المرء بها التمييز بين السلوك الخير والسلوك الشرير ، وما يترتب على الفضيلة من الخيرات وما يترتب على الرذائل من مضار وشروء ، (وهذا ما ذهب اليه علماء الأخلاق وأدركوه عندما عرفوا الخلق أنه (عادة الارادة) أوهو (تغليب ميل من السيول على غيره باستمرار) (٣) مدركين ومشيرين الى أهمية التدريب والتعريف على السلوك المعين ، وهذا ما ذهب اليه الاسلام حين تعبد أفراده بالسلوك الكريم والخلق الفاضل جاعلا العقيدة هي الأساس .

-
- (١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي ، أبو حامد زالمقبب بحجة الاسلام ، قال ابن السبكي " جامع أشتات العلوم ، والبرز في المنقول منها والمفهوم " ، صاحب التصانيف المفيدة في الفنون العديدة ، توفي سنة ٥٠٥ هـ (انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ، ٦ / ١٩١ - ٣٨٩ ، وفيات الأعيان ٣ / ٣٥٣ ، شذرات الذهب ٤ / ١٠٠)
- (٢) احياء علوم الدين ٣ / ٥٨
- (٣) العقيدة والأخلاق / محمد عبدالرحمن بيصار ، ص ٢١٥ ، مقدمة في علم الأخلاق ، محمود حمدي زقزوق ص ١٧٠

المبحث الثاني :
صلة الأخلاق بالعقيدة .

المبحث الثاني : صلة الأُخلاق بالعتيدة

في البداية نقول ان (القضية الأُخلاقية تلتقي مع القضية العتدية في أن كلا منهما تمثل جانباً من جوانب شخصية الانسان وطاقة من طاقاته الدينية والسلوكية ، و نتيجة لذلك كانت الصلة بينهما وثيقة ، وقامت العلاقة بين العتيدة والأُخلاق على أسس نفسية وعوامل بعضها وجداني وبعضها عقلي .

وسواء أخذت العتيدة بفهومها العام ومحيطها الواسع الشامل لمختلف العقائد الدينية والاجتماعية والسياسية ، أو قصرت على نوع واحد من هذه الأنواع فلا بد أن ينعكس عنها فكر أخلاقي ، وطابع سلوكي محض ، ولا بد كذلك أن يكون لها دور حاسم وفعال في صياغة القوانين ، والمبادئ التي تقام عليها النظريات الأُخلاقية ، أو يشكل على ضوءها تصرف الانسان وسلوكه في واقع حياته العملية .

الا أن العتيدة الدينية لشدة فاعليتها وقوة سلطانها على الافراد والجماعة احتلت المكانة الأولى في دائرة النفوذ بين غيرها من العقائد خاصة إذا كانت راسخة ثابتة تقوم على إدراك واضح وعلم يقيني ثابت (١) وهذا لا بد منه لأن الواقع المحسوس الذي نشأ هذه كفا في الحياة العملية هو أن الانسان ضعيف عاجز أمام أهوائه وشهواته وغرائزه الحيوانية وأنه في أشد الحاجة الى معونة صوت الايمان ليقوده في هذه الظلمة المخيفة التي تحوطه من كل جانب ، وهذا أمر طبيعي لا غرابة فيه ، ان من ذا الذي يستطيع كل شيء ؟ ثم أي جزء أكثر رهبة في نظر الروح الخالدة من جزء الله الأبدى الذي سيلتقي بها في حياة طويلة .

(١) انظر العتيدة والأُخلاق ، د . محمد بيسار / المقدمة .

وأى عزاء يسلي عن أحزان الحياة
والامها من التفكير في عدالة الله التي ستوفي الصابرين أجرهم بغير
حساب (١) (والأخلاق بهذا المعنى خروج من عبودية النفس والاتجاه
الى الخالق سبحانه . . من الرغبة في شيء مادي الى الرغبة في حضرة
الاله حيث يجب أن تتطلع كل العيون وهذا لا يمكن أن يتم الا اذا تم
تصحيح بصر العين ، فأصبحت ترى كل شيء بحقيقة حجمه ونسبته ، ولهذا
تبدأ الأخلاق الدينية بمجاهدة الشهوات حتى تحكمها وتخضعها ولا تبدأ
بالتسليم لها واشباعها كما في الأخلاق الشائعة (٢) ومن هنا نجد
(الاسلام قد أدخل العلاقة بين الانسان والخالق في إطار الأخلاق ،
وذلك أن الله تعالى إذ كان موجودا وخالقا الانسان ومنعما عليه فانه
يجب الايمان به حقيقة وذاتاً موجودة . وأخلاقية الايمان تظهر من
ناحيتين : ناحية اعتباره عملاً ، ذلك أن الأعمال اما داخلية واما
ظاهرية والايمان من النوع الأول ، ولهذا نرى الرسول نفسه ينص على أن
الايمان عمل عندما سأله رجل أى الأعمال أفضل ؟ فقال : ايمان بالله
وجهاد في سبيله . (٣)

(١) محاضرات في الأخلاق الاسلامية والانسانية د/ علي معبد فرغلي

ص ٣٥-٣٦ .

(٢) النفس المطمئنة - سيد عبد الحميد مرسي ص ٩٦ .

(٣) انظر سنن النسائي ج ٨ كتاب الايمان وشرائعه (ذكر أفضل
الأعمال) ص ٩٤ قريباً منه والذي نصه ما روى عن عبد الله
ابن حبشي الخشمي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل
أى الأعمال أفضل ؟ فقال : ايمان لا شك فيه وجهاد لا غلول
فيه وحجة سرورة) ، كما ورد في سنن البيهقي ج ٩ كتاب

لأنه عمل ايجابي من أعمال القلب كما أن الإنكار عمل سلبي .

الناحية الثانية: أن الايمان في حقيقته عمل القلب بالاعتراف بالحقيقة الالهية ، والاعتراف بالحقيقة فضيلة متى كان هناك أدلة لوجود هذه الحقيقة ، وعدم الاعتراف بها مكابرة وخروج عن الخلق الحسن ، وهو اعتراف أيضا بانعام النعم والاعتراف بالفضل له وهو أخلاق أيضا ، ولهذا بين الله أن كفر الكفار راجع أساسا الى المكابرة لا لعدم وجود الأدلة لديهم بل عناد وتكبر ، ولهذا السبب لم يؤمن من جماعة الكفار بالرسول :

”وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ مِنْكُمْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾“ (١)

ووصف الله جماعة المؤمنين من علماء النصارى بأنهم أقرب / لا منهم لا يستكبرون :

”وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ مِّنْ قِسْمِينَ وَرَهْبَانًا وَآلَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾“ (٢)

====
السير باب في فضل الجهاد في سبيل الله ص ١٥٧ قريبا منه
والذي نصه ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سئل رسول
الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ؟ قال : ايمان بالله
ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم الجهاد في سبيل الله ،
قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم حج مرور ، رواه البخارى فسي
الصحيح عن أحمد بن يونس وغيره ، ورواه مسلم عن منصور بن أبي
مزاحم عن ابراهيم .

(١) سورة البقرة آية ١٣ .

(٢) سورة المائدة آية ٨٢ .

فالعلاقة الاخلاقية بين الانسان والرب هي أن يطبق الانسان

المبادئ الاخلاقية لا لانها ضرورية للحياة كتطبيق القوانين الاخرى بل

لانها اكرم من ذلك انها اوامر الهية يجب طاعتها ، لذا نجد الرسول

صلى الله عليه وسلم يقول : " أكمل المؤمن ايمانا أحسنهم أخلاقا " (١) (٢)

بل الاكرم من ذلك ما أورده الامام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين حين

قال : " ان الخلق هو الدين ، ومن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك

في الدين ، وفسر العلماء قول الله تعالى عن رسوله :

" وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ " (٣)

انك على دين عظيم . (٤)

والخلق خلقتان لا ثالث لهما ، خلق حسن وخلق سيء ، أوردهما

القرآن في آيتين لا ثالث لهما - في معرض المدح مرة حين قال عن نبيه

صلى الله عليه وسلم :

" وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ "

وفي معرض الذم مرة حين تحدث عن قوم عاد فقال :

" كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٨﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ أَنْتُمْ بِكُلِّ رَيْعٍ
ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٤١﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٤٢﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾ أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ جَنَّاتٌ وَعُيُونٌ ﴿١٤٦﴾

(١) سنن الامام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٢٥٠ من رواية أبي هريرة وعلق عليه صاحب كتاب الفتح الرياني قافلا (خرجته الترمذى وابن حبان في صحيحه وأبو داود وصححه الترمذى وابن حبان والحاكم) (انظر الفتح الرياني ج ١ ص ١٩٦ كتاب الاخلاق الحسنة وما جاء فيها باب الترغيب في محاسن الاخلاق ص ٧٤-٧٥) .

(٢) انظر التربية الاخلاقية الاسلامية ، مقدار بالجناح ص ٨١-٨٢ .

(٣) سورة القلم آية ٤ .

(٤) تأملات في كتاب مدارج السالكين / صلاح شادى

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ (١) “

وفي ظل هاتين الايتين تكررت الايات الكثيرة في الدعوة الى حسن الخلق والتحذير من سوء الخلق ، تدعو الى حسن الخلق ، وهي تتحدث عن الانبياء ومن تبعهم ، ثم محمد من بعدهم والذي قال عنه ربه :

” وَذَلِكَ لَعَلَّ الْخُلُقَ عَظِيمًا ﴿٤﴾ ” (٢)

وقال لنا بعده :

” لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ
اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ” (٣)

تتحدث عنهم وما كان منهم من حلم وأناة ، وصبر وتحمل وكرم وشجاعة وعدل واحسان وما الى ذلك من الفضائل الخلقية والكمالات النفسية .

وتحذر من سوء الخلق الذي كان عقبة امام ايمان الكافرين الجاحدين والذي من مظاهره الكذب ، الخيانة ، والجزع ، الطمع ، الغلظة ، الفحش ، البذاء ، وما إليها من أخلاق .

والقرآن كله تربية وتوجيه وسورة غافر جزء من هذا الكتاب والذي كان لها دورها في الدعوة الى محاسن الاخلاق والشبات عليه فكان الحديث عن الصبر والشجاعة والتحذير من سيء الاخلاق والاستمرار عليها فكان الحديث عن الكبر والاسراف والفرح والضحك بغير حق ، أما الصبر والشجاعة فقد وثقت عندهما سورة غافر كغيرها من / ، ومعنى ذلك أن هذه الايات كانت في بدء حياة الرسول ودعوته وفي أشد ظروف المحنة وهو أوح ما يكون الى أن يدعى الى الصبر والشجاعة وأن تضرب له القصص في سير السابقين قبله وشجاعتهم .

-
- (١) سورة الشعراء آية ١٣٧ .
(٢) سورة القلم آية ٤ .
(٣) سورة الاحزاب آية ٢١ .

وأما الأ^١خلاق السيئة التي أشارت اليها السورة واكتفت بها ،
ندرك سببها اذا علمنا أن سورة غافر كان فيها الكثير من الآيات للتخفيف عن
الرسول في محنته بحكمة وهو يواجه قريشا التي وقفت تجادله كثيرا لا تكسل
ولا تمل والرسول يقف أمامهم للرد والايضاح طمعا في ايمانهم ورغبة
في انتشالهم من أحوال الشرك والكفر ، ولكن الوقوف يطول . . . والحزن
يتمسك الى أعماق نفسه . . . والألم يعتصره . . . لكن ربه لا يتركه
في محنته وحده بل يخفف ويسرى عنه مينا له العلة في طول المجادلة ،
انه ليس تقصيرا منك يا محمد بل سببه :

- ١ - كبر وجبروت .
- ٢ - اسراف وارتياب .
- ٣ - فرح وطمع بغير حق .

ومن هنا كان المبحث الثالث والرابع:

المبحث الثالث - الأ^١خلاق الحسنة في ضوء سورة غافر : وفيه :

- ١ - الصبر .
- ٢ - الشجاعة .

وأما المبحث الرابع - الأ^١خلاق السيئة في ضوء سورة غافر : وفيه :

- ١ - الكبر .
- ٢ - الاسراف .
- ٣ - الفرح والطمع بغير حق .

المبحث الثالث :

الأخلاق الحسنة في السورة .

وفيه مطلبات :

المطلب الأول : الصبر .

المطلب الثاني : الشجاعة .

البحث الثالث

الأخلاق الحسنة في ضوء سورة غافر

المطلب الأول : الصبر .

الصبر هو : (حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسهما عنه) . (١)

وقال صاحب كتاب مدارج السالكين : (هو حبس النفس عن الجزع والسخط وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش) . (٢)

(فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسائه بحسب اختلاف مواعده ، فان كان حبس النفس لمصيبة سمي صبرا لا غير وبيضاده . الجزع ، وان كان في محاربة سمي شجاعة وبيضاده الجبن... وان كان في اساك الكلام سمي كتماناً وبيضاده المذل وقد سمي الله تعالى كل ذلك صبرا ونبه عليه بقوله :

(٤) ” وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ”

وقوله :
” وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ” (٥) (٦)

(وهو في القرآن على ستة عشر نوعا ، أقف أمام واحد منها فقط وهو

الذي بصد آيتي سورة غافر وهو : الصبر الذي ضمن به النصر كقوله :

” بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُدْرِكُوا يَمِينَكُم بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِّن الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ” (٧) (٨)

(١) المفردات / الاصفهاني ص ٢٧٣ .

(٢) ابن القيم ١٥٦/٢ من مذل مذلا ومذالا : قلق بسره وضجر به حتى أفشاه (٣)

(انظر المعجم الوسيط ٨٦٦/٢) .

(٤) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٥) سورة الحج آية ٣٥ .

(٦) المفردات / الاصفهاني ص ٢٧٣ .

(٧) سورة آل عمران آية ١٢٥ .

(٨) انظر بصائر ذوي التمييز ج ٣ ص ٣٧٣ .

يقول صاحب كتاب المفردات (ويعبر عن الانتظار بالصبر لما كان حق الانتظار أن لا ينفك عن الصبر بل هو نوع من الصبر) . (١)

(وإذا كان الصبر لأي إنسان من لوازم بقائه وسيره في الحياة ولوغ ما يريد فإن الصبر أشد ضرورة للمسلم من غيره ، لأن المسلم مطلوب منه أن يحبس نفسه ، ويكفها عن المعصية ويحثها على فعل الطاعة فيحتاج إلى قدر كبير من ضبط النفس والارادة التي تمنعه من مقارفة الخطيئة ومفارقة الفضيلة ، ثم يصبر على ما يقدره الله حفاظاً على الأجر والشواب .

وإذا كان الصبر ضرورياً للناس عامة وللمسلم خاصة فإن الصبر للداعي المسلم أشد ضرورة له من غيره لأنه يعمل في ميدانين : ميدان نفسه يجاهد بها ويحطها على الطاعة ، ويمنعها من المعصية ، وميدان خارج نفسه وهو ميدان الدعوة إلى الله ، ومخاطبة الناس في موضوعها فيحتاج إلى قدر كبير من الصبر في المجالين مجال النفس ومجال الدعوة . (٢)

وهذا ما توفقت عنده سورة غافر ، يقول تعالى لنبية :
” فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ” (٣)

كما يقول سبحانه : ” فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِنَّا نُرِجِعُونَ ” (٤)

فالصبر يتطلب القدرة . . القدرة على الاحتمال وضبط النفس ، يتطلب ممارسة

(١) الاصفهاني ص ٢٧٤ .

(٢) انظر اصول الدعوة / عبد الكريم زيدان ص ٦٣٦ - ٣٣٧ .

(٣) سورة غافر آية ٥٥ .

(٤) سورة غافر آية ٧٧ .

وتدريباً على السيطرة على هوى النفس ، وانفعالاتها ، وعلى الرجوع الى العقل والتروي في مواجهة الشدة والازمة ، ولذا كان توجيه القرآن للرسول عليه الصلاة والسلام عند مباشرته للدعوة الى الاسلام يقوم على امرين :

أولاً : الصبر على/المعارضين لرسالته والمتكبرين له .

فمنذ بدء الدعوة الى الرسالة كان الصبر مطلوباً من الله لرسوله الكريم ، ومأموراً به :

(١) "وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْمُوهُمْ هَاجِرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾"

لأنه عامل رئيسي في النجاح وفي دفع الهزيمة .

ثانياً : هذا الصبر لا بد له من قوة معنوية فكان لا بد من العمل على صفاء النفس بالاستغفار والتسبيح :

(٢) "وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾"

كما علمه سابقاً أن يلجأ الى قيام الليل وتلاوة ما نزل من القرآن فيه :

"يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُلِ اللَّيْلُ إِذَا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾
أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرِثْلَ قَرْءٍ أَنْ تَرْثِيلاً ﴿٤﴾" (٣)

انه ينصح بالصبر والتوجه الى الله بالاستغفار والتسبيح (وفي الاستغفار تخلية عن الاكدار النفسية مطلوب من الرسول تعبداً وتأديباً) (٤)

(١) سورة المزمل آية ١٠ .

(٢) سورة غافر آية ٥٥ .

(٣) سورة المزمل آية ١ - ٤ .

(٤) انظر التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ١٧١ .

يقول الامام ابن كثير وهو (تهبج للائمة على الاستغفار) (١) ،
(وفي التسبيح تحلي بالكلمات النفسية التي يتم الشكر بها ظاهرا
وإغنا) (٢) ، وفي كل منهما شد للعزيمة في المواجهة ، ففي التسبيح
والاستغفار يذكر المؤمن بالله وبإيمانه به وفي الصبر يتذكر أنه يعمل
ابتغاء وجه الله .

ثم يعد بالنصر واجتياز الأزمات والشدائد في سلام لا ولئك
الصابرين ، سواء كان هذا النصر في الدنيا أم في الآخرة . يقول
تعالى : ” إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ
لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَهُمْ فِي اللَّعْنَةِ وَهُمْ فِي سُوءِ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ” (٣)

فإنه يطمئن دعائه ، ويعدهم بالنصر وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة
مؤكداً ذلك بعدة تأكيدات .

- أ - (تأكيد الخبر ب (ان) مراعيًا فيه حال المعرف بهم بأن الله
ينصر رسله عليهم ، وهم المشركون لأنهم كانوا يكذبون بذلك .
ب - لام التوكيد الداخلة على الفعل المضارع .
ج - التعبير بالمضارع في قوله (لننصر) لما فيه من استحضار حالات
النصر العجيبة التي وصف بعضها في هذه السورة ، وإلا فإن نصر
الرسول الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم قد مضى ونصر
محمداً صلى الله عليه وسلم مترقب غير حاصل حين نزول الآية .

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٨٥ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ٢٤ ص ١٧١ .

(٣) سورة غافر آية ٥٢ .

د - عطف الأمر بالاستغفار والتسبيح على الأمر بالصبر رمزا الى تحقيق الوعد لأنه أمر يعتبر بما هو من آثار الشكر كناية عن كون نعمة النصر حاصله لا محالة ، ولذلك لم يؤمر بالصبر لما حصل النصر في قوله :

” إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ (٣) “ (١)

فان ذلك مقام محض الشكر دون الصبر . (٢)

لكن بعد كل هذه التأكيدات هناك سوء ال طرحه الامام الطبري في تفسيره وهو في الحقيقة سوء ال وجيبه : ، إن هذا وعد قاطع من الله بنصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، وقد علمنا أن منهم من قتله أعداءه ، وشلوا به ومنهم من هم بقتله قومه ، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى يفارقهم ناجيا بنفسه ، فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله والمؤمنين به في الحياة الدنيا ؟؟

ثم يجيب قائلا : للأمر وجهان كلاهما صحيح معناه :

أحدهما : أ- يكون النصر باعلائهم على من كذبهم واظفارهم بهم كالذي فعل بمحمد صلى الله عليه وسلم بإظهاره على من كذبه من قومه .

ب - أو يكون بالانتقام من حادهم باهلاكهم وانجاد الرسل من كذبهم كالذي فعل بموسى وفرعون وقومه إذ أهلكهم غرقا ونجى موسى ومن آمن معه .

(١) سورة النصر آية ٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ٢٤ ص ١٦٧-١٧٠ .

ج - أو يكون بالانتقام من المكذبين في الحياة الدنيا ولكن بعد وفاة الرسل كما فعل بمریدی قتلة عيسى من الروم .

الثاني : أن يكون الخبر خرج عاما والمراد به البعض ، ويقول الامام الطبري : وهذا سائغ في اللغة فيكون تأويل الكلام حينئذ ، اننا لننصر رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهار) . (١)

الا أن لصاحب الظلال وقفة أحب أن نستأنس بها هنا ، قال فيها (الناس يقصرون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم ، قريسة الروء يا لا عينهم ، ولكن صور النصر شتى ، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . ابراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة اليها . . . أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة ؟ ما من شك في منطق العقيدة - أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار ، هذه صورة وتلك صورة . وهما في الظاهر بعيد من بعيد ، فأما فسي الحقيقة فحما قريب من قريب . وكم من شهيد ما كان يطك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده . وما كان يطك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه والتي ربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال . ما النصر ؟ وما الهزيمة ؟ اننا في حاجة الى أن نراجع ما استقر في تقديرنا

(١) انظر ج ٢٤ ص ٤٨ - ٤٩ .

من الصور ومن القيم . قبل أن نسأل أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا (١) . ثم تعود آيات الصبر لتخاطب صاحب الرسالة من جديد :

”فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَأِمَّا يُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيكَ فَالْيُسْرَى
يُرْجَعُونَ“ (٧٧) (٢)

(فالنصر لك يا محمد حاصل في الحالتين وهو مضمون فهم غير مفلتين من سوء العاقبة فإذ لم تُرى النهايات في الدنيا كما وقع حين أقر الله عيبتك يوم بدر من كبرائهم وعظمائهم ثم فتح الله عليك مكة وسائر جزيرة العرب في حياتك فلا مفر من الرجوع الى الله وهو عود على (٣) بد)

”الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ رَسُولَنَا فَتُوفِّيَعْلُونَ“ (٧٧) إِذِ الْأَغْلَى
فِي أَعْنَافِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسَجَّبُونَ“ (٧٦) فِي الْحَمِيمِ تُرْفَى النَّارُ يُسَجَّبُونَ“ (٧٦) (٤)

يقول صاحب الظلال (لقد انتصر محمد في حياته لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض ، فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا - من القلب المفرد الى الدولة الحاكمة - فيشأء الله أن ينصر صاحب هذه العقيدة في حياته ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة ، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية وفق تقدير الله وترتيبه) (٥)

- (١) انظر سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٨٦ .
(٢) سورة غافر آية ٧٧ .
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٩ ، التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٢٠٩ .
(٤) سورة غافر آية ٧٠-٧٢ .
(٥) سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٨٦ .

المطلب الثاني : الشجاعة :

يقول صاحب كتاب الأُخلاق :

(الشجاعة مواجهة الأُلم أو الخطر عند الحاجة في ثبات ،
وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس ، فالذي يرى النتائج
ويخاف من وقوعها ثم يواجهها في ثبات ، رجل شجاع ، وما دام الانسان
يعمل في موقفه خيرا ما يعمل فهو شجاع) . (١)

كما يقول صاحب كتاب الأُخلاق الاسلامية أن الشجاعة (قوة في
عزيمة النفس تدفع الى الاقدام بعقل في مخاطرة بعمل أو قول لتحصيل
خير أو دفع شر مع ما في ذلك من توقع هلاك أو مضرة يقينا أو ظنا) . (٢)

(١) أحمد امين ص ٢٠٥ .

(٢) واستقرا آيات القرآن نجد أن هذا الخلق بهذا المسمى لم
يرد في القرآن الكريم وان كان قد ورد في السنة صراحة كما
في حديث أبي موسى الذي قال فيه " جا " رجل الى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة
ويقاتل رياء فأى ذلك في سبيل الله ، قال : من قاتل لتكون
كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " (انظر صحيح البخارى
ج ٨ كتاب التوحيد باب " ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين " ص
١٨٩) . كما وصف الرسول بالشجاعة كما في حديث أنس رضي الله
عنه والذي قال فيه كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع
الناس (انظر صحيح البخارى ج ٣ كتاب الجهاد والسير
باب الحمايل وتعليق السيف بالعنق " ص ٢٢٨ . الا أنه
إذا كانت الشجاعة كما يقول صاحب اللسان هي " شدة القلب ")
(انظر لسان العرب ج ٨ ص ١٧٣) فقد وردت هذه المعاني
كثيرا في القرآن الكريم كما في سورة غافر التي تحكي شجاعة مؤمنين من
آل فرعون .

وملاحظة قيود هذا التعريف يتبين لنا أن الإقدام بغير عقل جنون أو شبيه به ، وأن الإقدام في غير مخاطرة لا يعتبر من الشجاعة بل هو نشاط وهمية ، وأن الإقدام لا لتحصيل خير أو دفع شر لا يعتبر شجاعة محمودة بل هو تهور مذموم (١) وفي ضوء ذلك وضع صاحب كتاب الأخلاق النظرية اسمه وهو يتحدث عن الشجاعة فقال :

(وتقوم الشجاعة أساسا في ضبط النفس عند مواجهة الخطر في الظروف الالئمة كما تقوم في مواجهة الظلم والشرب بالقول والفعل وفي التغلب على الصعوبات والأخطار والتي تتجاوز المعتاد وفي احتمال أشد الآلام بصبر وثبات .

ويضاد الشجاعة ثلاث رذائل : الإفراط في الخوف ، وانتفاء الخوف ، والتهور . فالشجاعة الحققة لا تقوم في عدم الخوف من شيء بل تقوم في الخوف مع الفطنة ، والتجروء دون التهور ، انها تتجنب الخطر الذي لا داعي له ولكنها عند الواجب لا تتردد في مواجهة الموت المحقق .

وترتكز الشجاعة على :

- أ - التطلع الى جلائل الأعمال لا من أجل الربح أو الشرف بل لما فيها من سمو .
- ب - الجود وهو الاستعداد لبذل كل غال في سبيل تحقيق جلائل الأعمال .

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ، الميداني ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

ج - الصبر وعدم القزع من المشقة أو المتعب أو الأحران أو المجهود
أو طول المدة (١).

وفي نموه ذلك ندرك أن الشجاعة ليست مقصورة على حمل السلاح
وارتياد غمار الحروب ، بل ان هناك من المواقف ما يحتاج الى شجاعةٍ
أقوى من شجاعة المقاتل في ساحة الوغى ، ووقفه منا أمام موقف مؤ من
آل فرعون من فرعون وجنده تجعلنا نقف متأملين لنضعه بعد / في مقدمة
مصاف الشجعان .

ويمكن تلخيص تلك الشجاعة في الآتي :

١ - أدرك مؤ من آل فرعون أن فرعون لم يكن يعنيه من قتل موسى
الا سلطانه والحفاظ على هيئته أمام شعبه ، فكانت رغبته في
قتله من هذه الزاوية ومن الباب الذي يتهمه فيه بالكذب ،
فكان حديثه معه من نفس الباب حيث ترك حديث الدين والايمان
حينئذ ولجأ الى إيلام فرعون وتحديه من الجانب الذي صب
حرصه عليه وهو اتهامه بالكذب بعد السحر والذي يستحق
عليه القتل فقال لهم :

” وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ “ (٢)

وكانه يقول لهم : لا حجة لكم أبداً في قتله في الحالتين وكما
أن فرعون بدأ حديثه باتهامه بالكذب ، فكذلك فعل حيث

(١) الا خلاق النظرية / عبد الرحمن بدوي ص ١٧٨ .

(٢) سورة غافر آية ٢٨ .

بدأ حديثه بتحطيم تلك الشبهة ، فكان من مظاهر شجاعته حضور ذهنه عند الشدة التي ألتمت برسوله - موسى عليه السلام - فبالرغم من أنهم يتآمرون على قتله الا أن ذلك الخطب لم يذهب برشده بل قابله برزانة وثبات ، وتصرف فيه بذهن حاضر وعقل غير مشتت ، ملك نفسه وشيت عقله ، وتصرف في الأمر على أحسن وجه فكان شجاعا حقا الا أنها الشجاعة التي يطلق عليها الشجاعة الأدبية التي تحدث عنها صاحب كتاب الأخلاق فقال : (الشجاعة الأدبية أن يبدي الانسان رأيه وما يعتقد أنه الحق مهما ظن الناس به ، أو تقولوا عليه من غضبٍ عظيمٍ أو أميرٍ ، لا يخاف من تحمل أدم يصيبه في سبيل قول حق يقوله أو مبدأ هام ينشره ، فلورأى مسألةً غير ما يراه من حوله من الناس أو خالف حكما أو عظيما جاها يراه غاضبا عما يناله من الأذى ، يقول الحق بأدب وان تألم الناس منه ، ويعترف بالخطأ وإن نالته عقوبة ، ويرفض العمل بما لا يراه صوابا ولو لم يقع رفضه موقعا حسنا) . (١)

٢ - وبعد أن ثبت لديه كفرهم وعنادهم يتف بكل شجاعة مغلنا عن

إيمانه بصراحة بل وداعيا اليه :

(٢) "يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ" (٣٨)

لم يخف من فرعون وسلطته وقوته وخيله وخيلائه ، وفي ذلك

(١) أحمد أمين ص ٢٠٧ .

(٢) سورة غافر آية

يظهر التشبث بالحق وعدم التخلي عنه ارضاء لآى قوة ، أو هروبا من
أى ضغط وليس بعجيب * أمر هذه الوقفة الشجاعة فوراها دفعة ايمانية ،
تستمد قوتها من رصيد ايماني ضخم يشعل أوراها في تلك النفس
المطمئنة جذوتان أدركنا الأولى من قوله لقومه :

” وَيَتَّقُوا مَعِيَ ادْعُوا إِلَى النَّجْوَى وَدَعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ دَعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ ” (١)

والثانية من قوله لهم :

” لَأَجْرَمَ أَنَّمَا دَعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدًّا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ
السُّرِّفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ ” (٢)

انه الايمان بالله وبمقاديره ، وباليوم الآخر وتدابيره ، واللذيين
يعدان من أعظم الوسائل لاكتساب فضائل الاخلاق، ومنها الشجاعة ،
يقول صاحب كتاب الاخلاق الاسلامية : (ان الايمان بالله ومقاديره
والايمان باليوم الآخر من أعظم الوسائل لاكتساب فضائل الاخلاق ومنها
خلق الشجاعة ، وذلك لأن الايمان بالقدر خيره وشره من الله يورث
القلوب طمأنينة تامة تجاه أشد المخاوف وأعتاها ، فالموء من صادق
الايمان على يقين تام بأنه لن تصيبه مصيبة لم يسبق فيها قضاء من
الله وقدره ، ولن يستطيع أن يفلت من مصيبة سبق فيها قضاء من
الله وقدره ، فهذه العقيدة الايمانية تجعل القلوب في طمأنينة تامة وتمدها
بمدد عظيم من الشجاعة والثبات تجاه أشد المخاوف وذلك يضمن
الجبن وتنمو الشجاعة) . (٣)

(١) سورة غافر آية (٤١-٤٢) .

(٢) سورة غافر آية ٤٣ .

(٣) عبد الرحمن حبنكه الميداني ص ٥٦٩ - ٥٧٠ .

المبحث الرابع :

الأخلاق السيئة في السورة .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الكبر .

المطلب الثاني : الفرح والمرح بغير الحق .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : الفرح بغير الحق .

المسألة الثانية : المرحة بغير الحق .

المطلب الثالث : الإسراف .

المبحث الرابع

الأخلاق السيئة في السورة

المطلب الأول : الكبر .

لفظة الكبر ، والتكبر ، والاستكبار متقاربة ، فيقول

صاحب كتاب مفردات القرآن : (فالكبر : الحالة التي يتخصص بها الانسان من اعجابه بنفسه وذلك بأن يرى نفسه أكبر من غيره ، وأعظم الكبر التكبر على الله بالامتناع عن قبول الحق ، والاذعان له بالعبادة ^(١))
ويضيف الامام الغزالي قائلاً (اعلم أن الكبر ينقسم الى باطن و ظاهر ، فالباطن هو خلق في النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح ، واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأما الأعمال فانها ثمرات لذلك الخلق .

قال كبر ، عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا / وتعظما ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى :

”إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ الْكِبْرَ ۗ أَتَاهُمْ رَبُّغِيهِ“ ^(٢)

قال : عظمة لم يبلغوها ، ففسر الكبر بتك العظمة .

والكبر بالمعنى الباطن : استعظام النفس وروية قدرها فوق قدر الغير ، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر .

ولقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر فقال حين سأله

أحد الصحابة فقال :

(١) المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص ٤٢١ .

(٢) سورة غافر آية ٥٦ .

" ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال ان الله
(١) جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس
وقوله وغمض الناس : أى ازدرأهم واستحققهم ، وهم عباد أمثاله أو خير
منه ، وسفه الحق هورده .

وكل من أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع
رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله ، وكل من رأى أنه خير
من أخيه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار أو رد الحق وهو يعرفه فقد
تكبر فيما بينه وبين الخلق . (٢)

(والتكبر على وجهين :

أحدهما : أن تكون الأفعال الحسنة كبيرة في الحقيقة

-
- (١) صحيح مسلم ج ١ كتاب الايمان باب تحريم الكبر وبيان حديث
رقم ١٤٧ صفحة ٩٣ " قريبا منه " ، عون المعبود شرح
سنن أبي داود ج ١١ باب ما جاء في الكبر حديث رقم ٤٠٧٤
ص ١٥١-١٥٢ " قريبا منه " ، سنن الترمذى ج ٣ باب ما
جاء في الكبر حديث رقم ٢٠٦٢ وقال الترمذى ، هذا حديث
حسن صحيح غريب " قريبا منه " والذي نصه عن أبي هريرة
أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان رجلا جميلا ،
فقال يا رسول الله اني رجل حبيب الي الجمال واعطيت منه ماترى
حتى ما أحب أن يفوتني أحد بشسع نعلي أفمن الكبر ذلك ؟ ،
قال " لا " ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس .
(٢) انظر احيا علوم الدين ، الغزالي ج ٣ ص ٢٩٦ - ٣٠٥ .

وزائدة على محاسن غيره ، وعلى هذا وصف الله تعالى بالتكبر فقال تعالى :

(١) "الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ"

والثاني : أن يكون متكلفا لذلك متشبعا وذلك في وصف عامة

الناس ، نحو قوله تعالى :

(٢) "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" (٣٥)

وقوله : "فَيَسْخَرُ مِنْهُمْ الْغَايِبِينَ" (٣٦)

وهذا هو التكبر المذموم وعليه رد القرآن الكريم وهو قوله تعالى :

(٤) "أَبَىٰ وَأَسْتَكْبِرُ"

(١) سورة الحشر آية ٢٣ .

(٢) سورة غافر آية ٣٥ .

(٣) سورة غافر آية ٧٦ .

(٤) سورة البقرة آية ٣٤ .

وقوله : "فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا" (١)

قابل المستكبرين بالضعفاء تنبيهاً أن استكبارهم كان بما لهم من القوة من البدن والمال ، وقوله :

"فَأَسْتَكْبِرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ" (٢)

وبه يقوله : " مجرمين " أن حاملهم على ذلك ما تقدم من جرمهم ، وأن ذلك رابعهم لا أنه شيء حادث منهم . (٣)

وعموماً :

فان (التكبر سواء كان بالعلم أو بالعبادة أم بالنسب ، أم بالمال ، أم بالقوة ، أم بالشهرة ، أم بكثرة الاتباع ، أو بغير ذلك قد حمل القرآن عليه وعلى أهله حطة صارمة فقال تعالى :

"سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُتُبًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" (٤)

وقال : "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" (٥)

كذلك حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على التكبر وأهله حطة زاجرة مؤهبة ، فقال : " لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان

(١) سورة غافر آية ٤٧ .

(٢) سورة الاعراف آية ١٣٣ .

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص (٤٢١ - ٤٢٢) ،

بصائر ذوى التمييز / الفيروز آبادى ج ٤ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٤) سورة الاعراف آية ١٤٦ .

(٥) سورة غافر آية ٣٥ .

فيصيبه ما أصابهم
الجبارين/ (١) أي في قوائمهم وسجلهم ، والمراد أنه يكون منهم ويحشر
معهم ويصيبه من العذاب ما يصيبهم .

ويقول على سبيل التهديد والوعيد : " لا يدخل الجنة من كان
(٢)(٣)
في قلبه شقال ذرة من كبر " (

فكان لسورة غافر نصيب من هذه الحطة على هذا الجانب الاخلاقي
السيء فقد ورد الكبر بجميع أوصافه تقريبا في سورة غافر (كبر ، متكبر ،
متكبرين ، استكبروا ، يستكبرون) وهي تجمع بين الكبر والتكبر والاستكبار

...

جاءت في معرض الذم في أكثر من سبعة مواضع ولعل السؤال الذي
يتبادر إلى الذهن هنا : ما السبب وراء كثرة ترداد كلمات الكبر بصيغها
المتعددة والتذكير بها بين كل وقفة وأخرى ؟؟؟

- (١) سنن الترمذى ج ٣ باب ٦٠ " ما جاء في الكبر حديث رقم
٢٠٦٨ ص ٢٤٤ ، وقال عنه الترمذى : هذا حديث حسن
غريب .
- (٢) صحيح مسلم ج ١ كتاب الايمان / باب تحريم الكبر وميانه حديث
رقم ١٤٩ ص ٩٣ ، عون المعبود ج ١ باب ما جاء في الكبر
حديث رقم ٤٠٧٣ ص ١٥٠ - ١٥١ ،
- سنن الترمذى ج ٣ باب ٦٠ " باب ما جاء في الكبر حديث رقم
٢٠٦٦ ص ٢٤٣ وقال عنه الترمذى : هذا حديث حسن غريب ،
- سنن ابن ماجه ج ١ مقدمة باب ٩ " باب في الايمان حديث رقم
٥٩ ص ٢٢ - ٢٣ " قريبا منه " .
- (٣) انظر موسوعة أخلاق القرآن ، د. أحمد الشرباصي ج ١ ص ٧٠ .

فاننا عرفنا أن الكلام من أول السورة الى آخره تقريبا يجرى في ميدان الرد على مجادلة المشركين في آيات الله ودحض شبههم ، وتوعدهم على كفرهم ، وضرب الأمثال لهم بأفعالهم من أهل العناد وابتداءً - علمنا أنه من المناسب أن يكشف القرآن للرسول ومن بعده ما تكنه صدور المجادلين من أسباب جدالهم بسفير حق - وما الدافع لهم من وراء هذا الجدل ، وليعلم الرسول صلى الله عليه وسلم دخيلتهم فلا يحسب أنهم يكذبونه تنقصا له ، ولا تجويزا للكذب عليه ، ولكن الذي يدفعهم الى التكذيب والمجادلة هو التكبر عن أن يكونوا تبعاً للرسول صلى الله عليه وسلم وورا الذين سبقوهم بالايان من كانوا لا يعبرون بهم .

وهذا نحو قوله تعالى :

(١) " قَدْ نَعِمْنَا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلَقَدْ نَعِمْنَا بِالَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ بِنُورِكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُبْغِدُونَ (٣٣) " ،

لذلك نجد أن آية سورة غافر توضح هذا الباعث بطريقة القسر لتفسي أن يكون الداعي الى المجادلة شيئا آخر غيره على وجه مؤكد ، تقول الآية : " إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ .

(٢) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٤٦) " ،

(أى أن الذين يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ما في صدورهم الا كبر على اتساع الحق واحتقار لمن جاء به) . (٣)

(١) سورة الانعام آية ٣٣ .

(٢) سورة غافر آية ٥٦ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٤ .

(أوهو مجاز عن ارادة الرياسة أو أن تكون النبوة لهم دونك حسدا
وبغيا حسبا قالوا

(١)

”لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَّتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾“

ولذلك يجادلون في آيات الله لا أن فيها موقع جدال ما ، وأن لهم
شيئا يتوهم صلاحيته لأن يكون مدارا للمجادلتهم في الجملة ، وما
هم بيالغي موجب الكسبر ومقتضيه وهو متعلق ارادتهم من دفع
الآيات أو من الرياسة أو النبوة (٢) (قال الزجاج (٣) ، المعنى
ما في صدورهم الا كبر ما هم بيالغي ارادتهم فيه ، لأن هوء لا قوم
رأوا أنهم ان اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم قل ارتفاعهم ، ونقصت
أحوالهم ، وانهم يرتفعون اذالم يكونوا تبعا فأعلم الله عز وجل انهم لا
يبلغون الارتفاع الذي أموه بالتكذيب (٤) .

- (١) سورة الزخرف آية ٣١ .
(٢) انظر روح المعاني / الألويسي ج ٢٤ ص ٧٨-٧٩ .
(٣) هو ابراهيم بن السرى بن سهل الزجاج أبو اسحاق ، النحوى
اللغوى ، قال الخطيب : * كان من أهل الفضل والدين
حسن الاعتقاد له مصنفات حسان في الأرب ، توفي ٣١١ هـ
(انظر ترجمته في طبقات المفسرين للداودى ٧/١ ، تهذيب
الاسماء واللغات ١٧٠/٢ ، شذرات الذهب ٢٥٩/٢ ،
وفيات الاعيان ٣١/١ .
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١ ص ٣٢٤ .

ثم تضيف سورة غافر لهوه لا المجادلين المتكبرين صفة جديدة

وهي : عدم الايمان بيوم الحساب ، وفي ذلك يقول سبحانه : (١)

” وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٣٧﴾ ”

ويقف الامام النسفي (٢) عند هذه الآية ويتبعه في ذلك الا لوسي (٣) ليقول

(إن الاستكبار عن الازعان للحق هو أفتح استكبار ، وأدله على دناءة

ومهانة نفس صاحبه ، وعلى فرط ظلمه وعسفه ، وضم اليه عدم الايمان بيوم الجزاء

ليكون أدل وأدل ، فمن اجتمع فيه التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة السبالة

بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله تعالى وعباده ولم

يترك عظيمة الا ارتكبتها . (٤) ثم توضح سورة غافر سبب هذه القسوة .

يقول تعالى : ” الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبْرٌ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ

الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَظُنُّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا ﴿٣٥﴾ ” (٥)

فهم في الاصل قد جادلوا في آيات الله بغير حق ، كبراً وتجبراً فحتم الله على

(١) سورة غافر آية ٢٧ .

(٢) هو أبو البركات ، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي كان رأساً

في الفقه والأصول بارعاً في الحديث ومعانيه ، بصيراً بكتاب الله تعالى

وهو صاحب التصانيف المفيدة المعتبرة في الفقه والأصول وغيرها .

توفي سنة ٧٠١ هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢٤٧/٢ ،

الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ١٠٢) .

(٣) هو أبو الشناء شهاب الدين السيد محمود أفندي الا لوسي البغدادي

كان شيخ العلماء في العراق محدثاً ومفسراً لكتاب الله وكان عالماً

باختلاف المذاهب مطلعاً على الملل والنحل ، سلفي الاعتقاد شافعي

المذهب خلف ثروة علمية كبيرة ونافعة . توفي سنة ١٢٧٠ هـ .

(٤) تفسير النسفي ٧٦/٤ ، روح المعاني ، الا لوسي ٦٣/٢٤ .

(٥) سورة غافر آية ٣٥ .

قلوبهم بالكفر ، فكان الختم على القلب سببه الجدال في آيات الله ، وهي علامته يقول الامام الطبري : (كما طبع الله على قلوب المشركين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله أن يوحدده ويصدق رسله متعظم عن اتباع الحق) (١) (حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق) (٢) وهذا أمر قد توعدهم الله به حين قال : ” سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ” (٣)

وما تحدثت عنه سورة غافر من الكبر عده صاحب الاحياء شر أنواع الكبر حين قال (وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق ، والانقياد له ، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين) (٤)

كما اعتبره صاحب كتاب التربية الاخلاقية الاسلامية من أهم العوائق الاخلاقية التي تحمّل دون رغبة المرء في الاعتقاد حين قال (من أهم العوائق الاخلاقية التي تحول دون رغبة المرء في الاعتقاد : التكبر .

” وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ” (٥) (٦)

ولذلك نجد القرآن الكريم يحد من هذه الظاهرة ويحطمها ، وذلك بعرض الصور المخزية الذليلة لأصحابها والتي تناسب كبرهم في الدنيا وفي الآخرة .

(١) تفسير الطبري ج ٢٤ ص ٤٢٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٥ ص ٣١٣

(٣) سورة الاعراف آية ١٤٦

(٤) احياء علوم الدين / الغزالي ج ٣ ص ٢٩٦

(٥) سورة البقرة آية ١٣

(٦) مقدار يالجن ص ١٩٧-١٩٨

أما في الدنيا :

أ - (فان الله يعقته على ذلك أشد العقاب) (١) (ومقت الله تعالى

: ذمه لهم ولعنه اياهم واحلال العذاب بهم) (٢)

ب - والمؤمنون أيضا يرفضون من تكون هذه صفته .

ج - ان الله (يطبع على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفا ولا ينكر منكرا) (٣)

(ولا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق) (٤) (فيصدر عنه أشال ما

ذكر من الاسراف والارتياح والمجادلة بغير حق) (٥)

يقول تعالى : ” الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ

وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا ” (٦)

وأما في الآخرة : فيقول تعالى :

” وَإِذْ يَتَخَاوَنُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا

نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۗ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّحَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ” (٧)

(يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من

جملتهم فيقول الاتباع للقادة والسادة والكبراء : انا أطعناكم فيما دعوتونا

اليه في الدنيا من الكفر ، والضلال فهل أنتم مغنون عنا قسطا تتحملونه من العذاب

(١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٥ ص ٣١٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٠ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٥ ص ٣١٣ .

(٥) روح المعاني / الأوسى ج ٢٤ ص ٦٨ .

(٦) سورة غافر آية ٣٥ .

(٧) سورة غافر آية ٤٧ ، ٤٨ .

قال الذين استكبروا : انا لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا ، وما حملنا
(١)
من العذاب والنكال ، فقد قسم الله بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منّا .

كما يقول سبحانه : ” ألم تر إلى الذين يبجلون في آيات الله أنى يصرفون ﴿٧٦﴾ الذين كذبوا
بالكتاب وبما أرسلنا به رسلكنا فستوفى يعلمون ﴿٧٧﴾ إذا أغلقت في أعينهم والسلاسل
يسحبون ﴿٧٨﴾ في الحميم تُرْفَعُ في النار يسجرون ﴿٧٩﴾ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ﴿٨٠﴾ من دون الله
قالوا ضلوا عما بل لم تكن تدعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين ﴿٨١﴾ ذلكم بما كنتم
تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴿٨٢﴾ ادخلوا الأبواب جهنم خالدين فيها فبئس
مَثْوًى للكافرين ﴿٨٣﴾ ” (٢)

فهذه الآيات (تهديد شديد ، ووعيد أكيد من الرب جل جلاله لهؤلاء
المجادلين إذ الأغلال في اعناقهم والسلاسل متصلة بأيدي الزنايين
يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ، كما قال

تعالى : ” هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذَّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَ حَمِيمٍ إِنْ ﴿٨٣﴾ ” (٣)

وتقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق
ومرحمكم ، وأشركم ، وطركم فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان ، والعذاب

الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه (٤)

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٨٤ .

(٢) سورة غافر آية ٧٠-٧٦ .

(٣) سورة الرحمن آية ٤٣-٤٤ .

(٤) تفسير القرآن العظيم / لابن كثير ج ٤ ص ٨٩ .

- صور كلها خزي ومهانة تناسب الكبر والمتكبرين ، ففي الأولى توضيح

عجزهم بعد أن كانوا يدعون القوة ، ويحتمون وراءها ، اذا بهم عاجزون يستبون مع الضعفاء لا أتباع ولا متبوعين بل الكل لا حول له ولا قوة .
وأما الصورة الثانية فقد اختار أهلها أن تكون طريقة وصولهم الى شواهم الأخير هي السحب والجبر كما تسحب البهيمة . . هذه اليد التي كانت تبطش ، وهذه الناصية التي استكبرت على أن تسجد لله ، ها هي تسحب وتجر جراً الى جهنم وبئس المصير .

والملاحظ أن في الآيات التي نحن بصدد ها ، لم يقل سبحانه فيقول الضعفاء للأقوياء بل قال " للذين استكبروا " كما أنه سبحانه لم يقل : وقال الذين كفروا بل قال " قال الذين استكبروا " ، ولم يقل فيئس مشوى الكافرين ، بل قال " فيئس مشوى المتكبرين " تذكيراً بأن هذا الموقف الذليل الصاغر في جهنم سببه : انتفاخ الصدور والاحساس بالعظمة وتناسي عظمة الله ، فكانت الخاتمة من الرب مناسبة للبداية التي صدرت منهم .

وفي ضوء الآيات الكريكات التي تتحدث عن هذا الخلق الخطير ، فان على الداعية أن يدرك حقيقتين هامتين وهو يواجه أمثال هؤلاء المتكبرين عن قبول الايمان .

١ - أن يطمئن نفسه أنه مهما بلغ كبر المتكبرين / لن يبلغوه ^{الانهم} يضمن

له ذلك قوله تعالى : (١)

” إِنَّ الَّذِينَ يَجِدُونَ فِيَّ آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِيهِ ”

وكما قال سيد قطب رحمه الله (ان هذا المخلوق الانساني
لينسى نفسه في أحيان كثيرة. لينسى أنه كائن صغير ضعيف يستمد القوة
لا من ذاته ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول، من الله فيقطع اتصاله
هذا ثم يروح ينتفخ ، ويورم ويتشامخ ويتعالى ، يحيك في صدره الكبر،
يستمد من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر ، ثم سلط على الانسان
فأناه من قبله) (١) ولكنه كبر زائف لأن الآية توكده بقوله تعالى :
” قَاهُمْ بِكِبْرِهِمْ “

وذا تنفي أهليتهم للكبر ان هم أقل من أن يكون لهم ذلك .

٢ - ثم هي تعلم الداعية كيف يواجه كبر المتكبرين فيستمد ذلك من

توجيه القرآن لخير البشر بأن يستعيز بالله : (٢)

” فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ “

كما أنه ليس وحده على الدرب فقد سبقه موسى حين قال لفرعون وطلته

كما قال سبحانه : (٣)

” وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ “

يقول صاحب الظلال : (فأما موسى عليه السلام فالتجأ الى الركن الركين

والحصن الحصين ، ولان بالجناب الذي يحمي اللائذين ويجير المستجيرين

قالها واطمان وسلم أمره الى المستعلى على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر،

القادر على حماية العائذين به من المستكبرين) (٤)

ومن هنا كان الأمر من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن

يجعل الله معاهه منهم فلاج يعبأ بما يبببتونه ، وهو سبحانه نعم الملجأ

والملاذ من هذا الشر الذي يستحق الاستعاذة بالله منه .

(١) في ظلال القرآن ج٥ ص ٣٠٨٩ .

(٢) سورة غافر آية ٥٦ .

(٣) سورة غافر آية ٢٧ .

(٤) سيد قطب ج٥ ص ٣٠٧٨ .

المطلب الثاني : الفرح والمرح بغير الحق .

المسألة الأولى : الفرح بغير الحق .

الفرح : (ضد الترحح ، وهو انشراح الصدر بلذة عاجلة

وأكرما يكون في اللذات البدنية ، فلهذا قال :

” وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ” (١)

وقال : ” وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ” (٢)

وقال : ” ذَلِكَ كَمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ” (٣)

وقال : ” حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ” (٤)

وقال : ” فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ” (٥)

وقال : ” إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ” (٦)

والفرح والمفرح : الكثير الفرح .

وما يسُرُّني بهذا الأمر مُفْرِحٌ ومَفْرُوحٌ به ، ورجل مُفْرِحٌ أَشْتَلَه الدين ،

وأفرحه : غم وأزال فرحه . وتقول : أفرحتني الدنيا ثم أفرحتني ، والهمزة

للسلب ، فكأن الإفراح يستعمل في جلب الفرح وفي إزالة الفرح ، كما أن

الإشكاء يستعمل في جلب الشكوى وفي إزالتها ، فالمدان قد أزيل فرحه

فلهذا قيل : لاغم الإغم الدين ، ويقال : المرء بين مفرحين ، قاعد بين

سلامة وحسين . (٧)

(١) سورة الحديد آية ٢٣ .

(٢) سورة الرعد آية ٢٦ .

(٣) سورة غافر آية ٧٥ .

(٤) سورة الأنعام آية ٤٤ .

(٥) سورة غافر آية ٨٣ .

(٦) سورة القصص آية ٧٦ .

(٧) انظر المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص ٣٧٥ ، بصائر ذوي التمييز / الفيروز آبادي ج ٤ ص ١٧٨ .

ومن هنا كان هناك فرح محمود وفرح مذموم :
أولا : الفرح الم محمود :

لقد بشر الله في قرآنه على المؤمنين بالفرح كما في قوله تعالى :

” وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ”

وفي هذا الجانب يقول الامام القرطبي / : (والفرح والنشاط محمود وقد

وصف الله تعالى نفسه بأحدهما ففي الحديث الصحيح .. ” لله أفرح

بتوبة العبد من رجل .. ” (٢) (٣)

الا أن صاحب كتاب المفردات في غريب القرآن وتبعه في ذلك

الفيروزابادي (٤) قيد الفرح الم محمود فقال : (ولم يرخص في الفرح الا

في قوله :

” فَيَذَلِّكَ فَلَيفِرْحُوا ” (٥)

(١) سورة الروم آية ٤٠

(٢) من حديث ورد في صحيح البخاري ، كتاب الدعوات باب التوبة

٠١٤٦/٧

(٣) الجامع لاحكام القرآن ج ١٠ ص ٢٦٠

(٤) المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص ٣٧٥ ، بمأثر ذوى

التحيز ج ٤ ص ١٧٨ والفيروزابادي هو : ابراهيم بن علي بن يوسف جمال الدين الفيروزابادي الشافعي قال النووي : ” الامام

المتقن المدقق ، ذو الفنون من العلوم المتكاثرات والتصانيف النافعة

الستجدات ” توفي سنة ٤٧٦ هـ (انظر ترجمته في طبقات

الشافعية للسبكي ٢١٥/٤ شذرات الذهب ٣٤٩/٣ ، وفيات

الاعيان ٩/١ ، تهذيب الاسماء واللغات ١٧٢/٢) .

(٥) سورة يونس آية ٥٨

وقوله: **﴿ وَيَوْمَذِيْقَرْحٍ الْمُؤْمِنُونَ ﴾** (١)

مع أن هناك آية أخرى في سورة آل عمران يقول فيها سبحانه عن

المؤمنين: **﴿ فَرِحِينَ بِمَاءِ الْوَرْدِ الَّذِي مَرَّ مِنْ فَمِّهِ ﴾** (٢)

وان ذهبنا الى أن الاصفهاني والفيروزآبادي لا يقصدان استقراء الآيات في القرآن كله بل يقصدان مواطن الفرخ المرخص بها من باب أن آية سورة الروم وآية آل عمران ككثيرهما تشلان الفرخ بفضل الله ، فهناك آية

سورة الرعد: **﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾** (٤)

ومن هنا فإنا أميل الى القاعدة التي وضعها الامام القرطبي حول هذا الموضوع

فقال: (وقد ذم الفرخ في مواضع كقوله:

﴿ لَا يَفْرَحُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (٥)

وقوله: **﴿ إِنَّهُ وَلَفْرَحٍ قَوْمٌ ﴾** (٦)

ولكنه مطلق ، فاذا قيد الفرخ لم يكن ذما ، لقوله:

﴿ فَرِحِينَ بِمَاءِ الْوَرْدِ الَّذِي مَرَّ مِنْ فَمِّهِ ﴾ (٧) (٨)

أى أن الفرخ حينما يأتي ذكره في الآيات مطلقا بلا قيد فهو فرح مذموم ،

فاذا قيد لم يكن ذما .

-
- (١) سورة الروم آية ٤ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٧٠ .
(٣) هو محمد بن محمود بن محمد بن عياد العجلي ، الطلق بشمس الدين الاصفهاني أبو عبدالله ولد بأصفهان ثم رحل الى بغداد فتعلم فيها ، ودرس بمصر وتولى القضاء فيها وكان اماما متكلما فقيها أصليا أديبا شاعرا منطوقيا ورعا متدينا كثير العبادة والمراقبة صنف في المنطق ، وأصول الفقه . توفي سنة ٦٨٨ هـ بالقاهرة (انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى ١٠٠/٨ ، شذرات الذهب ٥/٦٠٦٤ .)
(٤) سورة الرعد آية ٣٦ .
(٥) سورة القصص آية ٧٦ .
(٦) سورة هود آية ١٠ .
(٧) سورة آل عمران آية ١٧ .
(٨) الجامع لاحكام القرآن ج ٨ ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

وعلى هذا ، فالفرح المشار اليه في آيات سورة غافر هو الفرح المذموم على اختلاف آراء المفسرين حول المعنى المباشر للفرح هنا ، فهو مذموم سواء أكان المقصود به :

- أ - الفرح بالشرك والمعاصي والسرور بمخالفة الرسل والكتب وانكار البعث. (١)
- ب - أو الفرح بما يصيب أنبياء الله وأولياءه من المكاره. (٢)
- ج - أو الفرح بالمال والاتباع والصحة. (٣)
- د - أو كان فرح بطر وتكبر. (٤)

فأما قوله تعالى : ” ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ

تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَا فِيهَا مَشْوَى التَّكْوِينِ ﴿٧٦﴾ ” (٥)

(أى تقول لهم الملائكة هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، بشئ المنزل والمقيل الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه (٦) . وفي ذلك يقول صاحب التحرير والتنوير:

(وهذا الذم لهم مناسب تماما لما كان منهم في الدنيا ، استهزاء باستهزاء ، والكبر الذى كان نتيجة الفرح بغير الحق لمناسب لهم هذا المقام الدائم) (٧)

-
- (١) انظر تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٣٣ ، فتح القدير / الشوكاني ج ٤ ص ٥٠٢ ، تفسير الجلالين / السيوطي ص ٦٢٨ ، أيسر التفاسير / الجزائرى ج ٤ ص ١٠٠ .
 - (٢) روح المعاني / الألوسى ج ٢٤ ص ٨٦-٨٧ .
 - (٣) انظر تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٣٣ ، فتح القدير الشوكاني ج ٤ ص ٥٠٢ .
 - (٤) انظر روح المعاني / الألوسى ج ٢٤ ص ٨٦ ، ٨٧ ، فتح القدير الشوكاني ج ٤ ص ٥٠٢ .
 - (٥) سورة غافر آية ٢٥-٢٦ .
 - (٦) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٨٩ .
 - (٧) محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٢٠٦-٢٠٧ .

ثم تحدثت سورة غافر عن نوع آخر من الفرع المذموم ، يقول تعالى

عنه : ” فَمَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ” (١)

وذلك (لأنهم لما جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج القاطعات والبراهين الدامغات لم يلتفتوا اليهم ، ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم ما جاءتهم به الرسل) (٢) وقد أورد المفسرون أكثر من معنى حول المقصود بالفرح هنا منها (ما قاله مجاهد (٣) ان الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا نحن أعلم منهم لن نعذب ولن نبعث . وقيل : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو :

” يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ” (٤)

وقيل : ان أصل المعنى فلما جاءتهم رسلهم - أي الكفرة - بالبينات لم يفرحوا بما جاءهم من العلم فوصفوا موضعهم بما عندهم من الجهل ، ثم سمي ذلك الجهل علما لاغتيابهم به ووضعهم اياه مكان ما ينبغي لهم من الاغتياب بما جاءهم من العلم وفيه التهكم بفرط جهلهم والمبالغة في خلوهم من العلم (٥) وقد كان لصاحب الظلال وقفة أمام هذه الآية تحمل معنى آخر قال فيها : ” والعلم بغير

(١) سورة غافر آية ٨٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٩٠ .

(٣) هو مجاهد بن جبر المكي المخزومي مولاهم الامام التابعي الشهير

قال النووي اتفق العلماء على امامته وجلالته وتوثيقه فهو امام في

الفقه والتفسير والحديث . توفي سنة ١٠٣ هـ (انظر ترجمته في

تهذيب الاسماء واللغات ٨٣/٢ ، شذرات الذهب (١/١٢٥) .

(٤) سورة الروم ٧ .

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ، ج ٤ ص ٩٠ ، تفسير الطبري

ج ٢٤ ص ٥٨ ، الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١ ص ٣٢٦ ،

روح المعاني / الألسوسي ج ٢٤ ص ٨٧ .

ايمان فتنة ، فتنة تعمى وتطفى . ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهري يوحى بالغرور ان يحسب صاحبه انه يتحكم بعلمه هذا في قوى ضخمة ، ويملك مقدرات عظيمة ، فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها . وينسى الآ ما الهائلة التي يجهلها . وهي موجودة في هذا الكون ، ولا سلطان له عليها . بل لا احاطة له بها . بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة ، وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته ويستخفه علمه وينسى جهله . ولو قاس ما يعلم الى ما يجهل ، وما يقدر عليه في هذا الكون الى ما يعجز حتى عن ادراك سره لظامن من كبريائه ، وخفف من فرحه الذي يستخفه .

وهو " لا فرحوا بما عندهم من العلم واستهزأوا بمن يذكرهم بما وراءهم :
" وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون " .

فلما عاينوا بأس الله ، سقط عنهم القناع ، وأدركوا مدى الغرور ، واعترفوا بما كانوا ينكرون ، وأقروا بوحدانية الله ، وكفروا بشركائهم من دونه ،
ولكن الاوان / قد فات (١) .

وعلى هذا فالفرح المشار اليه في آيات سورة غافر هو الفرح المذموم على اختلاف آراء المفسرين حول المعنى المباشر له كما أشرت سابقا .

(١) في ظلال القرآن / سيد قطب ٣١٠١ / ٥ - ٣١٠٢ .

المسألة الثانية : في المرح بغير حرق

المرح : (شدة الفرح والتوسع فيه قال تعالى :

” وَلَا تَمْسِرْ فِي الْأَرْضِ مَرِحًا “

وقرى (مرحا) أي فرحا . (١)

وعلى ذلك فالفرح ، ضد الترح وهو انشراح الصدر بلذة

عاجلة . والمرح : شدة الفرح والتوسع فيه .

الا أن هناك من لم يفرق بين الفرح والمرح كالألوسي حين قال :

(المرح ، الفرح والبطر) . (٢) وأبو السعود حين قال (مرحا : أي فرحا) (٤)
والامام القرطبي حين كان يتحدث عن المرح .
والمعاني التي طرحها المفسرون بصدده . ثم قال : (وهذه

الاقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم ، والآخر محمود ،

فالتكبر والبطر والخيلاء وتجاوز الانسان قدره مذموم والفرح والنشاط
محمود . (٥)

(١) المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص ٤٦٦ والآية من سورة

الاسراء آية ٣٧ .

(٢) روح المعاني ج ٢١ ص ٩٠ .

(٣) هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، الحنفي ،

وهو من بيت عرف أهله بالعلم والفضل ، تتلمذ لكثير من جُلَّة

العلماء ثم عظم صيته وطارت شهرته ، فتولى التدريس في كثير من

المدارس التركية ثم القضاء ثم الفتوى وقام بها خير قيام ، الا أن

كل ذلك كان عائقا له عن التفرغ للتصنيف والنأليف الا ما كان

من كتابه التفسير وبعض الجواشي على تفسير الكشاف ، توفي سنة

٩٨٢ هـ بالقسطنطينية . (انظر وفيات الأعيان/٢٨٢-٣٠٥) .

(٤) ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ج ٧ ص ٧٣ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

الا أنني أميل الى ما ذهب اليه صاحب التحرير والتنوير حين قال :
(الفرح السرّة ورضا الانسان على أحواله ، فهو انفعال نفسي ، والفرح :
ما يظهر على الفرح من الحركات في مشيه ونظره ومعاملته مع الناس وكلامه
وتكبيره فهو هيئة ظاهرة) . (١)

ومن استقراء آيات القرآن الكريم نجد أن الآيات التي تتحدث عن
الفرح تنحصر في ثلاث آيات يقول الله تعالى في سورة الاسراء :

” وَلَا تَمْسِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا “ (٢)

كما يقول في سورة لقمان أيضا :

” وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا “ (٣)

وأخيرا في سورة غافر :

” ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن كُنتُمْ تَمْرَحُونَ “ (٤)

والتي يتضح من خلالها أن الفرح مذموم كله بلا استثناء وكل ما ذهب اليه
المفسرون من أقوال حين ذهب بعضهم الى أن المقصود به التوسع في
الفرح حتى ينسى المرء الآخرة ويشغل بالنعمة عن النعم (٥) ، وذلك
يتجاوز الانسان قدره (٦) ويدخل في ذلك الزيادة في البطر والاشتر (٧)

(١) محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٢٠٦ - ٢٠٢ .

(٢) آية ٣٧ .

(٣) آية ١٨ .

(٤) آية ٧٥ .

(٥) انظر روح المعاني / الألويسي ج ٢٤ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٠ .

(٧) انظر الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٠ ، روح المعاني

في الألويسي ج ٢١ ص ٩٠ ، فتح القدير / الشوكاني ج ٤ ص

والخيلاء والتبخر والتكبر في العسي (١) كما يدخل فيه العدوان .
ولذلك استحق النهاية المناسبة والتي شرحتها سورة غافر في قوله تعالى :

”الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ يَمْجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي نُضِرُّهُمْ إِذِ الْأَعْيُنُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ وَالسَّكِينِ يُسْجَبُونَ
وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَتَوَفَّيْتُمُوهُمْ إِذِ الْأَعْيُنُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ وَالسَّكِينِ يُسْجَبُونَ
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ ذَلِكَ
بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنتُمْ تَتَرَحَّمُونَ ﴿٧٩﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨٠﴾“ (٢)

(١) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٣ ص ٤١ ، ٤٤٧ ، الجامع
لاحكام القرآن / القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٠ ، روح المعاني / الألويسي
ج ١ ص ٧٥ ، فتح القدير / الشوكاني ج ٤ ص ٥٠٢ ،
تفسير أبو السعود / ج ٥ ص ١٧٢ .

(٢) سورة غافر آية ٦٩ - ٧٦ .

المطلب الثالث : الاسراف .

السرفه (دويبة تأكل الورق وسمي الاسراف بذلك لتصور

معنى الاسراف فيه ، يقال : سُرِفَت الشجرة فهي مسروفة) (١) (وأرض

سرفه كثيرة السرف ورجل سرف الفواد وسرف العقل ، فاسده) . (٢)

(وقولهم : مررت بكم فسرفتكم أي جهلتكم ، ومن هذا يتضح أنه تجاوز

ماله يمكن حقه أن يتجاوز فجعل فلذلك فسربه .

فالسرف : تجاوز الحد في كل فعل يفعله الانسان وان كان ذلك

في النفاق أشهر ، قال تعالى : (٣)

” وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ،

وقال : ” وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إَسْرَافًا وَبِدَارًا ” (٤)

وقوله : ” يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ” (٥)

فتناول الاسراف في المال وفي غيره . ويقال تارة اعتبارا بالقدر وتارة بالكيفية ،

ولهذا قال سفيان (٦) : ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف ، وان كان

(١) انظر المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص ٢٣٠-٢٣١ .

(٢) بصائر ذوي التمييز / الفيروزابادي ج ٣ ص ٢١٦ .

(٣) سورة الفرقان آية ٦٧ .

(٤) سورة النساء آية ٦ .

(٥) سورة الزمر آية ٥٣ .

(٦) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون ، الكوفي ثم المكي ، المهلبي

مولا هم ، أبو محمد وهو من تابعي التابعين ، قال النووي :

” روى عنه خلائق لا يحصون من الأئمة ، واتفقوا على إمامته وجلالته

وعظم مرتبته ، ولم يكن له كتب ، وحج سبعين حجة ومناقبه كثيرة

قليلاً ، قال الله تعالى :

(١) « وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »

وقال : (٢) « وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ »

أى المتجاوزين الحد في أمورهم وقال :

(٣) (٤) « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ »

هذا التجاوز قد يأتي في القرآن الكريم بهذا المعنى بلا قيد كما ذهب الى ذلك الامام النسفي وصاحب تفسير الجلالين (٥) عند قوله تعالى :

(٦) « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ »

وأحيانا يأتي مقيدا بالشرك ، كما ذهب الى ذلك ابن كثير ، والقرطبي ، والالوسي والنسفي (٧) عند قوله تعالى :

(٨) « وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِإِيْتِ رَبِّهِ وَعَلَّابٌ لَاحِرٌ غَدَابٌ »

وقوله : « وَقَدْ جَاءَكَ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيْتِ فَأَرْتَمَهُ فِي سَكِّ مِمَّا جَاءَكَ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ » (٩)

فالاسراف هو الشرك والمسرفون هم المشركون من باب أن الاشراك اسراف

==== مشهور . وكان اماما مجتهدا ، توفي بمكة سنة ١٩٨ هـ ودفن

بالحجون (انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ١/ ٢٦٢ تاريخ بغداد

١/ ١٧٤ ، حلية الاولياء ٧/ ٢٧٠ ، طبقات الغسرين ١/ ١٩٠ ،

وفيات الاعيان ٢/ ١٢٩) .

(١) سورة الانعام آية ١٤١ .

(٢) سورة غافر آية ٤٣ .

(٣) سورة غافر آية ٢٨ .

(٤) المفردات في غريب القرآن / الاصفهاني ص ٢٣٠-٢٣١ .

(٥) تفسير النسفي ج ٤ ص ٧٧ .

تفسير الجلالين / السيوطي ص ٦٤١ .

(٦) سورة غافر آية ٢٨ .

(٧) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٨٢ / الجامع لاحكام القرآن ج ٥ ص ٣١٣

روح المعاني ج ٤ ص ٧٢ / تفسير النسفي ج ٤ ص ٨٠ .

(٨) سورة طه آية ١٢٨ .

(٩) سورة غافر آية ٣٤ .

في الضلالة ، وأحيانا يأتي مقيدا بالمعصية كما في آية سورة غافر السابقة (وهذا ما ذهب اليه الألويسي والنسفي) (١) او مقيدا بالكذب كما في قوله

تعالى : (٢)

” ثُمَّ صَدَقْتَهُمْ بِالْوَعْدِ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءِ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ① “

وقال مجاهد والشعبي (٣) المسرفون : هم السفهاء والسفاكون للدماة بغير

حقها ، وقال عكرمة (٤) : الجبارون والمتكبرون .

وقيل : كل من غلب شره خيره فهو مسرف .

(١) روح المعاني ج ٢٤ ص ٦٨ ، تفسير النسفي ج ٤ ص ٧٨ عند

قوله تعالى ” ولقد جاءكم يوسف من قبل .. “

(٢) سورة الأنبياء آية ٩ .

(٣) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار / الشعبي ، أبو عمرو ،

وهو من حمير ، وهو تابعي كوفي قال ابن خلكان : ” جليل

القدر ، وافر العلم ، عالم الكوفة ” له مناقب وشهره ، توفي بالكوفة

سنة ١٠٣ هـ وقيل غير ذلك ، وقد أدرك خمسمائة من الصحابة

أو أكثر (انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ١٢٧/٢ ، طبقات

المفسرين ١٨٦/١ ، تاريخ بغداد ١٥١/٩ ، تذكرة الحفاظ

٢٠٣/١ ، حلية الأولياء ٣٥٦/٦ ، صفة الصفوة ١٤٧/٣) .

(٤) هو عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس أبو عبد الله ، أحد فقهاء مكة

من التابعين الأعلام ، أصله بربري من أهل المغرب توفي سنة ١٠٤ هـ

وقيل غير ذلك ، انظر ترجمته في تهذيب الأسماء واللغات

٣٤٠/١ ، شذرات الذهب ١٣٠/١ ، وفيات الأعيان ٤٢٧/٢ ،

طبقات المفسرين للداودي ٣٨٠/١) .

(١)

وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله ، وهذا جامع لما ذكر .

الا أن المعنى الشائع في القرآن للاسراف هو الخروج عن حد الاعتدال في معارضة الايمان بالله وهذا ما أشار اليه صاحب كتاب " من مفاهيم القرآن " حين قال : (تأتي كلمة الاسراف في القرآن الكريم في كثير من دلالتها بمعنى الخروج عن حد الاعتدال في معارضة الايمان بالله والمسرف بهذا المعنى الكثير الشائع فيه : هو من يتشدد في معارضته للايمان ويبالغ في الكفر بالله) . (٢)

فنقرأ ما جاء في قصة الرجل المؤمن من آل فرعون في قوله تعالى :

” وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ” (٣)

فبعد أن وضح مؤمن آل فرعون حجته على طريقة التقسيم ختمها بقوله :

(ان الله لا يهدي من هو مجاوز للحد كذاب في ادعائه وقد أوهم أنه عنى

بالمسرف موسى وهو يعني به فرعون) (٤) فهو تعريض بفرعون بأنه مسرف

سواء في عناده (٥) أو في قتله ، وفساده ، كذاب في ادعائه الربوبية ،

لا يهديه الله تعالى سبيل الصواب ومنهاج النجاة . (٦)

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣١٧ - ٣١٨ ، روح المعاني ج ٢٤ ص ٧٢ .

(٢) محمد البهي ص ٢٤٨ .

(٣) سورة غافر آية ٢٨ .

(٤) تفسير النسفي ج ٤ ص ٧٧ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٨ .

(٦) روح المعاني / الألويسي ج ٢٤ صفحة ٦٥ .

فالحكم هنا بأن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (يتناول فرعون
أولا ... ثم من هو على شاكلته ومن طئه . وفرعون وطلوه . كانوا من
أشد المعارضين لرسالة موسى والإيمان بالله .) (١)

وعلى هذا النحو ما جاء في قصة يوسف عليه السلام :
” وَقَدْ جَاءَكَ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيْتِ فَمَارَ لَتَمَّ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكَ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ
لَا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ” (٢)

فالمسرفون هنا (أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولا يدعو إلى الله
تعالى أمته بالقسط فما أطاعوه تلك الطاعة الا بمجرد الوزارة والجاه
الدنيوي ولهذا قال الله تعالى ” فما زلتم في شك . . . ” أى يستم فقلتم
طامعين : لن يبعث الله من بعده رسولا وذلك لكفرهم وتكذيبهم
وكحالهم هذا يكون حال من يضل الله لاسرافه في أفعاله وارتباب قلبه) (٣)
(من المشركين الشاكين في وحدانية الله تعالى) (٤) (لغلبة الوهم
والانهماك في التقليد) . (٥)

وأخيرا وفي ضوء سورة غافر وردت لفظة الاسراف على لسان مؤمن

آل فرعون للمرة الثالثة حين دعاه قومه إلى عبادة أوثانهم فقال لهم :
” لَأَجْرَمَ أَنْ تَأْتُوا عُنْوَني إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدًّا نَأْتِي إِلَيْهِ اللَّهُ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ
هُمُ أَصْحَابُ النَّارِ ” (٦)

(١) من مفاهيم القرآن / محمد البهي ٢٤٩ .

(٢) سورة غافر آية ٣٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٠ .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرطبي ج ١٤ ص ٣١٣ .

(٥) روح المعاني / الألويسي ج ٢٤ ص ٦٨ .

(٦) سورة غافر آية ٤٣ .

فيقول لهم ذلك الموء من (ما بالي أدعوكم الى النجاة وهي عبادة

الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم الذي بعثه ،
فتدعونني لا كسفر بالله وأشرك به على جهل بلا دليل والخير أن مردنا
الى الله في الدار الآخرة فيجازى كلا بعمله ولهذا قال :

” وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾“

أى خالدين فيها باسرافهم وهو شركهم بالله عزوجل (١) وان كنت أميل
الى ما ذهب اليه صاحب كتاب التحرير والتنوير حين قال : ان الاسراف الذى
ورد على لسان الموء من { يراد به هنا سفك الدم بغير حق ليصرف فرعون
عن قتل موسى عليه السلام ، والوجه : أن يعم أصحاب الجرائم والآثام ،
والتعريف فيه تعريف الجنس المفيد للاستفراق وهو تعريض بالذين يخاطبهم
ان هم مسرفون على كل تقدير ، فهم مسرفون في افراط كفرهم بالرب الذى دعا
اليه موسى ومسرفون فيما يستتبعه ذلك من المعاصي والجرائم (٢) ،
ومذلك يكون الاسراف هنا معنى عاها تدخل فيه جميع الوجوه التى عرضت
سابقا والتي أوردها الامام القرطبي والالوسي في تفسيريهما . (٣)

ونخرج من كل ما مضى أن العقيدة السليمة هي التى تحفز نحو
السلوك الطيب وانتفاء العقيدة أو انحرافها يقود الى كل الاحتمالات السلبية
والتفكك والانحراف ان لم يكن الى الكفر ، وعليه فلا مكانة للأخلاق بغير
عقيدة ، وقد تنقلب الأخلاق الى شواكل معكوسة من السلوك الذميمة الذى

(١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ١٥٦ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣١٧ - ٣١٨ روح المعاني ج ٢٤

يتمثل في الرذائل والفواحش على اختلافها ، وما نعيشه اليوم مخيما على سماة
غالبية الجيل المسلم من اضطرابات خلقية لهوموه شر خطير على عدم ثبات
العقيدة في النفوس ، لأنه اذا ما علمنا أن الجيل الأول حين عاش العقيدة
الصحيحة فأصبح سيد العالم وفتح القلوب بأخلاقه كما فتح البلاد بجهاده
فأخشى أن تكون هذه الاضطرابات الخلقية التي تعيشها الاجيال هي الوسيلة
لاغلاق القلوب ، يقول كات ستيفنز والذي يعرف بيوسف اسلام بعسد
اسلامه (حمدت الله على أنني اعتنقت الاسلام قبل أن اجتمع بأحد من
المسلمين وقبل أن أتعرف على خلفاتهم) . (١)

ولربط أخلاق الأمة بالعقيدة لا بد أن يسعى الدعاة وفي ضوء ذلك

تكون الدعوة الى الله .

(١) توجيهات اسلامية / محمد زينو ص ٢٢٠

البَابُ الثَّانِي

أَسَالِيْبُ الدَّعْوَةِ فِي سُورَةِ

غَاْفِرٍ

ويشتمل عَلَى ثَلَاثَةِ فُصُولٍ :

الفصل الأول : أسلوب الجدل .

الفصل الثاني : أسلوب القصة .

الفصل الثالث : أسلوب الترغيب

والترهيب .

الفصل الأول

أسلوب الجدل .

ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الجدل لغة واصطلاحًا .

المبحث الثاني : أقسام الجدل .

المبحث الثالث : الموضوعات التي جادل فيها القرآن من خلال السورة .

المبحث الرابع : المجادلات التي وردت في السورة .

المبحث الخامس : أهمية الجدل للداعية .

المبحث الأول :

تعريف الجدول لغة واصطلاحًا .

الفصل الأول

أسلوب الجدول
المبحث الأول : تعريف الجدول لغة واصطلاحاً

أولاً - في اللغة :

الجدول مشتق من الجدول ، وهو شدة الفتل ، نقول : جدلت الحبل أجده جديلاً إذا شددت فتله وفتلته فتلاً محكماً .

قال ابن سيده (١) : جَدَلُ الشَّيْءِ يَجِدِلُهُ جَدَلًا ، أَحْكَمُ فَتْلَهُ ،
ومنه قول امرؤ القيس : (٢)

وكشج لطيف كالجديل مُخَصَّر

وساق كأنبوب السقي المذلّل (٣)

والجدل : كل عظم مؤفر كما هو لا يكسر ، ولا يخلط به غيره .

(١) هو أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي ، المرسي ، الضري ،

المعروف بابن سيده ، ولد بمرسيه ، كان عالماً بالنحو واللغة والأشعار ، وأيام العرب وما يتعلق بعلومها ، توفي بدانيه سنة ٤٥٨ هـ (انظر ترجمته في : وفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٤٣١ ، البداية والنهاية لابن كثير ، ١٢ / ٩٥ ، شذرات

الذهب لابن العماد ٣ / ٣٠٥) .

(٢) هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي ، الشاعر الجاهلي المشهور ،

اللقب بذى القروح ، قال ابن خالويه ، لأن قيصر أرسل اليه حلة مسمومة فلما لبسها أسرع السم اليه ، فثقب لحمه ، فسمي ذالقروح .

(انظر ترجمته في : الشعر والشعراء ١ / ٥٢ - ٨٦ ،

تهذيب الأسماء واللغات ١ / ١٢٥) .

(٣) شرح ديوان امرؤ القيس ص ٣٥ .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها " العقيقة تقطع جُدُولا لا يكسر لها عظم " (١) والجُدُول : جمع جَدَلٍ وجِدَلٍ بالفتح والكسر وهو العضو .

والجَدَلُ : الصرْع . وجَدَلَهُ جَدَلًا وجَدَلَهُ فانجدل وتجدل : صرعه على الجدالة وهو مجدول ، وقيل للصرع مجدَلٌ لأنه يصرع على الجدالة . (٢)

قال الزمخشري (٣) : طعنه فجدله أى ألقاه على الجدالة وهي الأرض . (٤)

(١) الفتح الرباني ، أحمد البنا ج٣ / كتاب الذبائح باب : وقت العقيقة وتسمية المولود ، الزوائد ص ١٣٠ / وقال صاحب المستدرک : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، قلت - أى البنا - وأقره الذهبي .

(٢) انظر لسان العرب / ابن منظور / ج ١١ ص ١٠٣ .

(٣) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري ، جار اللسه ، أبو القاسم ، علامة التفسير والحديث والنحو واللغة والبيان ، صاحب المصنفات الحسان في الفنون المختلفة ، أشهر كتبه " الكشاف في التفسير " و " أساس البلاغة " في اللغة ، وله غيرها كثير ، توفي سنة ٥٣٨ هـ (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤ / ٥٤ وما بعدها ،

طبقات المفسرين للداودي ٢ / ٣١٤ ، شذرات الذهب ٤ / ١١٨) .

(٤) أساس البلاغة ص ٥٣ .

وفي حديث علي حين وقف على طلحة^(١) وهو قتيل فقال :
"أعزُّ عليَّ أبا محمد ان أراك مجدلاً تحت نجوم السماء أي طلق علي
الأرض قتيلًا".^(٢)

- والاسم ، الجَدَل : وهو شدة الخصومة .
- والجَدَل ، اللد في الخصومة والقدرة عليها .
- والجَدَل : مقابلة الحجة بالحجة .
- والمجادلة : المناظرة والمخاصمة .
- ورجل جَدِلٌ ومِجدلٌ ومِجدالٌ : شديد الجدَل .
- ورجل جَدِلٌ : اذا كان أقوى في الخصام .
- ويقال : جادلت الرجل فجدلته جدلا : أي غلبته .
- وجادله : أي خاصمه مُجادلة وجدالاً .
- وقوله تعالى :

"وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ"^(٣)

قال أبو اسحق : قالوا معناه : لا ينبغي للرجل أن يجادل أخاه فيخرجه
الوما لا ينبغي .

-
- (١) هو ابن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ، القرشي التيمي المالكي
أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، له عدة أحاديث عن النبي
صلى الله عليه وسلم ، قتل على يد مروان بن الحكم سنة ٣٦ هـ
(انظر ترجمته : حلية الأولياء ٨٧/١ ، صفة الصفوة ، ١/١٣٠ ،
أسد الغابة ٨٥/٣ ، الاصابة ٢٣٢/٥ - ٢٣٥ ، سير أعلام
النبلاء للذهبي ٢٣/١ - ٤٠) .
- (٢) لسان العرب ج ١١ ص ١٠٣ - ١٠٤ (والحديث موجود في :
سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٣٦) . قريبا منه .
- (٣) سورة البقرة آية ١٩٧ .

وفي الحديث : " ما أوتي الجدل قوم الا ضلوا " (١) ، يقول صاحب لسان العرب : (والمراد في الحديث الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لا لظهار الحق) (٢) .

ثانيا - الجدل اصطلاحا :

قال صاحب التعريفات : (الجدل : دفع المرء خصمه عن افساد قوله بحجة ، أو شبهة وهو الخصومة في الحقيقة ، والغرض منه الزام الخصم ، وافحام من هو قاصر عن ادراك مقدمات البرهان) (٣) .

وقال صاحب كتاب الكليات (الجدل : هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن افساد قوله بحجة أو شبهة وهو لا يكون الا بمنازعة غيره) (٤) .

وقال صاحب كتاب مفتاح السعادة (علم الجدل : هو علم باحث عن الطرق التي يُقتدر بها على إبرام أي وضع أو يد على هدم أي وضع كان والغرض منه تحصيل ملكة الهدم والابرام) (٥) .

-
- (١) اخرج الامام أحمد في مسنده قريبا منه من حديث أبي أمامة جده ص ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، كما أخرج ابن ماجه في سننه قريبا منه ، ما نصه (عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ج : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل " ثم تلا هذه الآية " بل هم قوم خصمون " الزخرف ٥٨) ج ١ باب اجتناب البدع والجدل ، حديث رقم ٤٨ ص ١٩ .
- (٢) لسان العرب / ابن منظور ج ١١ ص ١٠٣ - ١٠٥ .
- (٣) الجرجاني ص ٧٤ - ٧٥ .
- (٤) أبو البقاء العكبري ج ٢ ص ١٧٢ .
- (٥) مفتاح السعادة ومصباح السيادة / طاش كبرى زاده ج ١ ص ٢٨١ .

وعلى هذا فخلاصة التعريف : ان الجدل هو : المنازعة أو الخصومة بين طرفين لا لاظهار الصواب بل الغرض منه هو الزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال .

فاذا خرجت عن ذلك الغرض الى غرض آخر ، وهو الوصول الى الصواب كانت مناظرة .

يقول صاحب كتاب التعريفات : (هي النظر بالبصيرة من الجانبين ، في النسبة بين الشئيين اظهارا للصواب) . (١)

ويقول صاحب كتاب مفتاح السعادة (وهو علم يبحث عن كيفية ايراد الكلام بين المناظرين لئلا يقع الخبط في البحث فيوضح الصواب) . (٢) والنتيجة أن المناظرة هي الأولى بالاعتبار من الجدل .

والسؤال : أن الأصل في الأمر أنه من المحال أن يأمر الله بغير طريق الصواب ، أو يجعل رسله يسلكون غيره ، فكيف تكون المناظرة هي الأولى بالاعتبار من المجادلة ، والقرآن يأمر بالجدل في قوله تعالى :

” وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ” (٣)

وقوله : (٤) ” وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ”

-
- (١) الجرجاني ص ٢٣٢ .
(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة / طاش كبرى زاده ج ١ ص ٢٨٠ .
(٣) سورة النحل آية ١٢٥ .
(٤) سورة العنكبوت آية ٤٦ .

والرد كما يرى الامام أبو زهرة^(١) قائلا : ان الجدل قد يطلق في اللغة ويراد منه المناظرة وعلى هذا فالجدل في الآيات المقصود منه المناظرة ، ومن هنا قال ابن خلدون^(٢) في مقدمته : وأما الجدل فهو معرفة آداب المناظرة^(٣) .

وان كنت أرى غير ذلك لأن المناظرة تكون بين طرفين كلهم يهدف الى الصواب كما يقول صاحب التعريفات^(٤) ، ولما علم الله عنهم أنهم لا يهدفون الى الحق بل يقصدون العناد واللجاج ، والجدل بقصد الهدم قال لرسوله : " وجادلهم " ولكن " بالتي هي أحسن " ولهذا أصل عند صاحب المصباح المنير ، الذي قال " ان أصل الجدل : المخاصمة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها وهو محمود ، ان كان للموقوف على الحق والا فمذموم " .^(٥)

(١) هو محمد بن أحمد أبو زهرة ، من أكبر علماء الشريعة الاسلامية في عصره ولد بمدينة المحلة الكبرى ، وتعلم بمدارس القضاء الشرعي ، وتولى تدريس العلوم الشرعية والعربية ثلاث سنوات ، وبدأ اتجاهه الى البحث العلمي في كلية أصول الدين والتي عين بها استاذاً محاضراً للدراسات العليا كما كان عضواً للمجلس الأعلى للبحوث العلمية ، أصدر من تأليفه أكثر من ٤٠ كتاباً ، وتوفي سنة ٣٩٤ هـ (انظر الاعلام ٦ / ٢٥) .

(٢) هو ولي الدين ، أبو زيد ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد ابن الحسن الحضرمي ، الاشبيلي ، التونسي ، المعروف بابن خلدون ولد بتونس ونشأ بها ، وطلب العلم متنقلاً من بلد الى أخرى الى ان رجع الى تونس فأكرمه سلطانها ، الا ان الواشين سعوا به عند السلطان ما اضطره الى الفرار للشرق ثم انتقل الى القاهرة وظل بها الى أن توفي سنة ٨٠٨ هـ (انظر ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد ٢ / ٧٦ - ٧٧) ظهر الاسلام لأحمد أمين ٣ / ٢٢٥ ت ٢٢٨ ، معجم المؤلفين ١٨٨ / ٥ - ١٨٩) .

(٣) تاريخ الجدل ص ٦ .

(٤) الجرجاني ص ٢٣٢ .

(٥) انظر المصباح المنير / الفيومي ١ / ٤٤ .

وقول صاحب لسان العرب حين أورد قوله صلى الله عليه وسلم :
" ما أوتي الجدل قوم الا ضلوا " (١) قال : والمراد به في الحديث الجدل
على الباطل ، وطلب المغالبة به لا لإظهار الحق فان ذلك محمود لقوله

عز وجل :

(٢)
" وَجَدَلُوا بِاللَّهِ هِيَ أَحْسَنُ "

وسورة المجادلة :

(٣)
" قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ "

وهما يتجادلان في ذلك الأمر . (٤)

وعلى هذا فالخلاصة أن الجدل له معان متعددة فهو :

١ - يأتي بمعنى اللدد والشدة في الخصومة .

٢ - ويأتي بمعنى مقابلة الحجة بالحجة .

٣ - ويأتي بمعنى مراجعة الكلام .

وبكل منها ورد القرآن .

فأما ما كان بمعنى اللدد والشدة في الخصومة فقد قال تعالى :

(٥)
" مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا "

وقال : (٦)

" وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ "

(١) سبق تخريجه .

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٣) سورة المجادلة آية ١ .

(٤) ابن منظور / ج ١١ ص ١٠٥ .

(٥) سورة الزخرف آية ٥٨ .

(٦) سورة غافر آية ٥ .

وأما ما كان بمعنى مقابلة الحجة بالحجة فقد قال تعالى :
”وَجَدْتَهُم بِاللَّيْلِ إِذَا يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ“ (١)

وقال : ”وَلَا يُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِاللَّيْلِ إِذَا يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ“ (٢)

وأما ما كان بمعنى مراجعة الكلام ، فقد قال تعالى :
”قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَمَّ وَأُورِكَ مَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ“ (٣)

ومن هنا كان لا بد لنا من الحديث عن أقسام الجدل بالتفصيل

تتمة لهذا البحث ، وهذا ما سنتطرق له في البحث القادم ان شاء

الله .

- (١) سورة النحل آية ١٢٥ .
- (٢) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
- (٣) سورة المجادلة آية ١ .

المبحث الثاني :
أقسام الجدول .

أولاً : الجدول الممدوح .
ثانياً : الجدول المذموم .

البحث الثاني : أقسام الجدل

قبل أن نتحدث عن أهمية الجدل للداعية كأسلوب من أساليب دعوته قد يعترضنا سؤال وهو كيف نوفق بين كون الجدل وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله وبين ذم القرآن للجدل ولا سيما أن محور سورة غافر كسله يدور حول/الجدل، والمجادلين والحكم عليهم بالكبر والكفر وتصوير نهاياتهم السيئة، وهذا التوفيق يأتي من معرفة أن الجدل منه ما هو مذموم، ومنه ما هو مدوح .

وبيان ذلك يتضح فيما يلي :

أولا - الجدل المدوح :

حين نتحدث عن الجدل وسيلة إلى الدعوة إلى الله فنحن نتحدث عن الجدل المدوح الذي هو منهج لتقرير الحق ونصرة، والدعوة إليه والذب عن دين الله ورد الشبه والشكوك وتوضيح الحقائق، ومقارعة الباطل بالحجة، والبرهان كما أقره القرآن الكريم آتيا :

(١) ”ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ“

والذي هو حرفه الانبياء عليهم السلام ، قال تعالى لمحمد - صلى الله عليه

وسلم : ”وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ“

وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام :

”يُنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْشَرْتَ جِدْلَنَا“ (٢) (٣)

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) سورة هود آية ٣٢ .

(٣) انظر التفسير الكبير / الفخر الرازي ج ٧ ص ٢٩٠ .

والذى هو جهاد في سبيل الله ، يقول صاحب الانصاف : (وأما الجدل فيها - أى في آيات الله - لا يوضح ملتبسها وحل مشكلها ومقارحة العلماء في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ عنها وبها ، فأعظم جهاد فسي سبيل الله) (١) بل هو الجدل الواجب ، يقول صاحب فتح البارى في حديث وفد نجران : (جواز مجادلة أهل الكتاب وقد تجب اذا تعينت مصلحته) (٢) ، ومن هنا تتبع أهمية الجدل كوسيلة للدعوة الى الله لأن من وظيفة الداعية تقرير الحق و قطع حجج المعاندين وحسم دعواهم وافحامهم ، ومع ذلك فهذا موضوع جد خطير فنحن لا نطرحه كوضوح مطلق نترك فيه للنفس العنان دون حدود ولا قيود بسبل نتبعه في ضوء المنهج الذى رسمه القرآن الكريم في ظل الآيات الخالدات وتحت الحدود التى أوضحها لنا سلف الأمة أثابهم الله والتى هي :

أولا : قوله تعالى :

(٣)

” هَآئِنَّمْ هَؤُلَاءِ جِئْتُمْ فِيهَا الْكُرْبَىٰ عِٰلَمٌ فَلَمْ يَخَاجُونِ فِيهَا لِكُرْبَىٰ عِٰلَمٌ “

وفي ضوء هذا نرى أن الجدل المأمور به لا بد أن يكون بعلم ، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله (والله لا يأمر المؤمن أن يجادلوا بمقدمته يسلمها الخصم ان لم تكن علما ، فلو قدر أنه قال باطلا لم يأمر الله أن يحتج عليهم بالباطل لكن هذا قدر / يفعل لبيان فساد قوله وبيان تناقضه

(١) الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (بحاشية الكشاف)

/ ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير ج ٣ ص ٤١٣ .

(٢) ابن حجر العسقلاني ج ٨ ص ٩٥ .

(٣) سورة آل عمران آية ٦٦ .

لا لبيان الدعوة الى القول الحق والقرآن مقصوده بيان الحق ودعوة العباد اليه وليس المقصود ذكر ما تناقضوا فيه من أقوالهم . (١)

ويقول الامام القرطبي رحمه الله موضعا عند تفسيره هذه الآية :

(في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له والحظر على من

لا تحقيق عنده وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وايقن فقال تعالى :

(٢) ” وَجَادِلْهُمْ بِالذِّهْنِ أَحْسَنَ “

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال يا رسول

الله ان امرأتي ولدت غلاما أسود ، فقال هل لك من ابل ؟ قال : نعم ،

قال : ما لونها ؟ قال حمر . قال : هل فيها من أورك ؟ قال : نعم

قال : فمن أين ذلك ؟ قال : لعل عرقا نزعته ، فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم - وهذا الغلام لعل عرقا نزعته (٣) وهذه حقيقة الجدال

ونهاية في تبين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤)

ثانيا : في قوله تعالى :

(٥) ” ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالذِّهْنِ أَحْسَنَ “

(١) الرد على المنطقيين ص ٤٦٨

(٢) سورة النحل آية ١٢٥

(٣) صحيح البخارى ج ٨ كتاب الحدود وما يحذر من الحدود باب ٤١

ما جاء في التعريف ص ٣١

(٤) الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ١٠٨-١٠٩

(٥) سورة النحل آية ١٢٥

وفي ضوءها نرى أن الجدال لا يبدأ به في الدعوة وإنما يكون من باب دفع الصائل الذي يأتي بعد الحكمة والموعظة الحسنة يقول ابن تيمية يرحمه الله (وأما الجدل فلا يدعى به ، بل هو من باب دفع الصائل فإذا عارض الحق معارض جودل والتي هي أحسن . . . فإدام الرجل قابلاً للحكمة والموعظة الحسنة أولهما جميعاً لم يحتج إلى مجادلة فإذا مانع جودل والتي أحسن (١) .

وعلى هذا فالجدال المدوح هو (كل جدال أيد الحق أو أفضى إليه بنية خالصة وطريق صحيح) (٢) .

*

ثانياً - الجدال المذموم :

إن الله حين ذم الجدل والمجادلين في آيات سورة غافر وغيرها من آيات القرآن الكريم فهو قد ذم الجدل كظاهرة للجحود والشك الذي يؤدى للكفر وخاصة فيما يتعلق بالعقائد كالجدال في :

١ - ذات الله جل ثناؤه وفي صفاته وأسمائه ، كما قال تعالى :

(٣) *وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِجَالِ* ﴿١٣﴾

يقول صاحب كتاب جامع بيان العلم وفضله : (وقد نهى السلف - رحمهم الله عن الجدال في الله - جل ثناؤه - في صفاته وأسمائه) وعلل ذلك بقوله : (لأن الله عز وجل لا يوصف عند جماعة

(١) انظر الرد على المنطقيين ص ٤٦٨ .

(٢) مناهج الجدل / زاهر بن عواض الألمعي ص ٥٥ .

(٣) سورة الرعد آية ١٣ .

أهل السنة إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله أو أجمعت الأمة عليه وليس كمثل شيء فيدرك بقياس أو بانعام نظر، وقد نهينا عن التفكير في الله وأمرنا بالتفكر في خلقه الدال عليه . (١)

ويقول صاحب الكشاف عند قوله تعالى :

” وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ “ (٢)

(نزلت في النضر بن الحرث (٣) وكان جدلاً يقول : الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين والله غير قادر على أحياء من بلى وصارت تراباً ، وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال ولا يرجع إلى علم ولا يعرض فيه بضرر قاطع وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخطب خبط عشواء غير فارق بين الحق والباطل) . (٤)

(١) انظر : ابن عبد البر النمري ، القرطبي ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) سورة الحج آية ٣ .

(٣) هو النضر بن الحرث بن علقمة بن كده بن عبد مناف ، وكان كما يقول ابن اسحاق من شياطين قريش ، ومن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : (فإيا بلسفني نزل فيه ثمان آيات من القرآن : قول الله عز وجل : إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين وكل ما ذكر فيه من الأساطير في القرآن) انظر :

السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣٢٠ - (٣٢١) .

(٤) جار الله محمود بن عمر الزمخشري ج ٣ ص ٥ .

٢ - الجدل والمراء في القرآن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(لا تماروا في القرآن فان المراء فيه كفر) (١) ، وقد أورد صاحب

كتاب جامع بيان العلم وفضله أن : (الآثار كلها في هذا الباب المروية

عن النبي صلى الله عليه وسلم انما وردت في النهي عن الجدل والمراء

في القرآن ، وروى سعيد بن المسيب (٢) وأبوسلمة (٣) عن أبي هريرة

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " المراء في القرآن كفر " (٤) ولا يصح

عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا بوجه من الوجوه .

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل ١٧٠/٤ ، قريبا منه ، وقال صاحب الفتح
الرياني معلقا : أورد الهيثمي وقال رواه احمد ورجاله رجال الصحيح ،
الا أنه مرسل . قلت - أي صاحب الفتح الرياني - يوء يده ما بعده ، عن
أبي جهيم أن رجلين اختلفا في آية من القرآن فذكر نحوه .
(انظر الفتح الرياني - فضائل القرآن و تفسيره وأسباب نزوله ، أبواب القراءات
وجواز اختلافها ، باب ما جاء من ذلك ما كان اختلاف الصحابة فيه ٣٩/١٨ .

(٢) هو سعيد بن المسيب بن حزن ، المخزومي ، أبو محمد ، القرشي ،
المدني سيد التابعين ، الامام الجليل ، فقيه الفقهاء ، قال الامام
يحيى بن سعيد " كان أحفظ الناس لا حكام عمر وأقضيت " جمع
الحديث والتفسير والفقه والورع والعبادة والزهد ، توفي سنة
٩٣ هـ وقيل ٩٤ هـ (انظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ ١/٥٤ ،
وفيات الأعيان ١١٧/٢ ، شذرات الذهب ١/١٠٢ ، حلية
الاولياء ١٦١/٢) .

(٣) هو أبوسلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني أحد
الأعلام ، ليس له اسم وقيل : اسمه عبدالله وقيل اسماعيل ، وقيل
اسمه وكنيته واحد ، قال ابن سعد " كان ثقة فقيها كثير الحديث " .
ونقل أبو عبدالله الحاكم أنه أحد الفقهاء السبعة عن أكثر أهل الأخبار
مات سنة ٩٤ هـ وقيل ١٠٤ هـ . (انظر شذرات الذهب ١/١٠٥
تذكرة الحفاظ ١/٦٣ ، تهذيب التهذيب ١٢/١١٥) .

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ١٢ كتاب السنة باب ٤
(النهي عن الجدل في القرآن) حديث رقم ٤٥٧٩ ص : ٣٥٣ .

والمعنى أن يتعاري اثنان في آية يجعدها أحد هما ويرفعها
أو يهيم فيها الشك ، فذلك هو المراء الذي هو كفر ، وأما التنازع في
أحكام القرآن ومعانيه فقد تنازع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
كثيرا من ذلك (١) .

وعلى هذا فالقرآن حين ندم الجدل وأهله ندم الجدل
في الشيء وليس الجدل عن الشيء لأن الأول باطل ، يقول الامام
الفخر الرازي (وأما الجدل في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد من
قوله تعالى : ” مَا يَجِدُ لُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ” (٢)

وقال : ” مَا ضَرَبَ لَكَ إِلَّا جَدًّا لَأَبْلَهُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ” (٣)

وقال : ” وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ” (٤)

وقال صلى الله عليه وسلم (ان جدالا في القرآن كفر) (٥) فقله :
ان جدالا على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال وجدال ، واعلم
أن لفظ الجدل في الشيء شعر بالجدال بالباطل ولفظ الجدل عن
الشيء شعر بالجدال لأجل تقريره والذب عنه ، والجدال في آيات الله
هو أن يقال مرة انه سحر ، ومرة انه شعر ، ومرة انه قول الكهنة ،

(١) ابن عبد البر ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) سورة غافر آية ٥٤ .

(٣) سورة الزخرف آية ٥٨ .

(٤) سورة غافر آية ٥٥ .

(٥) مسند الامام أحمد بن حنبل ج ٢ (مسند ابي هريرة) ص ٤٧٨

” قريبا منه ” . يقول صاحب الفتح الرباني معلقا : وصححه الحاكم على
شرط مسلم وأقره الذهبي (انظر باب الترهيب من الجدل والمراء
١٩ / ٢٧١ .

ومرة أساطير الأولين ومرة انما يعلمه بشر وأشياء هذا ما كانوا يقولونه
من الشبهات الباطلة فذكر تعالى أنه لا يفعل هذا: الا الذين كفروا وأعرضوا
(١)
عن الحق)

ومذ لك نرى أن الجدال المذموم (هو الجدال بالباطل لارحاض
الحق والطمع فيه وقصد اطفاء نور الله) (٢) وهو : (كل جدال
ظاهر الباطل أو أفضى اليه) (٣) والذي ينحصر في :

١ - الجدال لنصرة الباطل بالشغب والتضويه بعد ظهور الحق ،
قال تعالى : (٤)

وَجِدُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ
وَقَالَ : وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ (٥)

٢ - الجدال بغير علم ، قال تعالى :

” وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٦) “

ومن هنا نرى أن الآيات حين تدم الجدال والمجادلين في سورة
غافر ، وغيرها من سور القرآن الكريم فهي منصرفة الى الجدال الذي
يرمى الى تقرير الباطل ، والآيات حين تدعو الى الجدال كمنهج فسي

(١) انظر التفسير الكبير ج٢٧ ص ٢٠٩ .

(٢) الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال / ابن المنير

الاسكندري ج٣ ص ٤١٣ .

(٣) منهاج الجدال ، زاهر بن عواض الألعبي ص ٦٢ .

(٤) سورة غافر آية ٥ .

(٥) سورة الكهف آية ٥٦ .

(٦) سورة الحج آية ٣ .

الدعوة الى الله تُصرف الى الجدلي الذي يفيد تقرير الحق ، يقول الفخر الرازي : (ومن هنا نرى أن طريق التوفيق بين الآيات الأولى والثانية ^(١) أن تصرف تلك الآيات الى الجدل الذي يفيد تقرير الحق وأن تصرف هذه الآيات الى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل) . ^(٢)

(١) الآيات الأولى المقصود بها الآيات الكثيرة الدالة على أن الجدال موجب للمدح والثناء من مثل قوله تعالى " وجادلهم بالتي هي أحسن " والآيات الثانية هي الدالة على ذم الجدل من مثل قوله تعالى " يا جادل في آيات الله الا الذين كفروا " .
(٢) التفسير الكبير ج٢٧ ص ٢٢٢ .

المبحث الثالث :

الموضوعات التي جادل فيها القرآن من خلال السورة .

وفيه مطالبات :

المطلب الأول : الجدل لإثبات الوحدانية .

المطلب الثاني : الجدل في أمر البعث .

المبحث الثالث: الموضوعات التي جادل فيها القرآن الكريم من خلال السورة .

تمهيد : من يوم أن أهبط آدم الى الأرض وأرسل الله الرسل ، وأنزل الهدايا والكتب ، والناس في جدال وصراع مستمر ، وقد عرض لنا القرآن الكريم أنماطا كثيرة من الجدال بين الرسل وأقوامهم بصفة خاصة ، وما دار حول ذلك الصراع بين الحق والباطل بصفة عامة .

وإذا تأملنا في القرآن الكريم فاننا لا نكاد نجد فيه لفظة الى ما قبل الرسالة المحمدية الا وجدنا فيها جدالا ونقاشا حتى اذا جاء الاسلام وأظهر دعوتَه الخالصة وأعلن كلمته الفاصلة بين عقيدة التوحيد ومعتقدات الوثنية الضالة قامت قرىش تفاوض الرسول وتناقشه ، وكان الجواب صريحا وحازما بالفصل بين العقيدتين : عقيدة التوحيد ، وعقيدة الوثنية ، ومن هنا كان من أهم ما جادل فيه المجادلون قضية الوجدانية . ومن هنا امتلأ القرآن الكريم بالأدلة التي تجعل العقول تستسلم لما أراد رب العزة ، ولم يسبق بعيدا عن هذه الساحة الربانية الا من أغلق قلبه دون أنوار الله وأصم أذنيه عن نداءه .

ثم لما كان الاقتناع بحياة أخرى بعد الموت من الأمور المستبعدة ، اذ كيف تتحول تلك الجثة الهامدة والتي أصبحت ترابا الى بشر سوى مرة أخرى ، كانت هذه هي القضية الثانية في الأهمية التي كثر الجدال حولها . . بل ان الجدال في أمر البعث وانكار حقيقته يسير جنبا الى جنب مع قضية الوجدانية في الغرابة والاستبعاد .

ومن هنا كسرت الأدلة والبراهين القاطعة حول هاتين القضيتين ، وعرف ذلك في نماذج حية متضمنة شبه المنكرين المجادلين ثم المناقشة لها بالمنطق الصحيح المبطل للشبه والملابسات بالبراهين العقلية التي تعيد للانسان نعمة طمأنينتها .

ومن هنا كان من الطبيعي جدا أن تكون لسورة غافر وقفة أمام هاتين القضيتين خاصة وأن محور السورة كله يدور حول الذين يجادلون في آيات الله تكذيبا وعنادا مع وضوحها فجاء ذكرهم في أربع صور متفرقة من السورة .

المطلب الأول : الجدل في اثبات الوجودانية في ضوء

سورة غافر .

(لما كان هذا النوع من أنواع التوحيد - توحيد الألوهية - هو

مناط الايمان بالله وحده واخلص العبادة له :
” وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ”^(١)

أفصح عنه القرآن الكريم كل الافصاح وأبدى فيه وأعاد وضرب لذلك الأمثلة المحسوسة والمشاهدة التي يهبشها المخاطب ويتعامل معها بعقله وشاعره .

لذا نجد في كل سورة من سور القرآن الكريم الدلالة على هذا التوحيد إذ ان الخصومة بين الأنبياء ، وأممهم انما كانت في هذا النوع من أنواع التوحيد ، فالشرك الذي حدث من جميع الأمم انما كان في هذا النوع . اما توحيد الربوبية فعامة شركي الأمم مقرون بالخالق . .
أي أنه لا خالق الا الله تبارك وتعالى :

” وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ”^(٢)

(١) سورة البينة آية ٥ .

(٢) سورة الزخرف آية ٩ .

وقوله تعالى : " وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَمَا لِيُؤْفَكَونَ (٨٧) " (١) (٢)

ومع ذلك لم يدخلهم اقرارهم بوجود الله فسي التوحيد الذي بعث الله من أجله الرسل - توحيد الألوهية - ولكنهم ملزمون بإقرارهم ، فانه اذا ثبت أن خالق هذا الكون موجود ثبت أنه واحد (لأن الصنعة مفتقرة الى الصانع وليست مفتقرة الى اللى ما زاد على الصانع فصار وجود ما زاد على الصنعة جائزا والجائز الوجود لا يجوز أن يكون لها مبدعا قديما) . (٣)

ومع ذلك فقد كثرت الأدلة في اثبات وجود الله تعالى والتي هي أدلة قاطعة على اثبات وحدانيته سبحانه فيقول سبحانه موضحا هذه الحقيقة :

" لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٣) " (٤)

يقول صاحب كتاب مناهج الجدل في القرآن الكريم (واعلم أن تقرير الدليل أن يقال الله واحد لأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمدبرين ، فكيف ينتظم التدبير العام في جميع هذا الكون بمدبرين ؟ فلو وجد ذلك لتنازعت الارادتان بمن سلب وايجاب ، ان يريد أحدهما حياة شخص والآخر موته أو اسعاده و الآخر اشقائه . وهذا التنازع يؤدى

-
- (١) سورة الزخرف آية ٨٧
(٢) انظر منهج القرآن في الدعوة الى الايمان / علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ص ١١٥-١١٦ .
(٣) استخراج الجدل من القرآن الكريم / عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي ص ٨٣ .
(٤) سورة الانبياء آية ٢٢ .

الى فساد السموات والأرض لتخالف الارادات ، ولكنها صالحان غير فاسدين فبطل ما يؤيد الى فسادها وهو تعدد الآلهة ، فثبتت الوجدانية لله تعالى . (١)

وقد سلك القرآن الكريم في استدلاله على وحدانية الله

سلكين :

(المسلك الأول : بيان تغاهة معبودات أولئك المشركين

وعجزها ، وأنها لا تخلق ذباية ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها

ضرا ، ولا تجلب لها نفعا فكيف تلك لغيرها نفعا أوضرا ؟ قال تعالى :

” يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجتمعوا لَهُ وَإِنْ يَسئبهمُ الذُّبابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالطَّلُوبِ ﴿٧٤﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٥﴾ “ (٢)

وبيان تغاهة المشركين أيضا عندما يعبدون هذه الأوثان ، وأنها أضعف

وأحقر من أن يقام لها وزن أو يثار حولها جدل :

” مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ “ (٣)

المسلك الثاني :

أ - الاستدلال على وحدانية الله بانتظام الكون وسلامته من

الاختلال والتصادم ، فالخلق هو عنوان العبادة :

” أَمْ مَنْ يَخْلُقُ مَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ “ (٤)

(١) زاهر بن عواض الألعبي ص ١٥٩ .

(٢) سورة الحج آية ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٤١ .

(٤) سورة النحل آية ١٧ .

(١) وقوله : ” ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣٢﴾ “

ب - تذكير المخاطبين بالنعم التي أنعم الله بها عليهم عن طريق تعدادها والتي هي في نفس الوقت آيات بينات ودلالات واضحة على وحدانيته - سبحانه - ومن هنا يعقب عليهم بدعوتهم الى اخلاص العبادة لله وحده . (٢)

ومن هنا كان الأخذ والرد في سورة غافر بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين ، بل لو قسمنا أن نقول :

ان سورة غافر عبارة عن صورة كبيرة من الجدل بين الرسول ومشركي قومه ، والقضية الأولى التي جادلوا فيها هي قضية الوحدانية ، لما بالغنا فقال تعالى :

(٣) ” وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١٤٠﴾ “

وان كان للمفسرين عندها وقفة لا بأس أن نقفها وهي تدور حول معنى الأمر بالدعاء هنا :

١ - فقد قيل (هو الذكر والدعاء والسؤال) ، قال أنس

قال النبي صلى الله عليه وسلم ” ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى

-
- (١) سورة الانعام آية ١٠٢ .
(٢) انظر مناهج الجدل في القرآن الكريم / زاهر بن عواض الألمعي ص ١٥٨ - ١٦٢ ، منهج القرآن في الدعوة الى الايمان / علي بن محمد الفقيهي ص ١٣٩ .
(٣) سورة غافر آية ٦٠ .

- يسأله شسع نعله اذا انقطع . (١) . (٢)
- ٢ - وقيل (الدعاء هو ترك الذنوب) . (٣)
- ٣ - وقيل (هو العبادة وهذا ما ذهب اليه أكثر المفسرين لا دلالة واعتبارات كثيرة منها :

أ - أن الله تعالى قال بعد ذلك :

” إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي “ (٤)

ب - ان الدعاء يأتي بمعنى العبادة وهو كثير في القرآن كقوله تعالى :

” إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِي إِلَّا إِنْ شَاءَ “ (٥)

ج - ولما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ان

الدعاء هو العبادة) (٦) ثم قرأ

” ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ “ (٧) (٨)

-
- (١) أخرجه الترمذى في جه باب ما جاء في جامع الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ١٩ ص ٢٤٢ وقال عنه : هذا حديث غريب .
- (٢) انظر الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٥ ص ٣٢٧ ، التفسير الكبير / الفخر الرازى ج ٢٧ ص ٨ ، الكشاف / الزمخشري ج ٣ ص ٤٣٤ .
- (٣) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٥ ص ٣٢٧ .
- (٤) سورة غافر آية ٦٠ .
- (٥) سورة النساء آية ١١٧ .
- (٦) سنن الترمذى ج ٤ أبواب تفسير القرآن (باب تفسير سورة البقرة) حديث رقم ٤٠٤٩ ص ٢٧٩ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، مسند الامام أحمد بن حنبل ج ٤ (حديث النعمان بن بشير) ص ٢٧٦ ” بلفظه ” سنن ابن ماجه ج ٢ كتاب الدعاء باب فضل الدعاء حديث رقم ٣٨٢٨ ص ١٢٥٨ ” بلفظه ” .
- (٧) سورة غافر آية ٦٠ .
- (٨) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ٤ / ٨٥ .

والحقيقة أنه لا اختلاف بين الأقوال (فالدعاء باب من العبادة
ومن أفضل أبوابها ، يصدقه قول ابن عباس قال : معنى " ادعوني أستجب
لكم " أي وحدوني اغفر لكم ، وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة
بالتوحيد) . (١)

ومن هنا نرى أن هذه الدعوة للعبادة جاءت مشفوعة باستدلالات
تقوى الأمر باستحقاقه لها وحده فلا يبقى لمعتذر عذر ولا لمحتج
حجة .

جاءت تخاطب العقل والوجدان معا أدلة محسوسة ملموسة يعيشها
المخاطبون ويشاهدونها بأبصارهم ويدركونها بعقولهم تنحصر فيما يسمى
بدليلي العناية والاختراع كما يرى صاحب كتاب " الكشف عن مناهج
الأدلة " حيث يقول (ان الآيات التي في الكتاب العزيز إما آيات تتضمن
التنبية على دلالة العناية - والمقصود به العناية بالإنسان وخلق جميع
الموجودات من أجله - وأما آيات تتضمن التنبية على دلالة الاختراع ،
مثل اختراع الحياة في الجماد والادراكات الحسية والعقل وإما آيات
تجمع الأمرين من الدلالة جميعا) . (٢)

أما دليل العناية فقد قال تعالى :

(٣)

”هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾“

(١) انظر الكشاف / الزمخشري ج ٣ ص ٤٣٤ .

(٢) انظر ابن رشد ص ٦٥ / ٦٧ .

(٣) سورة غافر آية ١٣ .

وقوله تعالى : " اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ وَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) " ، (١)
 وقوله تعالى : " اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧١) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَاحِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيدُ اللَّهُ فِتْنَةَ الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبَيِّنَ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ اللَّهُ يُنَكِّرُونَ (٨١) " (٢)
 وأما دليل الاختراع فقد قال تعالى :

" هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ مِّمَّنْ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّ كُرْهُمُ لِيَتَّكِرُوا شَيْخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِي مِنْ قَبْلِ وَلِيَتَّبِعُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣٧) " (٣)

كما أن هناك آيات تجمع بين دليلي العناية والاختراع معا .

في قوله تعالى : " اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَتَسَكَّنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَّا تُؤَفَّكَونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ (٦٣) " (٤)

فان قوله " الله الذي جعل لكم . . . لا يشكرون " تنبيه على دلالة العناية . وقوله تعالى " ذلكم الله ربكم خالق كل شي . . . " تنبيه على دلالة الاختراع .

وهي كلها نعم ، تعرض ثم يعقب عليها بدعوتهم الى اخلاص العبادة لله وحده ، فالموجد لجميع المخلوقات يجب أن يكون هو المعبود وحده . قال تعالى :

" ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَّا تُؤَفَّكَونَ (٦٢) " (٥)
 وقال : " ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) " (٦)

-
- (١) سورة غافر آية ٦٤
 - (٢) سورة غافر آية ٧٩-٨١
 - (٣) سورة غافر آية ٦٧
 - (٤) سورة غافر آية ٦١-٦٣
 - (٥) سورة غافر آية ٦٢
 - (٦) سورة غافر آية ٦٤-٦٥

فجاء التعقيب الأول في قوله تعالى :

”ذَلِكُمْ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلَّ شَيْءٍ“ (١)

كالاتصال بين الأدلة والمستدل عليه (فكانت الإشارة بـ ”ذلكم“ الى

اسم الجلالة في قوله :

”اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ“ (٢)

وعدل عن الضمير الى اسم الإشارة لإفادة أنه تعالى معلوم متميـز
بأفعاله ، المنفرد بها بحيث اذا ذكرت أفعاله تميز عما سواه ، فصار
كالشاهد المشار اليه ، فكيف تلتبس الهية بالهية مزعومة للأصنام
فليست للذين أشركوا به شبهة تلتبس عليهم- ما لا يفعل مثل فعله- أي
ذلكم ربكم لا غيره .

وفي اسم الإشارة هذا تعريض بغياوة المخاطبين الذين التبتست
عليهم حقيقة الهية ، وفي هذا التعقيب ثلاث استدلالات للوحدانية :

- ١ - فهو (الله) الجامع لصفات الالهية اجمالا .
 - ٢ - ثم هو (ربكم) الذي دبر خلق الناس وهياً لهم ما به قوام حياتهم .
 - ٣ - وهو (خالق كل شيء) أي انه لما كان في معنى الربوبية من معنى الخلق ما هو خلق خاص بالبشر- فهو خالق الأشياء كلها كما خلقهم .
- ولما كانت هذه الأخبار الثلاث مترتبة بطريقة الترتي ، جاء الخبر الرابع كالنتيجة لها وهو نفي الالهية عن غيره .

(١) سورة غافر آية ٦٢ .

(٢) سورة غافر آية ٦٠ .

ومن هنا فرع عليه :

- أ - استفهام تعجيبى من انصرافهم عن عبادته الى جانب عبادة غيره مع وضوح فساد اعراضهم عن عبادته .
- ب - ونتيجة لاستمرارهم على الجحد بآيات الله دون تأمل ولا تدبر في معانيها ودلائلها يطبع نفوسهم على الانصراف عن العلم بوجود الوحدانية له تعالى . (١)

كما جاء التعقيب الثاني في قوله :

”هُوَ الْحَىُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ“

كموقع النتيجة من الدليل (لأن كل من سواه لا حياة له واجبة ، فهو معرض للزوال فكيف يكون الها مديبرا للعالم ، وجميع ما عبد من دون الله هو بين ما لم يتصف بالحياة تماما كالأصنام من الحجارة أو الخشب أو المعادن ومثل الكواكب والشمس والقمر والشجر وبين ما اتصف بحياة / كالملائكة عارضة غمر زائلة) وبين ما اتصف بحياة عارضة زائلة من معبودات البشر مثل (بوزة) (٢)

(١) انظر التحرير والتنوير / محمد الطاهر عاشر ج ٢٤ ص ١٨٧-١٨٨ .

(٢) اسمه الحقيقى سيد هارثا وقيل سيزاراسا ولقب "ساكياموني" ومعناه

: المتبتل من عائلة ساكيا ، ثم أطلقوا عليه لقب "بوزا" ومعناه

المستنير ، وقد اتجه تفكيره منذ صغره الى المقارنة بين حياة الترف والنعيم التي يتقلب فيها وحياة البؤس والشقاء التي يزرع تحتها قومه ، ما جعله يفادر قصر والده الى احدى الغابات متأملا ، مفكرا بأن شقاء الحياة منبعث من رغبات النفس

وفي استطاعة الانسان الافلات منها بقوة الثقافة الروحية الداخلية ،

قال تعالى : ” وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ” (١)

أى لا يستطيع أحدهم التصرف بالايجاد والاحياء وهو مخلوق أى معرض للحياة - (” أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ” (٢))

فجعل نفي الحياة عنهم في الحال أوفى المآل دلالة على انتفاء الهيئتهم وجعل نفي ادراك بعض المدركات عنهم ، دلالة انتفاء الهيئتهم .
وبعد اتضاح الدلالة على انفراده تعالى بالالهية فرع عليه الأمر بعبادته وحده غير مشركين غيره في العبادة لنهوض انفراده باستحقاق أن يعبد (٣) .

جاءت تلك التعقيبات بعد عرض النعم في معرض الوجدانية واخلاص الدين لله (فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعاني ، وعلى وجود الصلة بينها ، ووجوب تدبرها في محيطها الواسع وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق .

====
وحيث غادر الغاية وأخذ ينشر رسالته ويتجول في البلاد ، معلما كل من أقبل عليه ناشرا ما يسمى بالديانة البوذية ، مات في الثمانين من عمره وأحرق جسده بعد موته بشمانية أيام (انظر : ذيل الملل والنحل للشهرستاني ، محمد سيد كيلاني ١٤ / ٢ ، أديان الهند الكبرى / أحمد شلبي ص ١٣٧ وما بعدها) .

(١) سورة النحل آية ٢٠ .

(٢) سورة النحل آية ٢١ .

(٣) انظر التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ١٩٢-١٩٣ .

ومن هنا كان من ابرز ما عني القرآن به أكبر عناية ابراز صفة الانعام التي يتصف بها - سبحانه - يذكرها هنا في مكان واحد بهذا الترابط ، ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق ويوجه في ظلها القلب البشري الى دعوة الله وحده مخلصا له الدين (١) فيخاطبه مرة بقوله :
”وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾“ (٢)

ومرة بقوله : ”وَرُبِّكُمْ ذُوْا اَيْدِيْنَ فَاَتَىٰ آيَاتِ اللّٰهِ تُنْكِرُوْنَ ﴿٨١﴾“ (٣)

وثالثة بقوله : ”وَمَا يَذَّكَّرُ اِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾“ (٤)

مستخدما ما يسمى بأسلوب التمكين (٥) الذي يشير الى أنه ليس لهم أى وجه في اتخاذ الشريك مع الله ، بل كل شيء ينطق بالوحدانية ان كانوا يعقلون ومن هنا قال لهم :

١ - ولعلكم تعقلون (لأن ما هو مستدل به واضح ظاهر جلي فوجب تعقله وتفهمه ، ومع ذلك كانوا مستمرين على الشرك ، غير مستنكفين ولا يحملهم على ذلك الا عدم العقل الغالب على الهوى ،

(١) انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ج ٥ ، ص ٣٠٩٢-٣٠٩١ ، من

بلاغة القرآن / أحمد بدوى ص ٢٥٣ .

(٢) سورة غافر آخراية ٠٦٧ .

(٣) سورة غافر آخراية ٠٨١ .

(٤) سورة غافر آخراية ٠١٣ .

(٥) وهو أن تأتي القرينة متمكنة في مكانها ، مستقرة في قرارها ، مطمئنة

في موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، متعلقا معناها بمعنى الكلام

كله تعلقا تاما بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب فهمه .

(انظر الاتقان ج ٣ ص ٣٠٢ ، تحرير التحبير ص ٣٦٣ ، من بلاغة

القرآن لأحمد بدوى ص ١٤٣ وما بعدها) .

فرجاحة العقل تقتضي العلم على أن من قدر على كل ذلك هو
الستحق للعبادة وحده بعد قيام البرهان على أنه هو
الخالق (١) وان ما عداه لا يستحق وصف الالهية فمن عقل
ذلك من الناس فقد اهتدى الى ما أريد منه ومن لم يعقل ذلك
فهو بمنزلة عديم العقل ، يقول صاحب التحرير والتنوير :
(ولا جل هذه النكته لم يسوءت لفعل (تعقلون) بفعول
ولا بمرور لأنه نزل منزلة اللازم ، أي رجاء ان يكون لكم
عقل فهو مراد كله من ذلك الخلق ، فمن حكته أن جعل ذلك
الخلق العجيب علة لا أمور كثيرة) . (٢)

﴿ وَرِيكَوَاءِ آيَاتِهِ فَأَتَى آيَاتِ اللَّهِ يُنْكِرُونَ ﴾ (١)

- ٢

وفيها تنبيه على أن في تلك المنن آيات دالة على ما يجب لله
من الوجدانية والقدرة والحكمة (فيريكم آياته في النعم المذكورات
 وغيرها من كل ما يدل على وجوب توحيده وتصديق رسله ونبذ
 المكابرة فيما يأتونهم به من آيات صدقهم . وقد جيء في
 جانب اراء الآيات بالفعل المضارع لدلالته على التجدد لأن
 الانسان كلما انتفع بشيء من النعم علم ما في ذلك من دلالة
 على وحدانية خالقها وقدرته وحكمته .

والارادة هنا بصرية عُربها عن العلم بصفات الله ، از

كان طريق العلم هو مشاهدة تلك الأحوال المختلفة ، فمن

-
- (١) انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٣ ص ٣٤٨ ، روح المعاني
الألوسي ج٨ ص ٥٦ التفسير الكبير / الفخر الرازي ج١٢ ص ٢٣٦ .
(٢) محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

تلك المشاهدة ينتقل العقل الى الاستدلال .
واضافة الآيات الى ضمير الجلالة لزيادة التنويه بها
والإرشاد الى اجادة النظر العقلي في دلائلها ، ثم جاء
الاستفهام الانكاري منكرًا أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن
يُنكَرُ دون غيره من الآيات ، فيفيد أن جميع الآيات صالِح
للدلالة على وحدانية الله وقدرته لا مساغ لادعاء خفائه وأنهم
لا عذر لهم في عدم الاستفادة من احدى الآيات . (١)

٣ - ” وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ “

(أى من نبذ الشرك وآمن لأن الشرك يصد أهله عن الانصاف
واعمال النظر في الأدلة) . (٢)

يقول صاحب كتاب ” من بلاغة القرآن ” وان في اكثر القرآن

عن هذه النعم وتوجيه أنظارهم اليها وتقريرهم بها ، ما يدفعهم الى :

١ - (التفكير في مصدرها وأنه جدير بالعبادة ما يشير في أنفسهم

شكرها وتقديس بارئها ، ولا سيما أن تلك النعم ليست في طاقة

بشر ، وأنها باعترافهم أنفسهم من خلق العلي القدير .

٢ - يتكى ” القرآن على عاطفة انسانية يثيرها ، لتدفع صاحبها عن طريق

الاعجاب حينها والاعتراف بالجميل أحيانا الى الايمان بالله وحده

واجلاله وتقديسه .

(١) انظر المرجع السابق نفسه ص ٢١٨ .

(٢) انظر المرجع السابق نفسه ص ١٠٣ .

٣ - كما أن ذلك الوصف يبعث في النفس حب الله المنعم فتكون عبادته منبعثة عن حبه وشكر إياديه (١).

وبذلك يقرر أن (الجامع لهذه الأوصاف ، الخالق لكل شيء ولا يمتنع عليه شيء لا بد أن يكون واحدا لا ثاني له ، فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان) (٢) خاصة وأن:

١ - البرهان قائم على أنه الذي خلق هذا الكون وما يحتويه وكونهم مؤمنون بذلك يقتضي وجوب الإيمان بوحديته في العبادة ، فمن أين جاء الشرك ؟ يقول ابن الحنبلي (٣) :
(الصنعة مفتقرة إلى الصانع وليست مفتقرة إلى ما زاد على الصانع فصار وجود ما زاد على الصنعة جائزا والجائز الوجود لا يجوز أن يكون لها مبدعا قديما) (٤).

-
- (١) أحمد بدوي ص ٢٥٧ .
(٢) انظر الكشاف / الزمخشري ج ٣ ص ٤٣٤ .
(٣) هو عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الأنصاري الخزرجي المعروف بابن الحنبلي ولد سنة ٥٥٤ ، كان من بيت الحديث والفقه لذا كان فقيها واعظا حضر فتح المقدس مع صلاح الدين ، توفي سنة ٦٣٤ هـ (انظر ترجمته في : الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١٩٣/٢ وما بعدها ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١٦٤ /٥ وما بعدها ، البداية والنهاية لابن كثير ١٣٩/١٣ ، الأعلام للزركلي ١١٦/٤) .
(٤) استخراج الجدال من القرآن الكريم ص ٨٣ .

٢ - لم يتم برهان عقلي أو نظري على عبادة غيره معه وفي هذا يقول ابن رشد (١) (من المعلوم أنه لو كان ملكان كل واحد منهما فَعَلَهُ فِعْلُ صاحبه أنه ليس يمكن أن يكون عن تدبيرهما مدينة واحدة لأنه ليس يكون عن فاعلين من نوع واحد فعمل واحد فيجب ضرورة أن فعلاهما أن تغسد المدينة الواحدة (٢) . ونحن اذا استعرضنا صفحة الكون لم نجد للفساد اسما ولا أثرا فكيف يكون هناك شركاء بل الواجب أن لا يكون هناك الا اله واحد .

٣ - إن كل نعمة من النعم الظاهرة والباطنة تستحق شكر المنعم ، ولا تجيز كفرانه فضلا عن اتخاذ الشريك معه .

(١) هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، كان قاضي الأندلس ومن أشهر فلاسفتها كما يعتبر من أعظم شراح فلسفة أرسطو ، وقد نفاه أبناء عصره و منعوا كتبه لاشتغالهم بالفلسفة ، كان بارعا بالفقه والطب ، توفي سنة ٥٩٥ هـ (انظر مقدمة كتابه : الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) .

(٢) انظر الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ٧١ .

وبذلك أقام الرسول عليهم حجته التي من خلالها رأينا ،
قد استخدم تارة أسلوب التوكيد والتكرير الذي يعتبر من أهم العوامل
لبث الفكرة في نفوس الجماعات و اقرارها في قلوبهم اقرارا ينتهي الي
الايان الحق الذي تنبعث قيمته من دوام التكرار بالالفاظ عنها ما أمكن
ذلك ، لأنه اذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخا تنتهي بقبوله حقيقة
ناصعة ، يقول صاحب كتاب الطراز : (وفائدته / ازالة الشكوك واماطة الشبهات
عما أنت بصدده وهو دقيق المأخذ كثير الفوائد) (١) (وانما يحتاج
اليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي تعظم العناية بها) (٢)
ومن هنا كان التوكيد اللفظي بتكرار الاسم بلفظة الرب في قوله

تعالى : "ذَلِكُمْ وَاللَّهُ رَبُّكُمْ"

وقوله : "فَتُبَارَكُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾"

وقوله : "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾"

لأنه موضوع يحتاج الى اقرار في نفس المجادل وتشبته في قلبه خاصة وان
ما يتعلق به - وهو الوجدانية - هو موضع انكار منهم فجاء التوكيد بالتكرار
هنا قويا تنبيهها للنفس لترى ما موقعه ، ولم كان ؟ بعد أن تبادت في
الضلال منصرفه عن التفكير المستقيم المؤدى الى الايمان بالله وحده
فكانت هذه الغفلة تلفتهم عن التفكير في وحدانيته فأكدوا بربوبيته المتكررة
في اللفظ لدفع ما يقال به من الشركة ، فحيث إن الخالق هو الله وحده فلا
بد من دفع هذه الشركة ويقوى هذا التوكيد ضمير الفصل (ريكم)

(١) يحيى بن حمزة العلوي اليمني ج٢ ص ٢٦٠

(٢) بيان اعجاز القرآن / الخطابي ص

حتى يدل على القصر والاختصاص المنافي للشركة، فالعبادة خاصة
بالله وحده .

كما يظهر التمكين واضحا من خلال ذلك العرض الشامل حين
يقول لهم : ” فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ ” (١)

وقوله :

” ذِكْرُ اللَّهِ رَبِّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ” (٢)

(٣)
(فيبين الله سبحانه بهذه القرينة كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيدهِ)
(فذلِكُم) أي المعلوم المتميز بالأمثال الخاصة التي لا يشاركه فيها
أحد فهو :

أ - الله ربكم .

ب - الخالق لكل شيء .

فالنتيجة الفطرية والطبيعية تقتضي أن يكون (لا اله الا هو) .

يقول صاحب الكشاف (جاءت أخباراً مترادفة لتو، كد أن الجامع

لهذه الأوصاف من الالهية والربوبية وخلق كل شيء وانشائه لا يمتنع

عليه شيء بل يستحق الوجدانية فلا ثاني له ، فكيف ؟ ومن أي وجه

تصرفون عن عبادته الى عبادة الأوثان) (٤) التي لا تخلق شيئا بل هي

(١) سورة غافر آية ٨١ .

(٢) سورة غافر آية ٦٢ .

(٣) فتح القدير / الشوكاني ج ٤ ص ٤٩٨ .

(٤) الزمخشري ٣ / ٤٣٤ .

مخلوقة منحوتة ، والاكثر من ذلك (أنكم لا تملكون دليلا ولا برهانا على عبادتها بل هو مجرد الجهل والهوى والجحد لحجج الله ، والضلال كما ضل من قبلكم) . (١)

ومن هنا كانت الخاتمة أو ما يسمى بالتمكين بعد عرض كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة والتي تنبه على أنه ليس في شيء من الدلائل التي تقدم ذكرها ما يمكن انكاره فاذا جادل بعدها مجادل فانه يدل على التواء أو غرض أو كبر أو مغالطة لغاية أخرى غير الحقيقة .

ومرة يختتمها بقوله :

” إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ ” (٢)

والمراد أن فضل الله على الخلق كثير جدا ولكنهم لا يقومون بشكر نعم الله عليهم ، وترك الشكر لوجوه :

- أ - (اما لجهودهم لها وكفرهم بها كما هوشأن الكفار .
- ب - أو لاغفالهم للنظر واهمالهم بما يجب من شكر النعم وهم الجاهلون .

ولما كان أكثر الخلق هالكين في أحد هذه الأودية لا جرم قال

تعالى : ” وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ ” ، (٣)

ونظيره قوله تعالى : ” وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴿١٣﴾ ” ،

يقول صاحب الكشاف : (فان قلت : فلوقيل ولكن أكثرهم فلا يتكرر ذكر الناس ؟

-
- (١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٦ .
 - (٢) سورة غافر آية ٦١ .
 - (٣) انظر التفسير الكبير / الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٨٣ ، ٨٩ ، فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٩٨ ، والآية من سورة سبأ آية ١٣ .

قلت : في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم وأنهم هم الذين يكفرون
فضل الله ولا يشكرونه كقوله تعالى :

” إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ ” (١)

وقوله : ” إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ” (٢) (٣)

وفي هذا زيادة لتمكنه في ذهن السامع (٤) فيأخذ العبرة والعظة
ولا ينسى .

كما نجد ثالثة يختصها بقوله : ” فَتُبَارَكُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ” (٥)

(والبركة لها تفسيران :

أ - البقاء والثبات .

ب - كثرة الآثار الفاضلة .

فان حملته على الأول : فالثابت الدائم هو الله .

وان حملته على الثاني : فكل الخيرات والكمالات من الله ، فلهذا لا يليق
الشناءة الا بحضرتة ، فكان الختم بالوحدانية مأخوذاً ما قبله لانه لما
اختص سبحانه بالخلق والتصرف به لزم انحصار الألوهية والربوبية فيه
ولا حاجة اليه فانه مُصَرَّح به في قوله ” ان ربكم الله . . . ” وهذا ختام
ملاحظ فيه مطلعاه . (٦)

-
- (١) سورة الحج آية ٦٦ .
 - (٢) سورة الطاريات آية ٦ .
 - (٣) الزمخشري ج ٣ ص ٤٣٤ .
 - (٤) من أسرار البلاغة في القرآن / محمود السيد شيخون ص ١٠٧ / ١١٦ .
 - (٥) سورة غافر آية ٦٤ .
 - (٦) حاشية الشهاب ج ٤ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(١) ويختتمها رابعة بقوله : ” الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ “

(فجاءت هذه القرينة بعد التنبيه على الحصر وأنه لا حي الا هو ، اعقبها استحقاقه الوجدانية فلما كان موصوفا بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له وحده ” الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ * “ (٢))

(التي جاءت لتقرر أن الذي يصنع هذا ويبدعه بهذا التناسق هو الذي يليق أن يكون الها فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح المبين) (٣) .

وبذلك رأينا أن شركهم لم يقم عليه حجة ولا برهان أو منطق

سليم ، ومن هنا فقد (هاجم القرآن بكل قوة الاشراك بالله ، وهو يهاجم العقل والوجدان معا فيأخذ في نقاش المشركين ليصلوا الى الحق بأنفسهم ويلزمهم الحجة ويقودهم الى الصواب) (٤) . الا أنهم قوم عميت بصائرهم عن معرفة الحق وركبوا طغيانهم في المعاندة والمكابرة والاستهزاء بعد أن سلك الرسول صلى الله عليه وسلم معهم أرقى الأساليب وذكرهم بآيات الله الآفاقية والنفسية وما أنعم الله به عليهم من الخيرات المادية فلم يستجيبوا له بل أغلقوا آذانهم وقلوبهم ونفوسهم عن كل شيء الا

الباطل الذي تمويدهوته هو الى دين الآباء يقول الامام القرطبي : (وكانوا دعوه الى دين آباءه) (٥) فأمره الله أن يقول منكرا عليهم مسلكهم

(١) سورة غافر آية ٦٥

(٢) انظر التفسير الكبير / الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٨٤ .

(٣) انظر الظلال / سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٩٢ .

(٤) من بلاغة القرآن / أحمد بدوي ص ٢٦٠ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٢٩ .

المعوج وعنادهم المستحکم وجدالهم بالباطل :
 ” قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيْتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ
 لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ” (١)

(أى قل يا محمد ان الله عزوجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام
 والأنداد والأوثان) (٢) بل بلغ بهم الجهل أقصاه كما يقول ابن
 اسحق (٣) حين قالوا : (يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد سنة وتعبد ما
 نعبد سنة فنشترك نحن وأنت في الأمر فان كان الذى تعبد خيرا ما نعبد
 كنا قد أخذنا بحظنا منه وان كان ما نعبد خيرا ما تعبد كنت قد
 أخذت بحظك منه ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره وقال له ربه :
 ” قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ” (٤) (٥)

كما علمه أن يقول لهم في سورة غافر : ” قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا
 جَاءَنِيَ الْبَيْتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ” (٦)

- (١) سورة غافر آية ٦٦ .
- (٢) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٧ .
- (٣) هو محمد بن اسحاق بن يسار بن خيار المدني القرشي ، مولى
 قيس بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف / عاش حياته بين افرق
 في النيل منه واسراف في مدحه . ففي الوقت الذى رمي فيه بالتدليس
 والقدر والتشيع وغير ذلك ، فقد قال عنه ابن عدى لم يتخلف في
 الرواية عنه الثقات والأئمة . أخرج له مسلم ، واستشهد به
 البخارى وروى له أبو داود والنسائي وابن ماجه (انظر تاريخ
 بغداد للخطيب البغدادي ، عيون الاثر لابن سيد الناس) .
- (٤) سورة الكافرون آية (١-٢) .
- (٥) انظر السيرة النبوية / ابن هشام ج ١ ص ٣٨٨ ، أسباب النزول /
 للواحدى ص ٣٠٧ .
- (٦) سورة غافر آية ٦٤ .

وقد نُهي عليه السلام عن عبادة الأصنام وهو من أبعد الناس
عن ذلك بل هو أبعدهم حقيقة ولكن المراد بالنهي هنا ليس هو تحصيل
الفعل لأنه حاصل ، وإنما المراد الثبات والدوام عليه ، ومثل هذا

قوله : ^(١) " فَأَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ " (٢)

وقوله : ^(٢) " وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّرِكَينَ " (١٥)

وقوله : ^(٣) " وَلَا تَطِغِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ " (١٥)

فالممنهيات في كل ذلك تحصيل حاصل لأن هذه المنهيات
لا يتصور وقوعها من النبي صلى الله عليه وسلم إنما المراد كما سبق أن
ذكرنا هو الاحت على زيادة التمسك والثبات على ما هو عليه .

وفائدة هذه الطريقة هي أنها تغيد الالتهاب والتهيج وشير
الشعور والوجدان فتكون النفس أحسن تلقيا وأكثر تسكيا بما هو كائن
ولذلك نجد هذا القول مستعملا في المعاني الهامة التي هي أصول فسي
هذا الدين ، ومن هنا كان الأسلوب الحاسم في خطاب الرسول صلى الله
عليه وسلم والذي هو مظهر من مظاهر الربوبية القاهرة تتجلى في خطاب
البشرية الربوبية في شخص سيدها محمد عليه السلام (٤)

- (١) سورة الزمر آية ٢٠
- (٢) سورة الأنعام آية ١٤
- (٣) سورة الأحزاب آية ١
- (٤) انظر الطراز / يحيى بن حمزة العلوي البيهقي ج ٣ ص ١٦٥ ، ١٦٦
من " أسرار التعبير القرآني " . عبد الفتاح لاشين ص ٨ - ٩ .

يقول صاحب التحرير والتنوير (والمقصود من اسناد المنهية
الى الرسول صلى الله عليه وسلم - التعريض بنهي المشركين فإن الأمر بأن
يقول ذلك لا قصد منه الا التبليغ لهم والا فلا فائدة لهم في الاخبار بأن
الرسول عليه السلام منهي عن أن يعبد الذين يدعون من دون الله .
الصلاة

يعني فإذا كنت أنا منهيًا عن ذلك فتأملوا في شأنكم واستعملوا
أنظاركم فيه ، ليسوقهم الى النظر في الأدلة سو قائلنا خفيا لا تباعه
فيما نهى عنه (١) .

(ووجه النهي في ذلك ما جاء من البيئات والتي تقول :

- ١ - ان اله العالم قد ثبت كونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة
التي تستلزم الوحدانية .
- ٢ - صريح العقل يشهد بأن العبادة لا تطيق الا به فالنتيجة
أن جعل الأجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء له فسي
العبودية مستنكر في بديهة العقل .
- ٣ - ثم انهم يعتقدون فيه صلى الله عليه وسلم أنه في غاية العقل ومن
المعلوم بالضرورة أن كل أحد فانه يريد لنفسه الأفضل والأكمل
فاذا ذكر أن مصلحته لا تتم الا بالاعراض عن غير الله والاقبال
بالكلية على طاعة الله ظهر به أن هذا الطريق أكمل من كل ما
سواه .

٤ - ثم ان هؤلاء الكفار كانوا معترفين بأن الله هو الخالق :

” وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ” (٢)

(١) محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ١٩٦ .

(٢) سورة لقمان آية ١٢٥ والزمر آية ٣٨ .

فكان تعالى يقول : هذه الشركة اما أن تكون مزارعة وذلك لأن البذر مني والتربة مني والسقي مني والحفظ مني فأى شيء للصنم .

أوشركة الوجوه^(١) وذلك أيضا باطل أتري أن الصنم أكثر شهرة وظهرا مني .

أوشركة الأبدان^(٢) وذلك أيضا باطل لأن ذلك يستدعي الجنسية .

أوشركة العنان^(٣) وذلك أيضا باطل لأنه لا بد فيه من نصاب ،

فما نصاب الأصنام ؟

أويقول ليس هذا من باب الشركة لكن الصنم يأخذ بالتغلب

نصيبا من الملك فكان الرب يقول : ما أشد جهلكم ، فإن هذا الصنم أكثر

عجزا من الذبابة (*إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَنِيَخْلَقُوا ذِيَابًا*)^(٤) .

فأنا أخلق البذر ثم ألقيه في الأرض ، فالتربة والسقي والحفظ مني ثم من

هو أعجز من الذبابة يأخذ بالقهر والتغلب نصيبا مني ، ما هذا بقول

يليق بالعقلاء .

ومن هنا كان ما طلبوه كما يقول الرازي : (أمر في غاية القبح

ونهاية في الفحش) .^(٥)

وقد تضمن رده صلى الله عليه وسلم :

١ - (تكامل العقيدة عن طريق هذا السلب والایجاب ، فمع الانتها

(١) شركة الوجوه : وهي أن يشترك اثنان ليس لهما مال ولكن لهما وجهة عند الناس توجب الثقة بهما على أن يشتريا تجارة بضمن موء جل وما يربحانه يكون بينهما على ما شرطاه .

(٢) شركة الأبدان : هي أن يتفق أو يشترك اثنان فأكثر كنجارين أو حدادين أو أحد هاتينجار والآخر حداد على أن يشتركا من غير مال ، على أن يتقبلا الأعمال ويكون الكسب بينهما .

(٣) شركة العنان : ان يشترك اثنان فأكثر باليهما على ان يعمل أحدهما فقط ، بشرط أن يكون للعامل جزء من الربح أكثر من ربح ماله ليكون الجزء نظير عمله .

(طخضا بتصرف من كتب المذاهب الفقهية ، ومن شاء الرجوع فليرجع الى كتب الفقه في مذاهيبها المعتمدة .)

(٤) سورة الحج آية ٧٣ . (٥) انظر التفسير الكبير ٢٧ / ٨٥ .

عن عبادة غير الله - وهو سلب - الى الاسلام لرب العالمين -
- وهو ايجاب - ومن الشقين تتكامل العقيدة (١).

٢ - كما تتضمن دليلا من أدلة الوجدانية تدل على أن هذا الرسول
انما يدعوهم الى ما يريد له لنفسه (فهو يحض لهم النصيحة ،
ليجروا على مقتضاه في أنفسهم بأن يعبدوا الله وحده) (٢).

٣ - استنكاره مجادلتهم اياه في موضوع اتفقوا فيه على المبدأ فهم
يعترفون بالرب وأنه هو الخالق ولم يقم برهان على عبادة
غيره حتى يستمسكوا به ويعتمدوا عليه بل هي من وضع الآباء
وتزيين الشيطان ومن هنا كان التركيز على كلمة الرب لأنها
أصل في الانكار عليهم ، يقول صاحب التحرير والتنوير :
(وجعل المجرور بـ (من) وصف (رب) مضافا الى ضمير المتكلم دون أن
يجعل مجرورها ضميرا يعود على اسم الجلالة اظهارة في مقام الاضمار
على خلاف مقتضى الظاهر لتربية المهابة في نفوس المعرض بهم ليعلموا
أن هذا النهي ومجيء البينات هو من جانب سيده وسيدهم فما
يسعهم الا أن يطيعوه ولذلك عززه باضافة الرب الى الجميع
في قوله : ” وَأَمُرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ” (٣)

أى ربكم ورب غيركم فلا منصرف لكم عن طاعته (٤).

٤ - الاستنكار عليهم كيف يدعوهم الى عبادة غير الله بدون بينات
بل البينات التي جاءت ورأوها تظلمهم أن يستجيبوا لدعوته
فضلا عن أن يدعوهم الى الاشرار بربه فكان قوله :

-
- (١) في ظلال القرآن / سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٩٥ .
(٢) التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ٢٤ / ٩٦ - ١٩٧ .
(٣) سورة غافر آية ٦٦ .
(٤) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٢٤٤ - ١٩٦ - ١٩٧ .

(ابطالا لعبادة غير الله بالقول الدال على التحذير والتخويف بعد أن
أبطل ذلك بدلالة الحجة على المقصود ، وهذه دلالة كنائية لأن النهي
يستلزم التحذير) . (١)

ولكنهم مع كل ذلك لا يستجيبون بل يجادلون مكابرين بدافع
التقليد والتعصب ، يتعصبون لعقيدة الآباء والتعصب يعمي ويصم ،
ويؤيس الرسول بما كانوا يفعلون ، فيخفف عنه ربه بأن لا يجتثس ولا يضره
تقلبهم في البلاد لأنهم كافرون قد طبع الله على قلوبهم ، وليسوا
أول من جادل ، وليسوا أول من كفر ، وليس هو أول من جودل فـان
اخوانه الانبياء واجهوا نفس الموقف ونفس الكفر فهي (قصة قديمة
ومعركة ذات مواقع متشابهة في كل زمان رسول يجي فيكذبه طغاة
قومه ولا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة انما هم يلجأون الى منطق
الطغيان الغليظ :

١ - يهسون أن يبطشوا بالرسول .

٢ - يموهون على الجماهير بالباطل ليغلبوا به الحق (٢) .

قال تعالى : " مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۗ
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَنْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ
وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ " (٣)

(١) التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور .

(٢) في ظلال القرآن / سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٧٠ .

(٣) سورة غافر آية ٤ - ٥ .

وهنا تكون النهاية بعد أن تستكمل المعركة الجدلية الكلامية براهينها وتقوم حجة الله عليهم بارسال الرسول وتأيدته بالمعجزة الدالة على صدقه ، وحين يصل الأمر الى ذروته ويستحكم العناد ولم يعد في القوم أمل لفتح قلوبهم لنور الحق والايان تكون نهاية تلك المعركة الجدلية كما يقصها الله :

أ - في الدنيا : ” فَأَخَذَتْهُمُ فَكِيْفٌ كَانَ عِقَابِ ۝ ” (١)

ب - في الآخرة ، باعثا الخوف من سوء مصير هؤلاء المشركين فيصورهم مرة محاولين ستر جريمتهم بانكارها حين لا يجدون لها سندا من الحق والواقع : ” ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ : أَيَّنَّ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ ٧٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ يَكُنْ

نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ۝ ٧٥ ” (٢)

وحيثما يصورهم وقد تبرؤا من عبادتهم فحبطت أعمالهم وذلك حين يقول : ” فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ ٨٤ قُلْ دِيكُمُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ

لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّ اللَّهُ إِلَيْنِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِي وَخَيْرُهُنَّ لِلْكَافِرِينَ ۝ ٨٥ ” (٣)

وحيثما يصورهم معترفين هلكي في أشد صور الهلاك والاعتراف :

” إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لمقتل الله أكبر من مقتلكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمن فتكفرون ۝ ١٠٣ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَأُحْيَيْتَنَا آتَيْنِي فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ۝ ١١١ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝ ١١٢ ” (٤)

(١) سورة غافر آية ٥٥

(٢) سورة غافر آية ٧٣ - ٧٤

(٣) سورة غافر آية ٨٤ - ٨٥

(٤) سورة غافر آية ١٠ - ١٢

فكان هنا ما يسمى بالاسجال^(١) الذي أثبت فيه على لسان
الخصوم الحقيقة التي كانوا ينكرونها والذي فيه - الاسجال - اشارة
لوجودان المشككين والمنكرين واثارة الخوف في أنفسهم حين يسمعون اعتراف
من على شاكلتهم فيدفعهم الخوف الى التأمل عساهم يبهتدون^(٢) .
والآيات الكريمت وان لم تتسم بطابع الجدل في مظهرها
العام فهي لا تخلو منه في جوهرها بل هي في الصميم منه ولكن الجدل
الذي اشتطت عليه تركز في بيان معالم حقائق المشركين وما تنطوى عليه
نفوسهم من فساد، فكان الآيات في جدلها مع المشركين تنتهج الخطوات
الآتية :

- ١ - المعروف أن المشركين يعترفون أن الله هو الخالق ومن هذا
المدخل قامت عليهم الحجة وثبتت الوحدانية لله تعالى .
- ٢ - بينت الآيات في مقدمتها أن المشركين ليس لهم قاعدة صلبة
تقوم عليها ركيزة الشرك عندهم سوى الكبر، والكبر وحده، ومن
كان كذلك كان كالأعمى أمام البصير .

(١) وهو الاتيان بالفاظ تسجل على المخاطب وقوع ما خوطب به ،
نحو قوله تعالى : * ربنا وارخلهم جنات عدن التي وعدتهم *

(غافر : ٨)

فان في ذلك اسجالا بالآيات والارخال حيث وصفا بالوعد من الله
الذي لا يخلف وعده (انظر معترك الاقران ج ١ ص ٤٦٢) .
(٢) من بلاغة القرآن / أحمد بدوى ص ٤٣٧٦ من أسرار البلاغة في القرآن /
محمود السيد شيخون ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

المطلب الثاني : الجدال في أمر البعث :

وهي القضية الثانية التي جادل فيها المشركون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل هي القضية التي سارت جنباً الى جنب مع قضية الوجدانية في الإنكار والمجادلة .

والحقيقة ان انكار البعث مستند في الأمم منذ القدم وعبر القرون والعصور ، قال تعالى :

” بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاءُ نَاهَذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولَىٰ ﴿٨٣﴾ ” (١)

وقال تعالى : ” كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَحِبُّوا الرَّسُولَ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَرِعْوَانٌ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَحِبُّوا الْأَيْكَةَ وَقَوْمُ شَيْعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحُوَّ وَعِيدٌ ﴿١٤﴾ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ لَمْ يَمُرُّ فِي لُبِّهِمْ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ” (٢)

والمنكرون للبعث لا يخرجون عن أحد اثنين :

١ - (الكفرة المنكرون لوجود الله أصلاً والزاعمون أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلاصانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً وهو لا هم الدهريون . ، وقد تقدم رد القرآن الكريم عليهم .

٢ - والفلاسفة الماديون الذين لا يؤمنون بما وراء المادة ، والذين يطلق عليهم الفؤالي اسم الطبيعيين وهم الذين أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة فأرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته

(١) سورة المؤمن آية ٨١ - ٨٣ .

(٢) سورة ق آية ١٢ - ١٥ .

ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم الا أنهم ذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجددوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار والقيامة والحساب زاعمين أن النفس تابعة للبدن فهي تفتن بفنائها ولا تعود .^(١) (ومنهم

الطبيعيون من العرب الذين يؤمنون بوجود الله :
” وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ “^(٢)

ومع ذلك ينكرون البحث وهم في انكارهم لا يملكون حجة وليس لديهم من دليل سوى الاستبعاد ، والاستبعاد وحده ، ولهذا يقول قائلهم :
” حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو “^(٣)

ومن أهم شبههم ووجوه استبعادهم للبعث الشبهة التالية :
ان تفتت العظام وتحلل الجسد الى ذرات ترابية واختلاط هذه الذرات بعضها ببعض وضياعها في الأرض مع ما يطراً على الأرض من تغيرات بالأمطار والنباتات وغيرها كل ذلك موضع بعد واستغراب من الكفار .

والجواب عن هذه الشبهة يكون بالاحتجاج عليهم بقدرة الله الشاملة لكل شيء وعلمه المحيط بكل شيء وما نصبه من دلائل في الآفاق وفي الأنفس على امكان المعاد ومن هنا نعلم أن مبنى الأدلة على قاعدتين أساسيتين ، هما العلم والقدرة .

(١) انظر المنقذ من الضلال / أبي حامد الغزالي / تحقيق : جميل

صليبا ، كامل عباد / ص ٩٦ .

(٢) سورة لقمان آية ٢ والزمر آية ٣٨ .

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٢٣٦ ، تاريخ العرب قبل

الاسلام ج ٦ ص ١٢٦ .

أولا : أما علمه المحيط بكل شي * فانه يستلزم أن لا يشتبه عليه أي فرد من أحد بأجزاء الآخرين لكمال علمه واحاطته بجميع الذرات وما تحلل منها قال تعالى : ” وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ ” (١)
وقال تعالى : ” يَعْلَمُ مَا بَلَغَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿١٦﴾ ” (٢)

وقال تعالى :

” قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ” (٣)

ثانيا : وأما القدرة فان الله تعالى قادر على كل شي * وقدرته تستلزم أن يكون قادرا على جمع ما تفرق من ذرات في الأجساد واعادة بنائها وتكوينها وارسال الأرواح اليها ثم بعثها وحشرها ، والأدلة على ذلك كثيرة منها قياس الاعادة على الابتداء إما :

١ - عن طريق قياس (المساواة) كما قال تعالى :

” كَيْمًا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١٦﴾ ” (٤)

وقوله :

” كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا نَأْكُفُّ عِلْمِينَ ﴿١٥﴾ ” (٥)

يعنى أن الاعادة ستكون مثل الابتداء في قدرة الله عليها وقد حصل الایجاد أولا ، فما المانع من الاعادة ثانيا .

-
- (١) يونس / ٦١
(٢) سبأ / ٢٠
(٣) ق : ٤
(٤) الاعراف / ٢٩
(٥) الانبياء / ١٠٤

٢ - وإما عن طريق قياس (الأولى) كما قال تعالى :
” وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ
الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٧﴾ “ (١) (٢)

وهذا ما تعرضت له سورة غافر استدلالاً على إمكان البعث وتحقق وقوعه ملتزمة بالمنهج القويم الذي يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بما تشاهده وتحسه ويقع منها تحت تأثير السمع والبصرويين ما تقرره العقول السليمة ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة

قال تعالى :
” إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ مَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءُ فَلْيَلْمِزْنَا مَا نَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنبِيءٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ “

والبحث في معنى الآية يتضمن ثلاث نقاط :

أولاً : الموضوع :

محاجة المجادلين في آيات الله المشتبهة على انكار البعث الذي هو أصل المجادلة ومدارها بل هي أكبر شبهة لهم ضللت أنفسهم وروجوها

(١) سورة الروم آية ٢٧ .

(٢) انظر مناهج الجدل في القرآن الكريم ص : ٣١١ - ٣١٢ .

(٣) سورة غافر آية ٥٦ - ٥٩ .

في عامتهم فقالوا :

(١) ” أءذا كنا تراباً أئنا لنفي خلق جديد“

فكانوا يسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم - لا جل ذلك :

” وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُوكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبِينُ لَكُمْ إِذْ أَنْزَلْنَا فِيكُمْ مَرْقًا لَكُمْ لِنُقِلَّ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ“

(٧) أَفَنُزِّلُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِجَّةٌ (٢)

ثانيا : حجتهم في الانكار :

الحقيقة أنهم لا يملكون أى حجة على هذا الانكار وانما الحامل

لهم على هذا الجدل كما تقره الآيات هو :

١ - الكبر ، قال تعالى :

(٣) ” إِنَّ الَّذِينَ يَجِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَآلِهَةً غَيْرَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ اللَّهُ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنْهَمُ إِذْ فِي صُدُورِهِمْ الْإِلا كِبَرٌ“

أى أن الحامل لهم على هذا الجدل بالباطل هو كبر في نفوسهم .

٢ - الجهل ولهذا قال تعالى :

(٤) ” وَلَئِنْ أَكْثَرَتِ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ“

أى (لا يتدبرون الحجة ولا يتأملونها لانهم وكما كان كثير من

العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض ، وينكرون المعاد

استبعادا وكفرا وجهلا وقد اعترفوا بما هو أولى ما أنكروا (٥)

(١) سورة الرعد آية ٥٥

(٢) سورة سبأ آية ٧ - ٨

(٣) سورة غافر آية ٥٦

(٤) سورة غافر آخر آية ٥٧

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج ٤ ص ٨٥

وهم لا يعلمون ، لأنهم متلاهون عن النظر في الأدلة
مقتنعين بمبادئ الخواطر التي تبدولهم فيتخذونها عقيدة .

الحسد ، يقول صاحب التفسير الكبير : (فهم يجادلون بغير
سلطان ولا حجة بل لمجرد الحسد والكبر والتعصب ، ولذلك
يوضح الله تعالى الفرق بين الجدل المقرون بالكبر والحسد ،

والجدل المقرون بالحجة والبرهان بذكر المثال : (١)

” وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ “

أى وما يستوى المستدل والجاهل المقلد ولا العالم والجاهل
ومع ذلك وان كانوا يعلمون ان العلم خير من الجهل وأن العمل
الصالح خير من العمل الفاسد الا أن الحسد يعمي قلوبهم
فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة وفي الحسد
والحقد والكبر أنه محض الطاعة (٢) ولذلك نفي عنهم وصف
الايمان لأن أكثر الناس وهم المشركون (يعرون بالأدلة
والآيات وهم معرضون عن دلالتها فيبقون غير مؤمنين بمدلولاتها
ولو تأملوا واستنبطوا بعقولهم لظهر لهم من الأدلة ما يؤمنون
بعده (٣)

(١) سورة غافر آية ٥٨

(٢) التفسير الكبير / الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٧٩ - ٨٠

(٣) التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ١٧٩ - ١٨٠

ثالثا - محاجة القرآن لهم :

الأصل في المحاجة أو استدلال القرآن لهم كان (بقیاس الاعادة
على خلق السموات والأرض بطريق الأولى :

” أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ “ (١) (٢)

(أى أن القادر على الأكبر قادر على الأصغر لا محالة ، وتقرير هذا الكلام ،
ان الاستدلال بالشيء على غيره هو على ثلاثة أقسام :

١ - أن يقال لما قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى ،
وهذا فاسد .

٢ - أن يقال لما قدر على الشيء قدر على مثله ، فهذا استدلال حق
لما ثبت في العقول أن حكم الشيء حكم مثله .

٣ - أن يقال لما قدر على الأقوى الاكمل فبان يقدر على الأقل
الأرذل كان أولى وكما يقول الامام الرازى : وهذا الاستدلال
في غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البتة (٣) وهو كثير
في القرآن كقوله تعالى :

” أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا
لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴿٤﴾ “

وقوله تعالى : ” أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ بِقَادِرٍ

عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥﴾ “

-
- (١) سورة يس آية ٨١ .
(٢) الاتقان في علوم القرآن / السيوطي ج ٤ ص ٥٣ .
(٣) التفسير الكبير ج ٢٧ ص ٩٨ .
(٤) سورة الاسراء آية ٩٨ .
(٥) سورة الاحقاف آية ٣٣ .

(فهو يوجه النظر الى مظاهر قدرته متخذاً ذلك ذريعة الى اقتناعهم بأمر البعث ليقرر بعد ذلك أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولذا صح أن يسألوا ليقروا : "أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنْتِهَا (٢٧)
رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّلَهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)
أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)" (١) (٢)

ونرى من خلال ذلك عقد التشابهة بين خلق السموات والأرض

وبين إعادة خلق الانسان مرة أخرى مستدلاً بطريقة التشيل (التي يقيس فيها المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبهم أو على أمر بدهي لا تنكره عقولهم ، وتقر به أفهامهم ويسين الجهة الجامعة بينها .

يقول صاحب كتاب المعجزة الكبرى (وكثير من استدلالات البعث تقوم على تقريب البعث بقدره الله تعالى عليه بما يرون من انشاء ذلك الكون البديع ليقرّب فيه البعيد ويسهل على الأفهام دخوله بقياس ما في الغيب على المشاهد والذي فيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى وأنه القادر على ما لم يقع الآن وسيقع كما وعد ووعدته لا يخلف (٣) .

(١) سورة النازعات آية ٢٧ - ٣٣ .

(٢) انظر من بلاغة القرآن / أحمد بدوي ص ٢٦٥ .

(٣) أبوزهرة ص ٣٨٠ - ٣٨١ .

وقد استدل القرآن على بطلان انكارهم بأمرين :

١ - ما ذكرته الآية من أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر لأنهم :

أ - (كانوا مقرين بأن الله خالقها ،

ب - وأنها خلق عظيم لا يقادر قدره) (١) .

٢ - (أن مجادلتهم كانت في البعث وهو الاعادة ولا شك أن الابتداء

أعظم وأبهر من الاعادة فإذا كان ابتداء خلق العظيم - يعني السموات

والأرض - داخلا تحت القدرة ، فابتداء خلق الحقير - يعني الناس - أدخل

تحتها واعادته أدخل من ابتداءه ، فهو أولى بأن يكون مقدورا عليه مما

اعترفوا به / خلق السموات والأرض بدرجتين ، وإلى هذا الترتيب وقعت

الإشارة بقوله تعالى :

(٢) ” وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ نَقُومَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِأَمْرٍ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ”

فقرر أن قيام السماء والأرض هو بأمره ، أي خلقها من آياته ، فكيف بما

هو أحط من قيامها بدرجتين وهو اعادة البشر أهون عليه من الابتداء

لتتحقق الدرجتان المذكورتان فقال تعالى :

(٣) (٤) ” وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ” (١)

(١) تفسير البحر المحيط / أبي حيان الأندلسي ج ٧ ص ٤٧٢ .

(٢) سورة الروم آية ٢٥ .

(٣) سورة الروم آية ٢٧ .

(٤) الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال وبحاشية الكشاف

ابن المنير ج ٣ ص ٤٣٣ .

يقول صاحب تفسير البحر المحيط (وهو أبلغ من الاستشهاد
بخلق مثله)^(١) ثم (لما أعطي اثبات البعث ما يحق من الحجاج
والاستدلال ، تهيأ المقام ، لاستخلاص تحقيقه ، كما تستخلص النتيجة عن
القياس ، فأعلن بتحقيق مجيء الساعة وهي ساعة البعث از " الساعة "
في اصطلاح الاسلام علم بالغلبة على ساعة البعث ، فالساعة والبعث مترادفان
في المال ، فكانه قيل : ان الذي جادل فيه المجادلون سيقع لا محالة
اذا انكشفت عنه شبه الضالين وتمويهاتهم فصار بيننا لا ريب فيه)^(٢)
وكعادة القرآن في تنوع أساليبه والتي على أساسها يختلف
اتجاهه الى موضع الاستدلال فهو هنا :

١ - كان استدلاله برد المسألة الى أمر بدهي معروف لديهم ، وهي
خلق السموات والأرض والذي لا ينكرونه فما دام قد قدر باعترافهم
على خلقهما ولم يدع أحد منهم أن الله عاجز عن ذلك فبطل أن يكون
عاجزاً من إعادة خلق الانسان مرة أخرى تعالى الله عما يقولون
علواً كبيراً .

٢ - كما ضرب الله تعالى المثل ليقرّب الحقيقة ويدنيها مزيلاً سبب
انكارهم ، يقول صاحب تفسير البحر المحيط : (ولما كان أكثر الناس
لا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم بل ويجادلون بالباطل في أمر
البعث نفي العلم عن الأكثر وتخصيصه به يدل على أن القليل

(١) أبوحيان الأندلسي ج ٧ ص ٤٧٢ .

(٢) التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

يعلم، لذلك ضرب مثلا للجاهل وهو صاحب الباطل بالاعمى
وللعالم وهو صاحب الحق بالبصير وانهما لا يستويان فقال :
” وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ “ (١)

أى الذى يجادل بالباطل والذى يجادل بالحق ولا يستوى المحسن
بالايان والعمل الصالح والسيء بالكفر والمعاصي فانقفا الاستواء
بينهما هو من الجهة الدالة على العس وعلى البصر والا فهما مستويان في
غير ما شئ* ولما كان قد تقدم :

” وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ “ (٢)

فكان ذلك صفة ذم ناسب أن يبدأ في ذكر التساوى بصفة الذم فبدأ
بالاعمى (٣)

٣ - ثم استخدام أسلوب التأكيد أو التوكيد الذى هو من أهم
العوامل لبث الفكرة في نفوس الجماعات وقرارها فسي
أفندتهم اقرارا ينتهي الى الايمان بها.

فهم عندما أنكروا البعث يوءد مجيئه بأن واللام لمبالغة
المخاطبين في الانكار. يقول صاحب كتاب (من بلاغة القرآن) (كلما توغل
الخبر في ميدان الشك زادت ألوان المؤكدات وكما ألج هو لاء في
التكذيب والشك زاد هو في تأكيد أمرها) (٤) ومن هنا كان التأكيد

(١) سورة غافر آية ٥٨ .

(٢) سورة غافر آية ٥٧ .

(٣) أبوحيان الأندلسي ج٧ ص ٤٧٢ ، فتح القدير / الشوكاني
ج٤ ص ٤٩٨ .

(٤) انظر : أحمد بدوى ص ١٤٣ ، ١٤٥ ، من أسرار البلاغة ص ١٧٩ .

بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات . يقول صاحب كتاب الاتقان : (فاذا اجتمعت إن واللام ، كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات لأن (إِنَّ) أفادت التكرير مرتين فاذا دخلت اللام صارت ثلاثا) .^(١)

ثم قال تعالى : (لا ريب فيها) (لأنه لا بد من مجيئها ولا محالة وليس بمرتاب فيها لأنه لا بد من جزاء)^(٢) فنفي عنها الريبية ب (لا) على سبيل الاستفراق مع أنه ارتاب فيها المرتابون ، لكن نزل منزلة العدم تعويلا على ما يزيله من الأدلة الباهرة كما نزل الانكار منزلة عدمه لذلك) .^(٣)

وعليه فقد كانت خلاصة الاستدلال في الآيات المذكورة بالتالي :

- ١ - هدم موقف المعاندين لأسباب :
 - أ - فقدان الحجة (بغير سلطان) .
 - ب - فقدان الاستقامة (كبر) .
 - ج - العجز (ما هم بيالغيه) .
 - د - الجهل (لا يعلمون) .
 - هـ - الكفر (لا يؤمنون) .
- ٢ - وحدانية الربوبية تثبت القدرة على البعث (وهو السميع العليم) .
- ٣ - ايجاد الأكبر يؤكّد القدرة على ايجاد الأصغر (لخلق السموات والأرض) .
- ٤ - عدم استواء المتعارضين يؤكّد أن قدرة الله غير قدرة الناس .
- ٥ - الوان التأكيد من الآية دليل واضح لكل من آمن .

(١) جلال الدين السيوطي ج١ / ص ١٩٥ .
(٢) الكشاف / الزمخشري ج٣ ص ٤٣٣ .
(٣) الاتقان في علوم القرآن / السيوطي ج١ ص ١٩٤ .

ما يخرج به الداعية من مجادلة المشركين للرسول صلى الله

عليه وسلم:

١ - التعرف على طبائع معينة من البشر لا تستجيب للدعوة ليس لأن لها مرتكزاً من حق أو سنداً من حجة إلا أنه الكبر والجهل والحسد والتعصب الأعمى الذميمة ، ومن هنا فإن على الداعية أن يكون مهياً نفسياً إلى أن عمله ليس وظيفة حتمية النتائج بل هي رسالة تبليغ وإيصال ميراث لا ينتظر عليه جزاء ولا شكورا بل سيجد ويلاقى التعنت والتعصب ، وكما قال صاحب الظلال هي (قصة قديمة منذ عهد نوح عليه السلام)^(١) ومن هنا فإن عليه أن لا ييأس ولا يضيق بل يكون طويل النفس مع من يدعوهم ، وهذا رسول الله مع قومه بعد كل استدالاته الواضحة التي عرضها عليهم والتي توه كد وحدانية الله فهي على كثرتها إلا أنهم يجادلون ويماطلون وليس هذا فقط بل يحاولون دعوتهم إلى الإلحاد بربهم لا يضيق ، ولا يتبرم ، بل يدعوهم إلى النظر في زيادة من نعم الله لأنه لم يرسل إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

٢ - ومع أن الأصل في الدعوة هو الملاينة والملاطفة

والمجاملة الآن على الداعية أن يدرك أن هذه الملاينة لا تكون إلا في أسلوب الدعوة وطريقة النداء أما السبب الذي يدعو إليه فلا ملاينة ولا مجاملة ولا مداراة بل لا بد أن يعلم الجميع أنهم إن لم يستجيبوا فليهم دينهم وله دينه وهذا واضح ما علمه سبحانه الداعية الأكبر محمداً صلى الله عليه وسلم : " قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ " ^(٢)

(١) سيد قطب ج ٤ ص ٣٠٧٠

(٢) سورة غافرية ٦٦

وهو ليس خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه أبعد الناس عن عبادة غير الله معه وإنما المخاطب وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بهـذا الأسلوب هو كل فرد من أفراد أمته وعلى رأسهم دعائه.

٣ - تنوع الأسلوب الذي انتهجه - عليه السلام - في

استدلاله بين التوكيد والتكرير ، والتمكين ، والترغيب والترهيب ، السدى يعتمد على اختيار الألفاظ .

أ - ففي قضية الوجدانية مثلاً نراه يستخدم أسلوب

التوكيد ، الذي هو من أهم العوامل لبث الفكرة في نفوس الجماعات وإقرارها في أفئدتهم اقراراً ينتهي إلى الايمان بها ، فنراه يكرر كلمة (الرب) أثناء حديثه معهم أكثر من مرة لأنها هي القضية . . ومن

خلالها لم يلفت أنظارهم إلى جمال الآيات الكونية مثلاً بل إلى ما يجعلهم يشعرون بأنها نعمة ذات فائدة لا يستغنى عنها فيوحدون .
مراعياً أنه ليس في مجال عرض قدرة الله الدالة على وجوده لأنهم مؤمنون أنه موجود بل عرض مصنوعاته بطريقة يصل فيها إلى الوجدانية في قلوبهم ، ومن هنا لا بد أن يدرك الداعية أن لكل مقام مقالاً ، فهم لما كانوا مقرين بوجود الله كان حديثه معهم بأسلوبه وألفاظه واستدلالاته كقطة واحدة مترابطة هي برهان دعوته للوجدانية .

ب - أما في قضية البعث فقد اعتمد على البدهيات كمدخل

لحجته فلا يستطيعون نكرانها .

٤ - التدرج في الأسلوب الذي بدأ بعرض الآيات الكونية

والآفاقية حتى إذا لم تعمل أثرها في نفوسهم انتقل إلى ما لا يجحدونه بل يعيشونه عن طريق عرض الآيات/أنفسهم^{في} والتي هي أقرب إلى الاحساس

والتفكير فيها فيخلق من ذلك جوا يعيش في ظله القلب البشرى ليوجهه
بعد ذلك الى دعوة الله وحده مخلصا له الدين .

٥ - ومن هنا لوحظ أن الرسول / وهو يعرض دعوته وأثناء سوق
صلى الله عليه وسلم

استدلالاته لا يبدأ بعرض مطلبه مباشراً
بل يبدأ ذلك بمقدمات وهي عرض نعم الله عليهم وما أكثرها في الآفاق
والكون والانفس ، لتكون بمثابة المنبه والتشويق والمقدمة والتمهيد في
النفوس لما سيقوله بعد ذلك من أصل في الموضوع ، فبعد ذكر
الحقائق التي لا يجحدونها يعقب عليها بدعوتهم الى الايمان بالله وحده .

٦ - ومن خلالها استخدم ما يسمى بأسلوب الالهاب والتهبيج

والتي لا بد أن يقف عندها الداعية للفائدة ، وخاصة في المعاني الهامة
التي هي أصول في هذا الدين كما في قوله تعالى :

” قُلْ إِنِّي نُسِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (١) “

حيث ان المخاطب وزاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الأسلوب هو كل
فرد من أفراد أمته وانما كان الغرض اثاره الشعور والوجدان لتكون النفس
أكثر تلقيا وأكثر تسكنا .

٧ - وأخيرا يتعلم الداعية بشكل عام كيف يمكن اشارة

المخاطبين ودفعهم الى التفكير من خلال جمال النقاش بين الرسول
صلى الله عليه وسلم ومشركي مكة والذي يشير التفكير والوجدان معا ، يشير
التفكير بقضاياها ويشير الوجدان بتلك الأسئلة المطروحة .

المبحث الرابع :
المجاذبات التي وردت في السورة .

المبحث الرابع

المجادلات التي وردت في السورة

مجادلة فرعون لموسى من أعظم صور الصراع بين الحق والباطل ، وهي تصور معركة ضارية بين جند الرحمن وجند الشيطان ، وقد ذكرت هذه المجادلة في كثير من سور القرآن لما فيها من عظات و عبر ، وقد كان لسورة غافر نصيب منها تحكى بدايتها كما قال سبحانه :

”وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهٰمٰنَ وَقٰوِنَ (١)“

ثم ان سورة الاعراف شرحت لنا هذه البداية كما قال تعالى :

”وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ اِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعٰلَمِينَ ﴿١٤﴾ حَقِيقٌ عَلٰى اَنْ لَا اَقُوْلَ عَلٰى اللّٰهِ اِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرٰٓءِيلَ (٢)“

هذه البداية التي تعتبر (ردا على فرعون حين قال :

”اَنَا رَبُّكُمْ اَلَا عَلٰى ﴿١٤﴾“ (٣) فكان التعريف به (بطريقة

الاضافة التي تفيد التعظيم له سبحانه) (٥)

ومقام الامر (أن موسى قال لفرعون ومطه قد جئتمكم ببينة

ورهان من ربكم يشهد على صحة ما أقول وصدق ما أذكر لكم من أرسال الله

اياى اليكم رسولا) (٦) فجاءت هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا

-
- (١) سورة غافر آية ٢٣-٢٤ .
(٢) سورة الاعراف آية ١٠٤-١٠٥ .
(٣) سورة النازعات آية ٢٤ .
(٤) انظر استخراج الجدال من القرآن الكريم / ابن الحنيلي ص ٧١ .
(٥) انظر الطراز / يحيى بن حمزة العلوى ج ٣ ص ٢٦٢ ، من أسرار البلاغة / محمود شيخون ص ١٠٤ .
(٦) انظر جامع البيان في تفسير القرآن / الطبرى ج ٩ ص ١٠ .

لأن مقام الإنكار ما يشير سؤال سائل أن يقول : هذه دعوى غريبة تحتاج إلى حجة ، فبنى موسى كلامه على ما يوثق به من صدق دعوته مع الاستعداد للتبيين على ذلك الصدق بالبراهين أو المعجزة إن غلبها فرعون (١) فاستهل حديثه معهم مؤكداً (اني رسول) يؤكده لهم ليثبت المعنى في نفوس سامعيه فيستقر في أفئدتهم كبداية لعقيدة هي الأساس الذي يوصل إلى الإيمان وليس اتهاماً بالسحر فهو رسول وليس بساحر .

هذا التقرير لم يكن مجرد ادعاء بل جاء تصاحبه البينة ليس مني بل من ربكم ، وأنا أرى أن موسى عليه السلام لم يقل من ربي ولا من ربنا لأن الأصل أن فرعون يدعي أنه ربهم الأعلى وموسى بعيد عن ذلك لا يعترف إلا بربوبية رب العالمين فهو إذا ربكم الذي هو رب العالمين ومنهم فرعون مدعي الربوبية ، يقول صاحب التحرير والتنوير (وقد قصد موسى اختيار هذه الصفة في الاعلام بالرسول ابطلاً لاعتقاد فرعون أنه رب مصر وأهلها فانه قال لهم " أنا ربكم الأعلى " فلما وصف موسى مرسله بأنه رب العالمين شمل فرعون وأهل مملكته فتبطل دعوى فرعون انه اله مصر بطريق اللزوم وذلك فني جميع البلاد والعباد) (٢) ثم يعقب صاحب التفسير الكبير قائلا : (ان فيه إشارة

(١) التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج٩ ص ٣٩٠

(٢) محمد الطاهر بن عاشور ج٩ ص ٣٨٠

الى ما يدل على وجود الاله تعالى قرب العالمين يدل على أن العالم موصوف بصفات لا جلها افتقر الى رب يربيه واله يوجد ويخلقه (١) .
ومن هنا قال لهم أولا : (من رب العالمين) كحقيقة مجردة ردا على دعوى فرعون .

ثم قال : (من ربكم) لأنه ثبت أنه ربكم (بكل البينات العدة التي جئت بها من عند من تتسب اليه الربوبية وهو ربكم لا ربى وحدى ، وفي هذا استدراج لهم الى الاعتراف به وليين بذلك جماهم ويكسر من سورتهم) (٢) .

ومذك نرى أن دعوى موسى عليه السلام اشتملت على مطالب أساسية كدعوة كل الرسل وهي :

١ - اقرار فرعون بأن موسى رسول من عند الله بموجب البينات والبراهين التي جاء بها من عند الله .

٢ - اقرار بوجود الله ووحدانيته لا شريك له .

ونظم الكلام كما يقول الرازي : (كأنه قال : أنا رسول الله ورسول الله لا يقول الا الحق ، ينتج اني لا أقول الا الحق ، ولما كانت المقدمة الاولى خفية ، وكانت المقدمة الثانية جليلة ظاهرة ، ذكر ما يدل على صحة المقدمة الاولى وهو قوله :

وهي المعجزة الظاهرة $قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ$ ،

القاهرة ، ولما قرر رسالة نفسه فرع عليه تبليغ الحكم وهو قوله

(٣)

(

$فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ$) ،

(١) الفخر الرازي ج٤ ص ١٤٠ ص ١٩٠ .

(٢) انظر الكشاف / الزمخشري ج٣ ص ٤٢٤ ، فرائب القرآن ورفائب الفرقان / النيسابوري ج٢٤ ص ٤٠ .

(٣) التفسير الكبير ج١٤ ص ١٩٠ . والآية من سورة الاعراف آية ١٠٥ .

الا أن فرعون قد رفض هذه المطالب ، وجادل موسى مجادلة عنيفة بدأت بتحديه ومطالبته بالبينة التي ادعى أنه أتى بها تدل على صدقه فيما يدعى اليه حيث قال له كما تحكي سورة الاعراف :

” إِنْ كُنْتَ حِجَّتْ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٦﴾ ” (١)

(أي ان كنت جئت بمعجزة لأن أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجزة ، وأكثر موارد البينة مراد فيه الحجة فحين قال موسى :

” قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ” (٢)

أي الحجة على اثبات الالهية وعلى حقيقة ما جاء به من ارشاد لقومه فكان فرعون غير مقتنع ببرهان العقل أو قاصرا عن النظر فيه فانتقل الى طلب خارق للعادة (٣) . وكأنه يوحي بالتصديق عند ما يأتي موسى بها .

ومن هنا قام موسى عليه السلام بتقديم البينة الدالة على صدقه

وصحة نبوته وعرضها عليهم كما بينها الله :

” فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٦٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦٨﴾ ” (٤)

وبذلك كملت مقدمات موسى دليلاً وحجة أمام فرعون والتي اعتمدت على :

١ - أن لهذا العالم لها قادرا حكيما .

-
- (١) سورة الاعراف آية ١٠٦ .
(٢) سورة الاعراف آية ١٠٥ .
(٣) التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ج ٩ ص ٣٩ - ٤٠ .
(٤) سورة الاعراف آية ١٠٧ - ١٠٨ .

٢ - أنه أرسله اليهم بدليل أنه أظهر المعجزة على وفق دعواه ومتى كان الأمر كذلك ، وجب أن يكون رسولا حقا .

٣ - أنه متى كان الأمر كذلك كان كل ما يبلغه عن الله اليهم فهو حق وصدق ، ثم ان فرعون ما نازعه في شيء من هذه المقدمات الا في طلب المعجزة ، وهذا يوهم أنه كان مساعدا على صحة سائر المقدمات والمعروف أن يلتزم بالتصديق بعد رؤية بينات موسى خاصة وأنه هو الذي تحداه بطلبها الا أن فرعون لم يسلم لموسى بل أراد هو ومن معه التضليل والتسويه وأخذتهم العزة بالاثم ، وكان قوم فرعون قد اشتبهوا بالسحر وكان غالبا في زمانهم ولهذا اتهموه به كما تحكى سورة غافر : **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَّانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٣٤﴾** (١)

وقالوا له : **أَجْتَنَّاكَ لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾** (٢)

فقد (أوردوا الشبهة الطاعنة في نبوته عليه السلام وهي أن ما جئتنا به سحر لامعجز ولما علم أن المعجز انما يتميز عن السحر لكون المعجز ما يتعذر معارضته والسحر ما يمكن معارضته قال :

(٣) (٤)
” فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ “ (١)

-
- (١) سورة غافر آية ٢٣-٢٤ .
(٢) سورة طه آية ٥٧ .
(٣) سورة طه آية ٥٨ .
(٤) التفسير الكبير / الفخر الرازي ج ٢٢ ص ٢٧١ .

يقول الامام ابن نجم الحنبلي : (فالصادر من خصمه - فرعون - معارضته الا أنها فاسدة لأن حقيقة المعجزة غير حقيقة السحر فلا يخلو حال فرعون من أن يكون :

- ١ - ما فهم معجزة موسى .
- ٢ - أو فهم الا أنه قصد المصادمة والمباهة) . (١)

ومن هنا أرادوا أن يخوضوا معه تجربة أخرى القصد من ورائها

الخداع كما تشرحتها سورة طه :

” فَلَمَّا أَنْيَّتْكَ سِحْرَ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٢) “

وكلاهما يوجب المسامرة الى دليل يفضح معارضته ويقطع حجاجه ، لذا فقد

قبل موسى الاجتماع بهم يوم الزينة مستخدما أسلوب الاستدراج الذي

اعترف لهم فيه بالسحر وليس مراداً ، بل هو من مجاراتهم ليعثروا فلربما كان

من الممكن بهذه الوسيلة ثنيهم عن الانكار (٣) فقال لهم :

” مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ سُحًى (٤) “

وهذا هو التحدى الثاني لموسى والذي طلب منه فيه تحديد الزمان والمكان

لتلك المعركة الجدلية ، وانما أراد موسى عليه السلام أن يكون يوم العيد

الذى يجتمع فيه الناس وأن يكون ذلك المشهد بين معترك الحق والباطل

(١) انظر استخراج الجدال من القرآن / ص ٦٢٧ .

(٢) آية ٥٨ .

(٣) انظر الاتقان في علوم القرآن / السيوطي ٥٧/٢ .

(٤) سورة طه آية ٥٩ .

في رابعة النهار لكي لا يخفى على أحد ما يجري فيه ولتظهر قدرة الله في مثل ذلك الموقف الرهيب ، يقول صاحب التفسير الكبير : (ان / يوم الزينة ^{تعيين} يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذي يعرف أن اليد له لا المبطل الذي يعرف أنه ليس معه الا التلبيس) . (١)

وبدأ فرعون ومن معه تلك المجادلة الا أنهم قدموا لها بمقدمة

تهيئة وتعبئة للنفوس :

” قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمْ الْمَشْأَلِ ﴿١٦﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿١٧﴾ “ (٢)

والقصد هو اشارة حمية بعضهم بعضا ، فكانت هذه التعبئة عبارة عن تنفير وذلك :

- ١ - (بالطمع في معجزات موسى عليه السلام .
- ٢ - اتهامه بالسحر لأن كل طبع سليم يقتضي النفرة عن السحر وكراهة رؤيته الساحر .
- ٣ - ومن حيث أن الانسان يعلم أن السحر لا بقاء له فاذا اعتقدا فيه قالوا كيف نتبعه فانه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه .
- ٤ - اتهامه بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم وهذا نهاية التنفير لأن المفارقة عن المنشأ والمولد شديدة على القلوب وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله :

” أَجْتَنَّا الْخُرُوجَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ “ (٣)

(١) الفخر الرازي ٥٢٢ / ٢٢

(٢) سورة طه آية ٦٣ - ٦٤

(٣) سورة طه آية ٥٧

وكان السحرة تلقوا هذه الشبهة من فرعون ثم اعادوها .

٥ - اتهمه بأنه يريد أن يذهب بطريقتهم المثلث وفي ذلك تأثير شديد

على القلب ، لأن العدو اذا جاء استولى على جميع المناصب

والأشياء التي يرغب فيها وفي ذلك نهاية المشقة على النفس .

فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة في التنفير عن موسى والترغيب

في دفعه وابطال أمره . (١)

ثم بدأت المعركة : ” قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْقِي وَإِنَّا نَكُونُ أَوْلَىٰ مِنْ أَلْقَىٰ ۖ قَالَ بَلْ

أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۖ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ

بِخِيفَةِ مُوسَىٰ ۗ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۖ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا

صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْعَلُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۖ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ بُجْدًا قَالُوا إِنَّمَا رَبُّنَا هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۗ

يقول الفخر الرازي عن موسى عليه السلام : (وقد قدمهم فسي

اللقاء على نفسه لأنه كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به من

حاجة الى اظهارها مرة أخرى ، والقوم إنما جاءوا لمعارضته فلو بدأ

بإظهار المعجزة لكان كالسبب في اقدامهم على اظهار السحر وقصد ابطال

المعجزة غير جائز ، ولكنه قوض الأمر اليهم حتى أنهم باختيارهم يظهرون

ذلك السحر ثم يظهر هو معجزته التي تُبطل سحرهم فكان هذا

(٢)

التقدير سبباً لازالة الشبهة) .

(١) الفخر الرازي ٢٢ / ٨٢ .

(٢) سورة طه آية ٦٥ - ٧٠ .

(٣) انظر الفخر الرازي ٢٢ / ٨٢ .

ومن هنا خر السحرة سجداً مومنين ، يقول صاحب كتاب من

بلاغة القرآن : (والنظرة الفاحصة تكشف رغبة القرآن في تصوير نفسية

هو لا السحرة ، وأنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى بسحرهم خائفين أو شاكين

في نجاحهم وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم في نصر مومنين عاجل ، فهم

لا ينظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه ، بسبل

كانوا مومنين بالنصر سواء ألقى موسى أولاً أم كانوا هم أول من ألقى (١) .

وفي هذا رد على شبهة فرعون الثانية والتي ألقاها مباشرة بعد أن شاهد

منهم السجود والاقرار خوفاً من أن يصير ذلك سبباً لاقتداء سائر الناس بهم

في الايمان بالله تعالى وبرسوله فقال :

”ءَامِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُذِّبَ الَّذِي عَلَّمَ السِّحْرَ
فَلَا قُطِعَ مِنْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صُلِبَتْكُمْ فِي جُدُوعِ
الْخَلْلِ وَلَعَلَّكُمْ مِنْ آيَاتِنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَنفَى“ (٢) ،

يقول صاحب التحرير والتنوير : (لما رأى فرعون ايمان السحرة

تغيظ ورام عقابهم ولكنه علم أن العقاب على الايمان بموسى بعد أن فتح

باب المناظرة نكت لا أصول المناظرة فاختلق للتشفي من الذين آمنوا

شبهة تلخص في انهم :

١ - آمنوا قبل أن يأذن لهم معتمدين على الخاطر دون بحث دليل

على أن ايمانهم ليس عن بصيرة بل عن سبب آخر فيه جرأة عليه ،

وأوهم أنهم لو استأذنوه لآذن لهم .

(١) من بلاغة القرآن / أحمد بدوي ص ٦٢ .

(٢) سورة طه آية ٧١ .

٢ - ثم انه لكبيركم الذى علمكم السحر ، وأنتم تلامذته فيه فاصطلحتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لا مره ونغخيمنا لشأنه ، وهذا تواطؤ بينكم ، ومقصد فرعون من هذا اقناع الحاضرين بأن موسى لم يأت بما يعجز السحرة ادخالا للشك على نفوس الذين شاهدوا الآيات .

٣ - ثم بعد ذلك اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم عن الايمان ، و تنفيرا لغيرهم عن الاقتداء بهم - أى السحرة - حين قال :
(لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) (١) .

وهذا هو الجدل الذى يترجح فيه جانب الغرور والكبرياء والترفع باظهار العلم ، فكأن الامام الغزالي - رحمه الله - يشرح نفسية فرعون فيقول (وأما الباعث على هذا فهو الترفع باظهار العلم والفضل والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنيتان للنفس قويتان لها .

أ - أما اظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس وهي من مقتضى ما فى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية .

ب - وأما تنقيص الآخر فانه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويؤذيه ويصدمه (٢) .

(١) انظر التفسير الكبير / الفخر الرازى ٨٧/٢٢ ، التحرير والتنوير /

محمد الطاهر بن عاشور ٢٦٣/١٦ .

(٢) انظر احياء علوم الدين / الغزالي ح ٣ / ١١٦ - ١١٨ .

ومع ذلك فقد انجلت المعركة بانكسار عنفوان الكبرياء :

(١) ”فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾“

(ولا غيظ أعظم على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصادقة الصحيحة التي لا تغلب أبدا) (٢) إلا أن فرعون لم يسلم بل استمر احتدام الجدل والصرع بينه وبين موسى وظل العناد مستحكما في نفوس آل فرعون حتى قالوا لموسى :

(٣) ” وَقَالُوا هَاتِنَا بِآيَةٍ لِّنَسْمَعَنَآ بِهَا فَمَا نَخْرُجُكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾“

وإذا بفرعون ومن معه بعد أن أعيتهم الحيل وبعد أن أصلاهم

موسى عليه السلام نار الحجج والبراهين ملجما خصومتهم فحما لهم ،

يلجأون الى منطق الطغيان والفرعنة/ وينتقلون بالأمر من المعارك الفكرية

(١) سورة الاعراف آية ١١٨-١١٩ .

(٢) انظر الاحكام في اصول الاحكام / ابن حزم الاندلسي ١/٢٥٠ .

(٣) سورة الاعراف آية ١٢٢ .

الى معارك دموية كما تقرر سورة غافر :

” فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحِجَابِ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ (١) “

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ” وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني اسرائيل ، أما الاول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإزالة هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الامرين ، وأما الامر الثاني فللعلة

الثانية ولاهانة هذا الشعب ولكي يتشاموا بموسى عليه السلام ، ولهذا

قالوا : ” أَوْفِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْنِيْنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (٢) “

ولهذا قال قتادة (٣) هذا أمر بعد أمر . (٤)

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل لا بد من التخلص من رأس الامر

كله : ” وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ

يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ (٥) “

(١) سورة غافر آية ٢٥/٢٦ . (٢) سورة الاعراف آية ١٢٩ .

(٣) هو قتادة بن دعامة بن قنادة ، أبو الخطاب ، السدوسي ، البصري

الأمي ، التابعي ، أجمعوا على جلالته وتوثيقه وحفظه وأمانته

واتقانه وفضله ، قال أحمد : ” كان قتادة أحفظ أهل البصرة

لم يسمع شيئا الا حفظه ، وكان عالما بالتفسير ، واماما في النسب ،

ورأسا في العربية ، توفي بواسط في الطاعون سنة ١١٧ هـ

(انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ١/١٢٢ ، طبقات المفسرين

٢/٤٣ ، وفيات الاعيان ٣/٢٤٨ ، حلية الاولياء ٢/٣٣٣) .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/٧٦ .

(٥) سورة غافر آية ٢٦ .

ومذ لك نرى أن الحجة التي احتج بها فرعون لقتله هو اظهر الخوف على دينهم مستغلا حب الناس الشديد لا دينهم يقول صاحب التفسير الكبير : (ولما كان حب الناس لا دينهم فوق حبهم لا موالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال (اني أخاف أن يبذل دينكم) وأتبعه بذكر فساد الدنيا فقال " أو أن يظهر في الأرض الفساد " .

وأما فساد الدين : فقد استغل اعتقاد القوم أن الدين الصحيح هو الذي كانوا عليه ، فلما كان موسى ساعيا في افساده كان في اعتقادهم أنه ساع في افساد الدين الحق .

أى على موسى
وأما فساد الدنيا : فهو لا بد وأن يجتمع عليه / قوم ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات واثارة الفتن (١) (وهذا كما يقال في الشل : صار فرعون مذكرا ، يعني واعظا يشفق على الناس من موسى عليه السلام وكما يقول ابن كثير - رحمه الله - : هو أمر في غاية الجحد والتجهم والعناد) . (٢)

(١) الفخر الرازي ٥٥ / ٢٧

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٧٦ / ٤ - ٧٧

وظن فرعون أن تلك المعارك ستبقى معارك في مستوى القدرات البشرية وأن الكثرة الكثيرة ستكون درعاً له ، وسندا في ذلك الصراع ، ناسياً أو متناسياً أن موسى يستند على القوة القاهرة التي لا تغلب والطمحاً المكين :

” وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ “ (١)

متخذاً من أسلوب التوكيد (وسيلة لتثبيت ذلك المعنى الذي يدور حوله كل ذلك الجدال في نفوس سامعيه وإقراره في أفئدتهم حتى يصبح عقيدة من عقائدهم) . (٢)

(١) سورة غافر آية ٢٧ .

(٢) انظر من أسرار البلاغة / محمود السيد شيخون ص ٧٩ .

(لفظة "إني" جاءت لتؤكد أن الطريق المؤد كد المعتبر
في دفع الشرور والآفات عن النفس إنما هو الاعتماد على الله والتوكل
على عصمته عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الانس، ولفظة "ربي
وربكم" جاءت لتقول: إن الله سبحانه هو الذي رباني وإلى درجات
الخير رقاني ومن الآفات وقاني وأعطاني نعمًا لا حد لها ولا حصر، فلما
كان المولى ليس إلا الله وجب ألا يرجع العاقل في دفع كل الآفات
إلا إلى حفظ الله .

وهو ربكم، وفيها بعث لقوم موسى على أن يقتدوا في الاستعاذة
بالله عيانه ويعتمسوا بالتوكل عليه اعتصامه . (١)

ثم جاء أسلوب التمكين شرحًا لتوكيده فقال :
(٢) "مَنْ كَلَّمْتَكَبْرًا لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ۗ" ،

فأما قوله "من كل متكبر" (تشمل فرعون وغيره من الجبابرة وليكون على طريقة
التعريف بهم فيكون أبلغ) (٣) وأما قوله : " لا يؤمن بيوم الحساب " ،
(فلأن الموجب للاقدام على إيذاء الناس أمران :

- أ - كون الانسان قاسي القلب .
- ب - كونه منكرا للبعث والقيامة .

(١) انظر التفسير الكبير / الفخر الرازي ٥٥/٢٧ - ٥٦ ، الكشاف /

الزمخشري ٤٢٣/٣ .

(٢) سورة غافر نهاية آية ٢٧ .

(٣) الكشاف / الزمخشري ٤٢٣/٣ .

فالتكبر القاسي قد يحمله طبعه على ايذاء الناس الا أنه اذا كان مقرا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعا له من الجري على موجب تكبره ، فاذا لم يحصل عنده الايمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له الى الايذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلا ، واذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلا فلا جرم تحصل القسوة والايذاء .^(١)

كان هذا شأن موسى مع ربه وكان ذاك شأن فرعون مع قومه يقلبون أوجه الرأي ويحيلون الفكر في الاقدام على جريمة القتل ، وبينما هم على ذلك اذ دفعت المروءة ، والشجاعة رجلا أنار الله بصيرته وكشف له سبيل الرشد والايمان فدافع عن موسى أشد الدفاع وناضل عن نفسه وجادل وبين لهم سوء أمرهم وعاقبة تدبيرهم وفند حججهم وزيف ضلالهم ، يقول صاحب التفسير الكبير : (لما حكى الله عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعانة بالله ، بين أنه تعالى قبيح انسانا أجنبيا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه وبالغ في تسكين تلك الفتنة واجتهد في ازالة ذلك الشر) .^(٢)

ولقد سلك في خطابه لفرعون وملكه مسالك شتى . . . وشى الى قلوبهم بالنصيحة يثير حساسيتها بالتخويف والاقناع ، مخاطبا العقل ، معتمدا في مناقشته معهم على المسلمات حتى يقطعوا بصحة المدعى أمامهم .

(١) التفسير الكبير / الفخر الرازي ٢٧ / ٥٦

(٢) الفخر الرازي ٤٧ / ٥٧

انها جولة عظيمة جالها ذلك الرجل المؤمن مع المتأمرين من فرعون وملئه ، وانه منطلق الفطرة المؤمنة في حذر ومهارة وقوة .

ولقد اعتمد في مجادلته قومه أسلوب الاستدراج (١) وهو مهم للداعية بما (تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم الحسني الاذعان والتسليم ، لانه لا انتفاع بايراد الالفاظ الطليحة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لفرض المخاطب بها) (٢) .

وقد بدأت باستفهام على سبيل الانكار في سبب قتله وتظهير

ما هم مقدمون عليه :

(٣)

” أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ”

(فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب واقتناع نفس تستحق القتل ، وقد ذكر الامام الرازي بعد ذلك ما يدل على حسن ذلك الاستنكار ويقسوى حجة :

- ١ - فالرجل - موسى عليه السلام - ما زاد على أن قال ” ربي الله ” .
- ٢ - ثم انه ما قال هذه الكلمة البريئة الا ومعه حجة وفي يده

برهانه :

(٤)

” وَقَدْ جَاءَ كُرْبًا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ”

- (١) وهو استمالة المخاطب بما يؤثر فيه ويأنس اليه ، أو بما يخوفه ويرغبه قبل أن يفاجئه المخاطب بما يطلب منه .
(انظر الأقصى القريب ، التنوخي ص ١٠٣ ، الطراز / يحيى ابن حمزة العلوي اليمني ٢ / ٢٨١) .
- (٢) المثل السائر / ابن الأثير ٢ / ٢٩٥ .
- (٣) سورة غافر آية ٢٨ .
- (٤) سورة غافر آية ٢٨ .

يشير الى تلك الآيات التي عرضها موسى عليه السلام ورأوها وهم
فيما بينهم وبعيدا عن الجماهير يصعب أن يباروا فيها ، فهم أول الناس
علماً بصدقها . (١)

ومن هنا يقول صاحب كتاب الطراز ما نصه : (فصدر كلامه
بالانكار عليهم في قتله واستقباحه لا مريم :

١ - لأنه قاتل بالتوحيد لله تعالى .

٢ - لأنه قد جاءهم بالمعجزات الواضحة في هدايتهم الى الخير .
فمن هذه حاله ، كيف يقدم على قتله ؟ هذا مما لا يتسع له عقل ولا يقبله . (٢)

(كأنه قال : أترتكين هذه الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس
محرمة ، من غير روية ولا فكر ، وما لكم من علة في ارتكابها الا كلمة الحق
التي نطق بها وهي قوله : (ربي الله) مع أنه لم يحضر لتصحیح قوله
بينة واحدة ولكن بينات عدة من عند من نسب اليه الربوبية وهو ربكم
لا ربه وحده . وهو استدراج لهم الى الاعتراف به ، وليلين بذلك
جماهم ويكسر من سورتهم) . (٣)

ثم أخذ بعد ذلك في الاحتجاج عليهم على جهة التقسيم ، ليفرض
لهم أسوأ الفروض ويقف معهم موقف المنصف أمام القضية تشبهاً مع أقصى

(١) انظر التفسير الكبير ٥٧/٢٧ ، ساهج الجدل في القرآن الكريم ،

الألمعي ص ٤١٣-٤١٤ .

(٢) يحيى بن حمزة العلوي الميمني ٢٨٢/٢ - ٢٨٣ .

(٣) انظر الكشاف / الزمخشري ٣ / ٤٢٤ ، غرائب القرآن / النيسابوري

فرض يمكن أن يتخذه ، مقسما الرأي في موسى عقليا عن طريق حصر الأوصاف للموضوع الذي يجادل بشأنه ثم بيان أنه ليس في أحد هذه الأوصاف خاصة تسوغ قبول القتل لموسى مطلقا دعوى فرعون من طريق هذا الحصر المنطقي للموضوع .

قال ابن الأنباري^(١) في شرح البرهان (السير) : يرجع الى اختبار أوصاف المحل^(٢) ثم شرح ذلك صاحب كتاب الاتقان فقال : (السير) والتقسيم أن يقسم ما هو محل الجدل الى منتهي أقسامه ويسبر كل قسم بأن ينفي عنه ما يريد الخصم اثباته له .^(٣)

والمفروض أن (مثل هذا التقسيم والسير لا يدع مجالا للشك وتستريح النفس الى ما تصل اليه من نتائج عن طريقه)^(٤) .

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن دعامة الامام أبوبكر بن الأنباري ، المقرئ ، النحوي ، البغدادي ، صاحب التصانيف العديدة ، كان صدوقا فاضلا دينا خيرا من أهل السنة ، كما كان حافظا ومع حفظه كان زاهدا متواضعا ، مات سنة ٣٢٨ هـ ببغداد (انظر ترجمته في البداية والنهاية ١١ / ١٩٦ تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٤٢ ، التفسير والمفسرون للداودي ٢ / ٢٢٧ وما بعدها) .

(٢) ارشاد الفحول للشوكاني ص ٢١٤ .

(٣) السيوطي ٢ / ١٧٣ .

(٤) من أسرار البلاغة / محمود السيد شيخون ص ٢٢٩ .

وقد حصرموه من آل فرعون دعواهم وقسمها فقال : ما علة
همكم بقتل موسى ؟ فالأمر لا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون كاذبا
وإما أن يكون صادقا .

أ - فإن كان كاذبا فكذبه عليه ولا يتعداه وانتم خالصون عنه . يقول
الامام القرطبي : (لم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه
ولكن تلطفا في الاستكفاف واستنزالا عن الأذى) (١)

ب - وإن كان صادقا فاتباعه نفع وفوز ونجاة ، وإصابتهم ببعض الذي
يعددهم هو كذلك أقل احتمال في القضية ولا يطلب اليهم أكثر
منه وهذا منتهى الانصاف في الجدل والافحام .

يقول صاحب الكشاف : (فان قلت لم قال " بعض الذي يعدكم "
وهو نبي صادق لا بد لما يعددهم أن يصيبهم كله لا بعضه ؟ قلت :
لأنه احتاج في مقابلة خصوم موسى ومناكره الى أن يلازمهم ويداريهم
ويسلك معهم طريق الانصاف في القول ويأتيهم من جهة الناصحة
فجاء بما علم أنه أقرب الى تسليمه لقوله وأدخل في تصديقهم له وقبوله
فقال : " وان يك صادقا يصيبكم بعض الذي يعدكم " وهو كلام المنصف
في مقاله غير المشتط فيه ليسعوا منه ولا يردوا عليه) . (٢)

فثبت أن على كلا التقديرين كان الأولى ابقاؤه حيا ومدار
الاستدلال هو اظهار الانصاف وترك اللجاج لأن تقدير الكلام ، أنه لا حاجة
بكم في دفع شره الى قتله بل يكفيكم أن تمنعوه عن اظهار هذه المقالة

(١) الجامع لاحكام القرآن ١٥/٣٠٦ .

(٢) الزمخشري ٣/٤٢٤-٤٢٥ .

ثم تتركوا قتله فان كان كاذبا فحينئذ لا يعود ضرره الا اليه وان يك
صادقا انتفعتم به ، فالتقسيم يوءى في النهاية الى عدم التعرض لموسى
عليه السلام وعدم محاولة قتله . وهكذا وبطريقة السبر والتقسيم يبقى
العقل المجرد والفكر السليم .

ثم يوءى كد لهم أنه ليس بكاذب بتقرير :
” إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ” (٢٨) (١)

فالله تعالى قد هدى موسى الى الاتيان بهذه المعجزات الباهرة ومن
هداه الله الى الاتيان بالمعجزات لا يكون مسرفا كذابا فهذا يدل على أن
موسى عليه السلام ليس من الكاذبين وبالتالي لا يستحق القتل ، وفيه
اشارة الى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض .

وقيل ان هذا (احتجاج آخر ذو وجهين :

أحدهما : أنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله الى البينات
ولا أيده بالمعجزات .

وثانيهما : أنه اذا كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة
لكم الى قتله) . (٢)

ومن خلال كل ذلك يتضح أن الانسان يعتز برأيه ومفكرته حتى
وهو يسلم في أعماقه ببطلانها وخطئها ، والمعاندون أكثر تشددا فسي
هذا المجال ولذلك راعى مؤءى من آل فرعون هذه الناحية في مناقشات معهم

(١) سورة غافر آية ٢٨ .

(٢) فتح القدير / الشوكاني ٤/٤٨٩ .

حيث رأينا في طريقته مع قومه ما يعرف بـ "مجاراة الخصم" والتي فيها تسليم لهم ببعض مقدماتهم وهو أن موسى سرف . . مراتب الا أن هذه المقدمة لا تنتج ما يريدون أن يصلوا اليه وهو القتل بل هو بعيد وانما النتيجة أن الله سيعالج أمره لأن الله لا يهدى من هو سرف كذاب ، وفي هذا النوع من جدله معهم استقذراج لهم ومحاولة شنيهم عما يعتزمون عليه بسعد بيان فساد العلاقة بين مقدمتهم الاتهامية والنتيجة التي رتب عليها ، وفي هذا يقول الشهرستاني ^(١) (اعلم أن الموافقة في العبارات على طريق الالتزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج) ^(٢) .

ثم يعقب صاحب كتاب الطراز على كل ما مضى من قول ذلك المؤ من قائلا :

(وفي سياق هذا الكلام من الملائفة وحسن الأدب وكمال الانصاف ما يربو على كل غاية ويانه من أوجه :

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد ، أبو الفتح الشهرستاني ، كان اماما مبرزا فقيها متكلمنا أصوليا ، برع في الفقه ، وتغرد في علم الكلام ، وكان كبير المحفوظ ، حسن المحاورة ، يعظ الناس ، شافعي المذهب ، توفي سنة ٥٤٨ هـ وقيل ٥٤٩ هـ (انظر ترجمته فسي طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٢٨/٦ ، وفيات الأعيان ٤٠٣/٣ شذرات الذهب ١٤٩/٤) .

(٢) الملل والنحل ٥٦/٢ .

١ - لأنه صدر الكلام بكونه كاذبا على جهة التقدير ، ملاطفة واستنزالا
للخصم على نخوة المكابرة ، ودعاء له الى الاذعان والانقياد للحق ،
وقدمه على كونه صادقا دلالة على ذلك .

٢ - ولأنه فرض صدقه على جهة التقدير مع كونه مقطوعا بصدقه - تقريبا
للخصم وتسليما لما يدعيه من ذلك وهضما لجانب الرسول ، زيادة في
الانصاف ومبالغة فيه . (١)

٣ - (أنه أردفه بقوله : ” يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ” (٢)

وان كان التحقيق أنه يصيبهم كل ما يعدهم لا محالة لأنه نبي
صادق الا أنه احتاج في مقابلة خصوم موسى أن يسلك معهم طريق
الانصاف والملاطفة في القول ويأتيهم من جهة المناصحة ، ليكون أوسع
الى سكوتهم اليه ، فجاء بما علم أنه أقرب الى تسليمهم لقوله وأدخل
في تصديقهم اياه فقال : ” وان يك صادقا يصيبكم بعض الذي
يعدكم ” وهو كلام المنصف في مقالة غير المشتط فيه ليسمعوا منه
أولا ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق
في جميع ما يعد ولكنه أردفه بقوله ” يصيبكم بعض الذي يعدكم ”
ليبهضه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه
حقه وافيا فضلا عن أن يتعصب له أو يرمى الحما من ورائه ، وتقديم
الكاذب على الصادق من هذا القبيل فكأنه برطلهم في صدر الكلام

(١) يحيى بن حمزة العلوي اليمني ٢٨٣/٢ .

(٢) سورة غافر آية ٢٨ .

بما يزعمونه لثلا ينفروا منه . (١)

٤ - (انه أتى بـ " إِنْ " الشرطية وهي موضوعة للأمر المشكوك فيها
ليدل بذلك على أنه غير مقطوع بما يقوله على جهة الغرض ، واذعانا للخصم
على التقدير لارادة هضده لحقه ، وأنه غير معط له ما يستحق من التعظيم .

٥ - وقوله في آخر الآية : " إِنْ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ سَرِيفٌ كَذَّابٌ " (٢) ،

أى هو على الهدى ولو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة
ولا عضده بالبينات ، وانما أتى به على التطف والانصاف مخافة
أن يبعدوا عن الهداية ومحاذرة عن نفارهم عن طريق الصواب فرضا
وتقديرا ، والا فلو كان مسرفا كذابا لما هداه الله الى النبوة ولما أخطاه
اياها ولما عضده بالبينات .

وفي هذا الكلام من الاستدراج للخصم وتقريبه وادناؤه الى
الحق ما لا يخفى على أحد من الأكياس ، وقد تضمن من اللطائف والأسرار
التي يستفيد منها الداعية - ما لا سبيل الى جرده . (٣)

ثم لما أقام مؤء من آل فرعون الدلائل على أنه لا يجوز الاقدام
على قتل موسى نراه يستخدم معهم طريقة أخرى للجدل معتمدا على

(١) انظر المثل السائر لابن الاثير ٢/٢٩٦ ، الطراز / يحيى بن

حمزة العلوى اليمنى ٢/٢٨٣ .

(٢) سورة غافر آية ٢٨ .

(٣) انظر الطراز / يحيى بن حمزة العلوى اليمنى ٢/٢٨٣ - ٢٨٤

المثل السائر / ابن الاثير ٢/٢٩٦-٢٩٧ ، الكشاف / الزمخشري

٣/٤٢٥ ، تفسير البحر المحيط / ابي حيان الأندلسي ٧/٤٦١ .

الترهيب تارة ، لأنه يعلم أن الانسان يكره الألم وينفر منه والترهيب
تارة أخرى :

١ - أما الترهيب فهو يتخوفهم من عذاب الله وتذكيرهم ببأسه وانتقامه
من الضالين المكذبين :

” يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا “^(١)

يعني قد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تغسدا وأمركم على أنفسكم
ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه فانه لا قبل لكم به ولكم عبره فيمن
سبقكم من الأحزاب السابقة وما أصابها في الدنيا وما ينتظرها في
الآخرة .

٢ - وأما الترغيب فقد كان عن طريق ما سينالهم من الخير والهدى
والرشاد الذي وعدهم به وحفظ الخير الذي هم فيه كأمة مالكة
ظاهرة في الأرض ثم بعد ذلك الجنة يرزقون فيها بغير
حساب .

ومع ذلك لم يسلم فرعون بسل قال : ” ما أرىكم الا ما أرى “
أى لا أشير اليكم برأى سوى ما ذكرت من أنه يجب قتله حسام لامة
الفتنة وما أهدىكم بهذا الرأى الا سبيل الرشاد والعلاج .

الا أن موء من آل فرعون نجده مقابل ذلك براعي طبيعتهم العنيدة
ويجامل خصومه ولا يرد على دعواهم ردا مباشرا حين قال فرعون : ” ما أرىكم
الا ما أرى “ الا أنه في الوقت نفسه لا يسلم لهم بها فيقول متما حواره
معهم : ” يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ “^(٢)

(١) سورة غافر آية ٢٩ .

(٢) سورة غافر آية ٣٠ .

متبعاً طريقة الانتقاد في الاستدلال لأن خصمه فرعون - بالرغم من أنه لا يشك في صدق كلام ذلك المؤمن من إلا أنه يقصد المغالطة مما اضطره إلى الاتيان بدليل آخر لا يستطيع فرعون جرده ، فهو يريد أن يصرفهم عن قصدهم في قتل موسى لأنه لا يستحق القتل بل يجب اتباعه ما دامت كل الحجج معه ، محذرا لهم من بأس الله أن ينزل بهم ، ومع ذلك يغالط فرعون قائلاً :

” مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ” (١)

ما اضطر ذلك المؤمن من أن يحذرهم مخوفاً من مثل يوم الأجزاء الذي يذكرونه ويمرون عليه ، فهم إذا لم يسلموا بنزول العذاب عليهم استبعاداً له فليذكروا أنه نزل بمن سبقهم فتزول شبهة الاستبعاد .
وهنا نلاحظ أن ذلك المؤمن قد استخدم طريقة المناصحة والارشاد وتوجيه انظارهم إلى من سبقهم ليأخذوا منه الفائدة والعبرة ، وهذه الصورة أو الطريقة تراعى الجدل في ثناياها وترد عليهم في اجمال وتدليل .

وعاد يفصل في دعوته لقومه وندائه لهم إلى الإيمان بموسى والتمسك بطريقته بعد أن دعاهم إلى قبول ذلك الدين على سبيل الاجمال حين قال لهم : ” يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ” (٢)

(١) سورة غافر آية ٢٩ .

(٢) سورة غافر آية ٣٨ .

وسبيل الرشاد : هو سبيل الثواب والخير وما يؤدى اليه ، لأن الرشاد نقيض الغي ، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي .

ثم بعد ذلك زاد الأمر تفصيلا عن طريق : بيان حقارة حال الدنيا وكمال حال الآخرة ، أما حقارة الدنيا فهي قوله :

”يَقْوَمُ بِهَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ“ (١)

والتي حاصلها : أن الآخرة باقية دائمة والدنيا منقضية منقرضة والدائم خير من المنقضي ، وذلك نرى كيف أنه اعتمد على أسلوب الترغيب في النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم ولذلك هو من أقوى وجوه الترغيب والترهيب ، ثم بين كيف تحصل المجازاة في الآخرة مشيرا فيه

الى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فقال :

”مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْرِي إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِىْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ“ (٢)

ولكن القوم على الرغم من قوة عارضته وحسن مجادلته قاوموه ليلجئوه الى صفهم ورأيهم فقال :

”وَيَقْوَمُ إِلَىٰ أَدْعَاكُمْ إِلَىٰ النَّجْوَىٰ وَدَعْوَتِي إِلَى النَّارِ“ (٣)

يقول الامام الرازى : (فان قيل لم كررنداه قوم ؟

فالملاحظ أنه أراد بذلك زيادة تنبيه لهم وايقاظاً من سنة

الغفلة ، واطهاراً أن له بهذا السهم مزيد اهتمام ، وعلى أولئك الأقوام

(١) سورة غافر آية ٣٩ .

(٢) سورة غافر آية ٤٠ .

(٣) سورة غافر آية ٤١ .

فرط شفقة . ولما ذكر هذا الموضع من أنه يدعوهم الى النجاة وهم يدعونهم الى النار ، فسر ذلك : بأنهم يدعونهم الى الكفر بالله والى الشرك به أما الكفر بالله فلا أن الاكثريّة من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الاله ، ومنهم من كان يقرب وجود الله الا أنه كان يثبت عبادة الأصنام . فحين قال : **وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَيْسَ لَهُ بِعِلْمٍ** (١)

فكأنه قال : وأشرك به ما ليس بإله وما ليس بإله كيف يعقل جعله شريكا للإله ؟ ولما بين أنهم يدعونهم الى الكفر والشرك استخدم معهم ما يسمى بالتمكين أو كما سماه صاحب تحرير التحبير المناسبة (٢) حين بين لهم أنه يدعوهم الى الايمان بالعزیز الغفار ، قاصدا كلمة "العزیز" اشارة الى كونه كامل القدرة ، منبها على أن الاله هو الذى يكون كامل القدرة ، وأما فرعون فهو في غاية العجز فكيف يكون الها ، وأما الأصنام فانها أحجار منحوتة فكيف يعقل القول بكونها آلهة .

كما قصد كلمة " الغفار " اشارة الى أنه لا يجب أن يكونوا

آيسين من رحمته الله بسبب اصرارهم على الكفر مدة مديدة فإن إله العالم وان كان عزيزا لا يغلب قادرا لا يغالب ، لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بايمان ساعة واحدة .

(١) سورة غافر آية ٤٢ .

(٢) وهو أن يسهل المتحدث للقريئة تمهيدا تأتي به القريئة متمكنة

في مكانها ، مستقرة في قرارها مطمئنة في موضعها غير نافرة ولا قلقة متعلقة معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضرب الفهم (انظر الاتقان ، السيوطي

٣٠٢/٣ ، تحرير التحبير / ابن أبي الاصبع ص ٣٦٣) .

ثم بين حجته في عدم اجابته لهم :

١ - ان هذه الأوثان التي تدعونني الى عبادتها ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة :

(١) ”لَا جَرَمَ لَكُمْ أَنْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ“

والتي تحتل :

أ - أن المعنى : ما تدعونني الى عبادته ليس له دعوة الى نفسه لأنها جمادات ، والجمادات لا تدعو أحدا الى عبادة نفسها حتى اذا قلبها الله تعالى حيوانا في الآخرة فانها تتبرأ من هؤلاء العابدين .

ب - أو معناه ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، فسميت استجابة الدعوة بالدعوة إطلاقاً لإسم احد المتضايفين على الآخر .

والحاصل أنه أراد أن يبين لهم أن دعواهم خالية من الحججة وأن البرهان قد قام على النقيض من ذلك فكأنه يقول لهم : ان المحاجة لا تقوم الا على الحججة والبرهان ، وانتم حين تدعونني لا كفر بالله وأشرك به فلم تثبتوا على مدعاكم شيئا من ذلك بل ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، اما حين ادعوكم الى العزيز الغفار ، فقد قام البرهان على هدايتي الى طريق الحق ، والصواب فلم لا تتقبلون الحق المؤيد بالحجة والبرهان .

٢ - ان المراد الى الله تعالى العالم بكل المعلومات ، القادر على كل الممكنات ، الغني عن كل الحاجات الذي لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد ، فأى عاقل يجوز له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الأشياء الباطلة ، وأن يعرض عن عبادة هذا الاله الذي لا بد وأن يكون مرده اليه .

ثم ختم كلامه لهم بخاتمة لطيفة توجب التخويف والتحذير الشديد " فستذكرون ما أقول لكم " سوا في الدنيا أو في القيامة وقت مشاهدة الأحوال .

- ومع ذلك فقد هدوه بالقتل .

فرد عليهم معولا في دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل

الله تعالى فقال : " وَأَفِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، "

وهو انما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام فان فرعون لما خوفه بالقتل رجع موسى في دفع ذلك الشر الى الله حيث قال : " انسي عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب " إلا أنهم لم يتركوه وشأنه خاصة بعدما صرح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء قال مقاتل (١) : لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله

(١) هو مقاتل بن سليمان بن كثير الأزدى الخراساني ، أبو الحسن

البلخي المفسر ، من الطبقة السابعة ، حكى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : الناس كلهم عيال على ثلاثة : مقاتل بسن سليمان في التفسير ، وعلي زهير بن أبي سلمى في الشعر ، وعلي أبي حنيفة في الكلام توفي سنة ١٥٠ هـ .

(انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٣ / ١٦٠ ، تهذيب التهذيب

١ / ٢٧٩ ، التفسير والمفسرون ٢ / ٣٣٠) .

فهرب منهم الى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه ، وقيل المراد بقوله :

”فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا كُرُوا“

أنهم قصدوا الى ادخاله الكفر وصرفه عن الاسلام فوقاه الله عن ذلك

”وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٥٠)“ (١)

(١)

وبالفعل كانت النهاية لتلك المجادلة عبارة عن صورة تدخلت

فيها يد القدرة الالهية كما تقرها سورة غافر :

”وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٧٧)“ (٢)

فكان ذلك خاتمة للجحود والكبر والطغيان .

والواضح من الامر أنه بقدر ما كان موسى قويا ثابتا في مجادلته

بقدر ما كان فرعون ضعيفا مترددا شأن الباطل في ذلك والذي قال

فيه سبحانه : ”وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُحْضُوا بِهِ الْحَقَّ“ (٣)

فبين تعالى أن المفتون هو الذي لا يلحق حجة ، وأن الحق هو

اللقن حجة على الحقيقة وهم أهل الحق ولذلك قال تعالى :

”الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنهَمُ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَابَتُوا
كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٢٥)“ (٤) (٥)

(١) انظر التفسير الكبير / الفخر الرازي ٢٧ / ٢٠-٧١ .

(٢) سورة غافر آية ٣٧ .

(٣) سورة الكهف آية ٥٦ .

(٤) سورة غافر آية ٣٥ .

(٥) الاحكام في اصول الاحكام / ابن حزم ١ / ٢٣ .

وقد ظهر هذا الطبع واضحا من مجموع الجهالات التي صدرت من فرعون والتي تتحلل في :

١ - اتهام موسى بالسحر وهذا غاية في البعد لأن تلك المعجزات كانت قد بلغت من القوة والظهور الى حيث يشهد كل ذى عقل سليم بأنه ليس من السحر البتة .

٢ - أنه لجأ الى قتل أبناء الذين آمنوا معه واستحميا نساءهم لئلا ينشأوا على دين موسى فيقوى بهم .

٣ - بل كان من قبائح فعله مع موسى محاولة قتله :
” وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى (١) “

هذه القولة تظهر الجدل بالباطل في أبشع صورة لأنه لو كان ظن الحق لما لجأ الى القتل بل ظهرت حجته وظبت ولذلك لم يقل أنه سيقتل موسى على صيغة الجزم ، بل اهتز موقفه بعد أن ظهرت حجج موسى الواضحات فقال (ذروني أقتل موسى) .

وكما قال صاحب التفسير الكبير في احتمالات هذه القولة :
(الا أنه / خائفا لو حاول ^{كان} قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح الا أنه لو قاتلته قال (ذروني أقتل موسى) وغرضه منه : أنه انما انتزع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه وغرضه منه اخفاء خوفه . (٢)
ولكنه سبحانه سجلها عليه خالده ” وما كيد فرعون الا في تباب ” .

(١) سورة غافر آية ٢٦ .

(٢) الفخر الرازي ٢٧ / ٥٤ .

هذا التباب وضحت آيات سورة غافر: "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّحَهُمُ بَيْنَ الْعَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْمَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ
عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْ لَوْ أَنَّكَ تَأْتِيكُمْ رُسُلٌكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾" (١)

ولأن الإنكار بعد الاعتراف لا يسمع فقد كانت عاقبتهم على ضلالهم
الأول ضلالاً ثانياً : هو الإنكار بعد الاعتراف (وفي مثل
هذا اللون من التسجيل إثارة لوجدان المشككين والمنكرين وإثارة
الخوف في أنفسهم حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم ويدفعهم
الخوف إلى التأمل عما هم يبهتون) (٢)

والملاحظ أن في قصة فرعون مع موسى في سورة غافر حذف
للكثير من فصولها وذلك :

- ١ - (لأن الحديث فيها ليس بعنصر أساسي في هذه المجادلة إلا
أنها تدرك من السياق .
- ٢ - كما أن حذفها كان أفضل لأن ذكره يشغل عن تأمل ما في
هذه المجادلة ما يحتاج إلى تأمل وهو كثير) (٣)
- ٣ - ثم إن تخطيها فيه وصول إلى العناصر الجوهرية في المجادلة
وهي المقصود لأن فيها الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق
فرعون ومن معه التدمير بتكذيبهم .

(١) سورة غافر آية ٤٦ - ٥٠ .
(٢) انظر من بلاغة القرآن / احمد بدوي ص ٣٢٦ .
(٣) انظر الكشاف / الزمخشري ٢ / ٣٢٤ ، الايضاح القزويني ص ١٣٨ ،
الاقصى القريب / التنوخي ص ٦١ .

ما يخرج به الداعية من مجادلة موسى لفرعون :

- ١ - يتعلم الداعية كيف يكون فن الحوار وما هي الأصول المتبعة في ممارسة طريقة المناقشة حين يقف مع الناس مواقف الرد والاعتناء بالمحاجة وحتى لا ينهزم أمام محاجة الخصوم .
فهذا موسى عليه السلام كان مهياً لكل موقف ومستعداً لمواجهة جميع الاحتمالات المطروحة من خصومه ولم يظهر أنه فوجي 'بشي' منها .
وهكذا الداعية لا بد أن يضع في خلدته المفاجآت المتوقعة من قبل معارضيها بالحوار لأنه إن لم يكن مستعداً لمواجهة كل الاتهامات والاحتمالات غلبت عليه روح الانهزام .
- ٢ - ولا بد أن يدرك الداعية أن للدعوة أساليب متعددة كثيرة تعينه في تبليغ دعوته منها ، أسلوب الالتفات الذي يحتاجه الداعية كثيراً لما فيه من فوائد عظيمة ذكرها صاحب الاتقان فقال ما نصه : (منها تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب المتنقلات ، والسامة من الاستمرار على منوال واحد) (١) .
- ٣ - ومنها أسلوب التلطف في القول والرفق في المعاملة والذي له شأن كبير في نجاح الداعية في قيام دعوته إلى الخير لأن النفوس شبت في الغالب على الأنفة والرعونة ونشأت على التقيد بالالف والعادة فمن حاول الخروج بها عن مألوفاتها وعاداتها فلا بد له أن يمزج مرارة الحق

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٥٣/١ .

وحلاوة التلطف وأن يسهل صعوبة التكليف بحلاوة الرفق واللين ، من هنا

رأينا موسى عليه السلام ينادى فرعون قائلاً : (١)
” يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ “

(فكأنه قال : يا ملك مصر) (٢) ويقول صاحب التحرير والتنوير :

(والظاهر ان خطاب موسى عليه السلام لفرعون بقوله يا فرعون خطاب اكرام

لأنه ناداه بالاسم الدال على الملك والسلطان بحسب متعارف أمته وليس

هو يترفع عليه لأن الله تعالى قال له ولهارون :

” قَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا “ (٣) (٤)

ما يفيد أن لين القول هو محل رجاء التذکر والاتعاظ .

٤ - ومنها أسلوب الاستدراج لاستمالة المدعو بما يوفّر فيه

ويأنس اليه أو بما يخوفه ويرهبه قبل أن يفاجئه بما يريد أن يطلبه منه ،

وهو الأسلوب الذي انتهجه موسى عليه السلام مع خصومه ، ولأن أمزجة

الناس تختلف في ذلك ، فينبغي أن يستمال كل بما يناسبه ولا بد أن

يدرك الداعية ان من الخطأ الذي يجب الحذر منه ، هو استدراج الخصم

الى ما يفقده السيطرة على أعضابه ، فننقلب الحوار الى ثورة ومهاترة كلامية

قد تجر الى خصومة لا تحمد عقباها ، فالداعية الحكيم لا يستدرج

بالغضب والانفعال ولا يخرج من الموقف معلنا الخصومة لأحد بل عليه

أن يعلم ان الأمر عبارة عن تصرف في الكلام لا بد أن يتقن ليكون له

(١) سورة الأعراف آية ١٠٤ .

(٢) التفسير الكبير / الفخر الرازي ١٤ / ١٩٠ .

(٣) سورة طه آية ٤٤ .

(٤) محمد الطاهر بن عاشور ٩ / ٣٧٧ .

قوة توصله الى هدفه (بما تضمن من النكت الدقيقة في استدراج الخصم الى الازعان والتسليم لأنه لا انتفاع بايراد الالفاظ الطليحة الرائعة ،
(١)
ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لغرض المخاطب بها) .

٥ - وليعلم الداعية أن الأمر ليس معتمدا على قوة البينة أو وضوح الحجة حتى يستجيب له الناس بل غالبا ما يقابل بالمعارضة والرفض ومن هنا لا بد أن يدرك أنه لا يملك الهداية لأحد ، بل ليس من شأنه ذلك وهذا موسى عليه السلام بالرغم من كل ما جاء به فقد اتهم بالسحر وعندما أثبت أنه ليس بساحر اتهم بالافساد في الأرض ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل هموا بقتله ، وهذا هو طريق الدعاة الى الله .

٦ - البشارة لأهل الايمان أن يطمئنوا الى العاقبة وأن يعرفوا أن النصر للحق في النهاية مهما علا الباطل ومهما تجبر وطغى أهله فهم ليسوا على شيء لأن الله يقول : ” وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ” (٢) ،

ويقول : ” وَمَا كَيْدُ فَرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ” (٣) ،

وفيما مضى ذكره تسلية للدعاة في تكذيب من كذبوهم يقول صاحب تفسير القرآن العظيم (ان هذه المجادلة فيها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في تكذيب من كذبه من قومه وبشارة بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام) . (٤)

(١) الشئل السائر / لابن الاثير ٢ / ٢٩٥ .

(٢) سورة غافر آية ٢٥ .

(٣) سورة غافر آية ٣٧ .

(٤) ابن كثير ٤ / ٧٦ .

٧ - وفي النهاية لا بد أن يدرك الداعية أن جميع الأبواب لو أغلقت أمامه في أثناء سيره في طريق دعوته فإن باب الله مفتوح فهو الركن الركين والحصن الأمين يلجأ إليه كقوة أمام قوة وجبروت أعدائه ، وهذا ما فعله موسى عليه السلام حين قال :

”إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾“ (١)

مؤء كذا أن هذا الطريق هو المختبر في دفع الشرور والآفات عن النفس ، ولم يزد على ذلك حتى قيض الله من ذب عنه على أحسن الوجوه وعمل على تسكين تلك الفتن التي تدور حول قتله واجتهد في ازالة ذلك الشرء .

٨ - كما يستطيع الداعية أن يستفيد من مواقف مؤء من آل فرعون حين أراد أن ينصح قومه ويعظهم فيما كانوا متورطين فيه من الخطأ العظيم ، كيف رتب معهم الكلام وساقه أرشق ساق مع استعمال الرفق واللين والأدب الجميل ، والخلق الحسن مقتدياً برسوليه حين قال لهما ربهما حين بعثهما لفرعون : ”فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا“ (٢)

فبدأ بطلب الباعث لهم على قتله ليتوصل بذلك الى قطعهم والجامهم .

٩ - كما يتعلم الداعية كيف يعطي الاجابة والمحاورة حقها ويحيط بها من جميع جوانبها ويشبعها بحثاً واستدلالات حتى ينقاد من يحاوره للهدى ويستجيب للحق اللهم الا اذا وجد منه مكابرة في الحق ومجادلة بالباطل .

(١) سورة غافر آية ٢٧ .

(٢) سورة طه آية ٤٤ .

١٠ - كما يتعلم الداعية كيف يكون متمكنا من تجسيد فكرته ، والتي يختار لها الكلمة الدقيقة المعبرة التي تساعد على تصوير ما يريد فيشعر به المدعو أتم شعور وأقواء مما يزيد الحق تمكنا في النفس ويكون تأثيرها قويا .

١١ - كما يتعلم كيف يكون الاعراض عن الجدل الباطل حين يسبئ بمن لا يقصد الا الطعن في كلامه بقصد الاهانة والتحقير أو ابتلى بمجادل لا يريد الا أن يعاجز في الحق ويساند الباطل بقصد العلو والكبرياء فعليه أن يتخذ موقفا حكيما ومخرجا حسنا مستفيدا من موقف - مؤء من آل فرعون - الذى يتسم بالآدب الجم والهدوء النفسى والاتزان العقلى والخلق الكريم ، والذى أبقى الحوار الى نهايته محتفظا بمستوى عال عن الغضاظة والخشونة مع ما يحمله من قوة الاقناع ووضوح الحجة .

١٢ - كما يستفيد من أسلوجه مع قومه الذى اعتمد على طريقة التلويح في المقال والتعريض في الخطاب والذى هو أبلغ من التصريح وأوقع في النفس وأعظم تأثيرا في القلب وأدعى الى التنبه للخطأ مع ما فيه مسن مراعاة حرمة المخاطب بترك المجاهرة بالتوبيخ ، الذى يهيج الحرص على الاصرار ولا سيما النفوس المنطوية على الكبر ، وها هو يقول لهم لما سمع بخبر عزمهم على قتل موسى :

” أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ
وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ” (١)

وفيه من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو الكاذب ومن هو الصادق
أبلغ من التصريح بذلك وهو أبلغ في الانصاف وأبعد عن الجدل والاعتساف
لأن النفوس جبلت على الميل الى العظمة وحب الكرامة ونشأت على التقيد
بالالف والعادة فلا بد لمن أراد صرفها عن غيرها الى رشادها أن يسير بها
أقرب المسالك .

١٣- ومن ضمن الأساليب التي ينبغي للداعية أن يستفيد منها
الأسلوب الذي انتهجه مؤمن آل فرعون حين أبرز كلامه في معرض النصيحة
لنفسه وهو يريد منا صحة قومه : ” وَيَقُولُ مَا لِيَ أُدْعَىٰ إِلَىٰ النَّجْوَىٰ وَدُعُونِي إِلَىٰ النَّارِ ﴿٤١﴾
” دُعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ” وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْعِزِّ مِنَ الْفَقْرِ ﴿٤٢﴾ ” (١)
والمراد تفرغهم على ترك عبادة خالقهم الى عبادة غيره كما ينبغي عنه قوله :
” دُعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ”
وهذا تعريض بهم وهو أبلغ وأحكم للقبول .

١٤- كما يتعلم الداعية طريقة التأثير عن طريق التعليم الذي يبين فيه
المطلوب مقرونا بحكمة التشريع وشفوعا بالحث على التمسك والتحذير من
التهاون فيه .

١٥- ويستطيع الداعية أن يستفيد كبير فائدة من أسلوب التخلّص
الذي لجأ اليه ذلك المؤمن من والذي يعنى (الانتقال بما ابتدئ به
الكلام الى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى بحيث لا
يشعر السامع بالانتقال من المعنى الاول الا وقد وقع عليه الثاني لشدة

(١) سورة غافر آية ٤١-٤٢ .

الالتئام بينهما) (١)

وإذا أردنا أن نحصر التخلصات في قصة موء من آل فرعون نجد أن

التخلص الأول :

لما حاول موء من آل فرعون دعوة فرعون وطلته الى عبادة الله بعدما كان بينه وبين موسى من الخصومة والجدال فصدر حديثه معهم بثنيهم عن قتل موسى واقفا موقف المحايد بينهم وراء سؤال استنكاري حول السبب في قتله والذي لم يكتفوا بالوقوف أمامه بل ادعى فرعونهم أن سبيل الرشاد ليس الا سبيله ثنيا عن الحق والتذكير فيه .

التخلص الثاني :

لما أجابه فرعون بما أجاب أراد أن يحقق عليهم الامر حتى لا يكون لهم سبيل الى الجحود فخرج عن ذلك الى تحذيرهم وترهيبهم بصورة في الدنيا لا ينكرونها بل يذكرونها ويسمعون عنها ، صورة يوم نوح وعاد وشمود والذين من بعدهم ، والا فهناك صورة في الآخرة حين ينادي بعضهم على بعض فيولوا مدبرين وصدر كلامه بقوله " يا قوم " تأدبا منه وملاطفة لهم ، ولم يقل لهم انكم تقصدون الى البيئات ما طلة . . لم

(١) انظر الايضاح ، القزويني ص ٣٠٢ ، الطراز ، العلوي اليمنسي

٣٣٠ / ٢ ، الاتقان في علوم القرآن / السيوطي ٣ / ٣٧٣ .

بواجبههم بها بل ذكرهم :

”وَلَقَدْ جَاءَكَ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيْتِ فَأَرْسَلْنَا فِي شَكِّكَ مَا جَاءَكَ مِنْ بِيَدِنَا حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلٌ“ (١)

اذا هولم بات بحجة على أنهم لا يريدون الايمان بل المعاظلة على جهة القطع منه بها بل ذكرهم بموقف وترك لهم وحدهم الاستنتاج والحكم على أنفسهم عن طريق سرد قصة يوسف معهم وموقفهم منه بالرغم من بيانه وتذكيرهم بالنهاية في الدنيا والآخرة ونراهم حكموا على أنفسهم بالجهالة حين أعادوا نفس الموقف غير عابئين به بل بهزأ كبيرهم قائلا :

”يَهْمُنُ ابْنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِ نَجْدًا كَذَبًا“ (٢)

التخلص الثالث :

لما تحقق من تعويلهم على الانكار والتكذيب خرج الى تبرئة

نفسه ما يدعونه اليه ولهذا قال :

”مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَدَعُونِي إِلَى النَّارِ“ (٣)

فكان صور المسألة في نفسه على معنى أنني فكرت في أمرى ونظرت في حالي فرأيت أن اجابة دعوتكم هي الحكم على نفسي اذا رفضتها وآثرت النجاة وأراهم بذلك أنها نصيحة ، نصح بها نفسه أولا ونهى عليها تدبير أمره لينظروا فيقولوا ما نصحنا الا بما نصح به نفسه وما أراد لنا الا ما أراد لروحه ، ليكون ذلك أدعى لهم الى القبول لقوله ، وأبعت الى الاستماع

(١) سورة غافر آية ٣٤ .

(٢) سورة غافر آية ٣٦-٣٧ .

(٣) سورة غافر آية ٤١ .

لخطابه ، ولو قال لهم انكم بسبب دعوتكم ستدخلون النار ، لم يكن بتلك
الثابة ، ولأنه دخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح
ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فرما قاده التأمل الى التدبير (١) .

التخلص الرابع :

لما ذكر أن ما يدعونه اليه غير مستحق للعبادة وذكر موقفه الصريح
من ذلك خرج الى ذكر الله وأجرى له من الصفة اللائقة بذاته من اعظام
حاله واطهار جلاله وتفخيم شأنه مع ما سيكون منه في الآخرة ليعلم
أن كل من هذه حاله فهو حقيق بالعبادة ووجب على الخلق الخضوع
له والاستكانة لعظمته :

(٢)

” وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ “

التخلص الخامس :

كان لما فرغ من كل ذلك خرج الى حكاية ما يقول أهل النار
ففي النار من الخصومة الناشئة بينهم واطهار الحسرة والندامة المفرطة على
ما كان منهم من عدم استجابة للرسل وانقطاع ما في أيديهم من شفاعاة
شافع أو صداقة صديق ، وعند هذا تعظم الحسرات وتقطع الأفتدة حسرة
واياسا عن النفع والخلص ما هم فيه . (٣)

(١) انظر الطراز / العلوى الينبي ٣٣٥ / ٢ ، من أسرار البلاغة / محمود

السيد شيخون ص ١٩٣ (فصل " التخلص " والتي اختار لها

العلماء جانباً من قصة ابراهيم عليه السلام) .

(٢) سورة غافر آية ٤٤ .

(٣) انظر الطراز / العلوى المنذر ٣٣٩ / ٢ .